قطاع المساجد

دورة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه العلمية 12

شرح الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

شرح
الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

رقم الإيداع ٦٨/ ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد منَّ الله علي فشرحت «الوصية الصغرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في دورة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب العلمية في دولة الكويت حرسها الله؛ وهي دورة علمية متميزة في تنظيمها وحضورها واختيار موضوعاتها، ثم شرحت الوصية مرة أخرى في مسجد النبي ﷺ.

فكان من نتاج هذين الشرحين هذا الشرح المكتوب المفرغ منهما، وقد اجتهدت في مراجعة الشرح قدر الإمكان، وحاولت جعله مناسباً ليكون مكتوباً، وأسأل الله عز وجل أن ينفع به الشارح والسامع والقارئ، وأن يجزي خير الجزاء كل من كان له نصيب في إخراج هذا الشرح مكتوباً.

والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا وسلم.

ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١)

عندما أردت أن أسطر ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ احترت فيما اختار وكيف أترجم لهذا العالم الجهبذ باختصار، فسيرته العطرة كلها دروس وعبر، وقد صُنفت في سيرته مصنفات مستقلة وشَرُفَتْ كتب التراجم بترجمة طويلة له رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلها صفحات ناصعة، واختيار النفيس من بحر غزير كله نفائس أمر من الصعوبة بمكان، وقد حاولت جهدي أن أقتبس من سيرته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يفي بالمقصود من هذه الترجمة في المطالب التالية :

المطلب الأول : اسمه ونسبه وشهرته ولقبه وكنيته :

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي .

الإمام، العلامة، الفقيه، المجتهد، الناقد، المفسر، البارع، الحافظ، المحدث، الأصولي، عَلَم الزهاد، ونادرة الدهر .

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أسرة علم وورع؛ فوالده العلامة المفتي شهاب الدين عبد الحليم كان محدثاً وفقيهاً وصاحب تدريس وإفتاء، تولى مشيخة دار الحديث السكرية والتدريس في الجامع الأموي .

(١) انظر هذه الترجمة في المصادر التالية : «معجم الشيوخ للذهبي» (١/ ٥٦-٥٧)، و«المقصد الأرشد» (١/ ١٣٢-١٣٩)، و«الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٨٧-٤٠٧)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٤١-١٤٥)، و«شذرات الذهب» (٦/ ٨٠-٨٦)، و«البدر الطالع» (١/ ٦٣)، و «الدرر الكامنة» (١/ ٥٤)، و«الوافي بالوفيات» (٧/ ١٥-٣٣)، و«مرآة الجنان» (٤/ ٢٧٧-٢٧٨)، و«النجوم الزاهرة» (٩/ ٢٧١-٢٧٢)، و«العواصم من القواصم» (٥/ ٢٦١)، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي، و«الأعلام العلية» للبزار، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين، و «شيخ الإسلام ابن تيمية إمام السيف والقلم»، و«ابن تيمية» للدكتور محمد يوسف موسى، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٤٦-٥٠) .

وجده الإمام المجتهد شيخ الإسلام أبو البركات مجد الدين من كبار العلماء .

شهرته : اشتُهِرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابن تيمية .

وسبب تسميته بذلك أن أم جده محمد كانت تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها.

وقيل: إن جده محمد بن الخضر حج في إحدى السنين ولما مَرَّ بتيماء رأى طفلة أعجبته، فلما رجع من حَجِّه وجد امرأته ولدت له بنتاً فقال: يا تيمية يا تيمية، تشبيهاً لها بتلك الطفلة التي رآها؛ فاشتهروا بذلك(١).

لقبه : يلقب بشيخ الإسلام وبتقي الدين .

كنيته : أبو العباس ولم يكن له ولد إذ لم يتزوج ولم يَتَسَرَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المطلب الثاني : مولده ونشأته :

ولد يوم الإثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحرَّان، وقيل: ثاني عشر ربيع الأول .

وعاش في حران بضع سنين، ثم قدمت أسرته إلى دمشق فراراً من التتار الذين استولوا على البلاد سنة سبع وستين، وأقبل على العلوم في صغره، وختم القرآن، وأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين ابن الـمُنَجَّى، وبرع في ذلك، وقرأ في العربية أياماً على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم وبَرَّز فيه،

(١) انظر : «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٢٨٩) .

وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام وبرز في ذلك على أهله، ورد على كبارهم، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضاً .

وأمدَّه الله بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه.

ثم توفي والده وكان عمره إحدى وعشرين سنة، فقام بوظائفه بعده؛ فدرَّس بدار الحديث السكرية أول سنة ثلاث وثمانين، ثم جلس عقب ذلك مكان والده بالجامع لتفسير القرآن العظيم، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر .

وشرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علو وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره .

وقد كانت نشأته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصونٍ تام، وعفافٍ، وتعبدٍ، واقتصاد في الملبس، والمأكل، فنشأ على جانب كبير من الخوف من الله تعالى، زاهداً، ورِعاً، ملازماً للعبادة، وتلاوة القرآن الكريم، وكان قد قطع جل وقته وزمانه في عبادة الله، ولم تشغله شاغلة عن عبادة ربه، وكانت بضاعته طوال عمره العلم ونصرة السنة.

المطلب الثالث : صفاته الخِلقية والخُلُقية والعلمية :

صفاته الخِلْقية :

كان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنه، كأن عينيه لسانان ناطقان، تلوح نضرة النعيم على وجهه، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت .

صفاته الخُلُقية :

كان سمحاً كريماً بطبعه لا يتصنع ذلك، وكان لا يرد من سأله شيئاً، وكان حليماً، كثير العفو عمَّن آذاه، حتى قال: (فلا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه، أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا أو ظلموا فهم في حل من جهتي).

وكان شجاعاً من أشجع الناس وأقواهم قلباً، ما رأى الناس في عصره أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو، وكان لا يترك سبيلاً من سبل الجهاد إلاّ وَلَجَه فجاهد بقلبه ولسانه ويده.

صفاته العلمية :

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد التمسك بالأثر معظماً له، ومن أشد الناس تعظيماً لرسول الله ﷺ حريصاً على اتباعه، باذلاً كل ما يملكه في نصر ما جاء به، فبنى عِلْمَهُ على نصوص الكتاب والسنة ونصوص سلف الأمة، وكان في تأليفه ومناظراته مُسْتحضراً للأدلة من الكتاب والسنة كأن الكتاب والسنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه.

قال عنه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (برع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه بطبع سيَّال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميَّال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه؛ فقلَّ من يحفظ ما يحفظه معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة، والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عنده، وأتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً، ونظر في

العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونبَّه على أخطائهم وحذر منهم، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين).

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متواضعاً في تعليمه للناس يجلس تحت كرسيه ويدع صدر المجلس عند جلوسه للتدريس، ويجري في درسه مجرى السيل، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضاً عينه من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن، وإذا فرغ من درسه فتح عينيه، وأقبل على الناس بوجه طلق بشوش، وخلق دمث، كأنه قد لقيهم حينئذ .

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً، أو امرأة، حراً، أو عبداً، ويجيب السائل ويفهمه بلطف وانبساط.

المطلب الرابع : شيوخه وتلاميذه :

شيوخه :

أولع الشيخ بطلب العلم من صغره، وأوقف حياته على طلب العلم، فسمع من كثير من الشيوخ، فسمع من أكثر من مائتي شيخ منهم :

والده عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني شهاب الدين (٦٢٧-٦٨٢هـ)[١].

محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي الصالحي الحنبلي (٦٣٠-٦٩٩هـ)[٢].

(١) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ١٦٦)، و« ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣١٠) .

(٢) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ٤٥٩)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٤٢) .

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الصالحي (٥٩٧-٦٨٢هـ)[١].

مُنَجَّى بن عثمان بن أسعد بن الـمُنَجَّى الدمشقي الحنبلي زين الدين (٦٣١-٦٩٥هـ)[٢].

عباس بن عمر بن عبدان البعلي (ت ٦٨١هـ)[٣].

محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن علي الشيباني الآمدي الحنبلي (٦٣٣-٧٠٤هـ)[٤].

أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد زين الدين أبو العباس (٥٧٥-٦٦٨هـ)[٥].

تلاميذه :

عاش الشيخ باذلاً نفسَهُ في نشر العلم، وقد أقبل على الأخذ عنه تلاميذ كثيرون، اشتهر كثير منهم بالعلم والإمامة في الدين ومن هؤلاء :

الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)[٦].

الإمام الحافظ شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ)[٧].

الإمام الحافظ المحدث محمد بن أحمد بن عبد الهادي (٧٠٤-٧٤٤هـ)[٨].

(١) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ١٠٧)، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٠٤).

(٢) انظر ترجمته في : «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٣٢)، و«المقصد الأرشد» (٣/ ٤١).

(٣) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ٢٧٧).

(٤) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ٣٧٩)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٥٢).

(٥) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (١/ ١٣٠)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٧٨).

(٦) انظر ترجمته في : «طبقات الشافعية» للأسنوي (١/ ٢٧٣).

(٧) انظر ترجمته في : «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٧)، و« الدرر الكامنة » (٤/ ٢١).

(٨) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢/ ٣٦٠)، و« ذيل طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٣٦).

ابـن قاضي الجبل أحمد بن الحسـن بـن عبد الله بن محمد بـن أحمد بن قدامة المقدسي الصالحي (٦٩٣-٧٧١هـ)[١].

عمـاد الديـن أبو الفداء ابن كثير إسـماعيل بـن عمر بن كثير بن ضـوء بن ذرع القرشي البصري ثم الدمشقي (٦٧١-٧٧٤هـ)[٢].

الحافظ خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي(٦٩٤-٧٦١هـ)[٣].

المطلب الخامس: جهاده وابتلاؤه:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ فـي طليعـة المجاهدين للتتار بنفسـه، وكان يحث السـلطان والولاة على الجهاد، ويبشـرهـم بنصر الله ويحذرهم من مخالفـة أمره بترك الجهاد، وكان يخطـب الناس، ويحثهم على القتال وبذل النفـس والنفيس في جهاد أعداء الله، كمـا كان يحارب البدع بشـتى صورهـا وألوانها، ويعمل للقضـاء على مظاهرها، بـاذلاً كلَّ وقتـه لبيان الحق للمسـلمين، والدعوة إلـى العقيدة السـلفية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى تحكيم الأصول الشرعية، فكان سيفاً مسلولاً على المخالفين للسنة، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، ناصراً للسنة وإن خالفت ما عليه الناس، مما أصابه بمحن وشدائد.

يقـول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولقد نصر السـنة المحضة والطريقة السـلفية واحتج لها ببراهـين ومقدمات .... حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشـام قياماً لا مزيد عليـه، وبدَّعـوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهـن ولا يماري، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده).

(١) انظر ترجمته في: «المقصد الأرشد» (١/ ٩٢).

(٢) انظر ترجمته في: «طبقات المفسرين» للداودي (١/ ١١١).

(٣) انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢/ ١٠٩).

وقد كان خصومه يكيدون له حتى تمكنوا من جعل السلطان ونوابه يسألونه عن معتقده في عدة مجالس، ولكنَّ الحقَ أبلج، وقد كان كما قال عنه الذهبي: (وكم من نوبة قد رموه من قوس واحدة فينجيه الله).

وشاء الله أن يبتلي الشيخ فأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة، وامتحن مراراً، واتفق أهل الأهواء والبدع والشهوات على معاداته، وجُلُّ من عاداه تستروا باسم العلماء والزمرة الفاخرة فتخرصوا عليه بالكذب والبهتان، ونسبوا إليه ما لم يقله وما لم ينقله وما لم يوجد له بخط ولا سمع منه في مجلس، فسجن بسببهم في قلعة مصر، والقاهرة، والإسكندرية، وفي قلعة دمشق مرتين، كل ذلك بسبب تمسكه بنصوص الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح رضي الله عنهم، وكان رحمه الله ينشر دعوته بين الناس وهو في داخل سجنه، حتى كان الناس يأتون إليه من كل مكان يستفتونه ويتلقون كلمة الحق منه، وفي آخر حياته رحمه الله سجن في قلعة دمشق حتى أتاه اليقين وهو ثابت على الحق المبين، لا يشتري راحة الدنيا بشيء من الدين، فرحمه الله رحمة واسعة وجعله من أهل الفردوس الأعلى.

المطلب السادس: مؤلفاته:

بارك الله للشيخ في عمره وأمده بتوفيقه فصنف مصنفات عظيمة هي أشهر من أن تذكر وأعرف من أن تنكر حتى قال غير واحد: (إنها سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار قد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن أحد حصرها).

ولابن القيم رحمه الله رسالة خاصة في مؤلفات الشيخ ذكر فيها واحداً وأربعين وثلاثمائة كتاب، ومع ذلك فقد فاته من رسائل الشيخ الكثير.

ومن مؤلفاته :

«منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية».

«درء تعارض العقل والنقل».

«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

«اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم».

«شرح العمدة في الفقه».

«القواعد النورانية».

«الفتوى الحموية».

«العقيدة الواسطية».

«بغية المرتاد».

«النبوات».

المطلب السابع : وفاته، وثناء العلماء عليه :

وفاته :

مرض الشيخ وهو في سجن قلعة دمشق بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه، ثم توفي في سحر ليلة الإثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، فصلي عليه بالقلعة ثم حمل إلى جامع دمشق، وصلى عليه وشيعه أناس لا يحصون كثرة وعدداً، ولم تفتح الأسواق المعتادة بالفتح أول ذلك النهار، واجتمع عنده خلق يبكون، وأخبرهم أخوه زين الدين عبد الرحمن أنهما ختما في القلعة ثمانين ختمة والحادية والثمانين انتهيا فيها إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، وحزر الرجال في جنازته بستين ألفاً أو أكثر، والنساء بخمسة عشر ألفاً.

ثناء العلماء عليه :

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قد قرأت بخط شيخنا العلامة كمال الدين بن الزملكاني[١] ما كتبه سنة بضع وتسعين تحت اسم ابن تيمية : (كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أنَّ أحداً لا يعرفه مثله) .

وقال الذهبي عنه: (يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله).

وقال أيضاً : (فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال لـه ابن تيمية مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام بالحق والجهاد بكل ممكن)[٢].

وحكى الذهبي عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد[٣] أنه قال للشيخ عند اجتماعه به وسماع كلامه: (ما كنت أظن أن الله تعالى بقي يخلق مثلك).

(١) هو كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، ابن الزملكاني، ولد بدمشق في شوال سنة (٦٦٧هـ)، كان عالماً، بليغاً، من أذكياء أهل زمانه، درس، وأفتى، وصنف، وتخرج عليه تلاميذ كثر، توفي في مصر سادس عشر من رمضان سنة(٧٢٧هـ)، انظر ترجمته في : «طبقات الشافعية» للأسنوي (١/ ٣١٠-٣١١) .

(٢) «زغل العلم» (ص: ٣٨).

(٣) هو محمد بن علي بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، ولد قريباً من ساحل ينبع وأبواه متوجهان إلى الحج يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة (٦٢٥هـ)، كان جامعاً للعلوم الشرعية والعقلية، صاحب نظم رائق، ونثر فائق، من مؤلفاته : «الإلمام»، و «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام»، توفي في القاهرة حادي عشر من صفر سنة (٧٠٢ هـ). انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢/ ١٠٢-١٠٤).

وقال الحافظ المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] : (ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه).

وقال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الأخيار الألباء، طَنَّت بذكره الأمصار، وضَنَّت بمثله الأعصار).

---

(١) هو يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الحلبي المِزِّي، أبو الحجاج، جمال الدين، ولد في حلب سنة (٦٥٤هـ)، كان أحفظ أهل زمانه، وكانت الرحلة إليه لروايته، وكان إماماً في اللغة، والتصريف، ديِّناً، خَيِّراً، من مصنفاته: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، و«تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، توفي بدمشق ثاني عشر من صفر سنة (٧٤٢هـ) انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

ترجمة الشيخ أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

قال الشيخ مترجماً لنفسه[1]:

أنا سليمان بن سليم الله بن رجاء الله بن بُطِي الرحيلي، من قبيلة حرب.

ولدت ونشأت ولا زلت - وأسأل الله أن أموت - في المدينة.

أول ما تلقيت العلم - قبل الدراسة النظامية - في مسجد النبي ﷺ، فحضرت بعض مجالس الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنا دون السادسة من العمر، وحضرت بعض مجالس الشيخ عمر فلاتة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومجالس الشيخ أبي بكر الجزائري حفظه الله، وهذه قد جلست فيها كثيراً، وحضرت بعض مجالس الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عندما كان يقدُم إلى المدينة، وبعض مجالس الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في الرياض والمدينة. وبعض مجالس الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، العامة والخاصة التي كان يعقدها في المدينة.

وهذا يعود إلى أن الوالد - حفظه الله وختم لنا وله بالخير - قد حُبب إليه مجالس أهل العلم منذ عرف المدينة، وحضر مجالس المشايخ: الشيخ الأمين، والشيخ الإفريقي، حتى إن الشيخ عمر فلاتة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يقول لي: (إن والدك زميلي، كنا نجلس بجوار بعضنا في حلقة الشيخ الإفريقي)، وحضر أيضاً مجالس الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذكر لي أنه كره مجلساً لشخص ما؛ لأنه كان يبسط يده ليقبّلِها الناس، وكان يأخذني إلى المجالس، وأنا دون السادسة.

---

(١) من شريط «الدرر العتيقة في جلسة العقيقة» بتصرف.

ثـم وأنا في السادسـة التحقت بمسـجد في الحـي لتحفيظ القرآن علـى يد أحد المشـايخ من قبيلتنا، اسـمه: عتيق بن جابر الرحيلي، في مدرسة كان يرعاها فضيلة الشيخ راشد بن عاتق الرحيلي - رحمهم الله جميعاً -، وأتممت حفظ القرآن قبل العاشرة بحمد الله.

ودرسـتُ الدراسـة النظامية، وتخرجت مـن الإبتدائية، فأصـرَّ والدي على أن التحق بالجامعة الإسـلامية، بالمعهد المتوسـط، وكانت الجامعة إذ ذاك لا يلتحق بها من أبناء السـعوديين إلا المتردية والنطيحة ومن شـذ ممن لهم شـأن، حتى إن الوالد جُوبِـه برفض شـديد من أن ألتحق فـي الجامعة، حتى إن مدير المدرسـة الإبتدائية قـد أخـذ عليه تعهـداً بأنّـي إذا لم أقبـل بالجامعة لا أُقبـل في أي مدرسـة أخرى، تخويفاً؛ سبب ذلك أنّي كنت متفوقاً بالمواد العلمية، لكنَّ الوالد أصرَّ إلا أن أدخل الجامعة الإسـلامية، قال لهـم: (الرزق بيد اللّه، أنا أريده أن يتعلم العلم الشرعي)، فالتحقت بالمعهد المتوسـط بالجامعة، فدرسـنا على مشايخ - في الحقيقة - أجلاء، وكان أكثرهـم مـن الأزهر، وكانوا في علـوم الآلة من الأقويـاء، ولا زالت عندي كتابات لبعضهم إلى اليوم، كتابات خاصة بي.

ثم انتقلت إلى المعهد الثانوي بالجامعة، وكان الأمر مثل سابقه.

ثـم التحقـت بكلية الشـريعة، ودرَسْـت في كلية الشـريعة، وزاملـت عدداً من الفضـلاء أذكـر منهـم الآن: أخي وزميلـي ومن أحببته فـي اللّه وأحبني فـي اللّه: الشيخ ياسين محمود - رحمه الله رحمة واسعة -، وكنا نتبادل الأول والثاني في الكلية، ففي السـنة الأولى كنت الأول وكان الشيخ الثاني في الكلية، ثم في السنة الثانية كان الأول وكنت الثاني، ثم في الثالثة والرابعة كنت الأول.

أيضاً زميلي وأخي الشيخ ترحيب الدوسري، وهو زميلي في الدراسة، وإن كان أسنَّ مني، لأنه كان قد التحق بكلية أخرى قبل أن يلتحق بكلية الشريعة، وكذلك زاملت عدداً من الفضلاء، وتشرفت بالتتلمذ على عدد من المشايخ في الكلية، منهم شيخي الشيخ عبد السلام بن سالم السحيمي حيث تتلمذتُ عليه سنتين، في كلية الشريعة، والشيخ صالح السحيمي والشيخ علي الحذيفي، وجمع من المشايخ.

تخرجت في كلية الشريعة، وأُجبرتُ على قسم أصول الفقه، حتى قيل لي: إن لم ترضَ بقسم أصول الفقه فلن تقبل في أي قسم آخر، فمن فضل اللّه عليّ، أن مشايخي كان كل منهم يوجهني في القسم الذي يريد، كان من مشايخي من يقول لي: لا تلتحق إلا بقسم العقيدة، نحن نريدك في قسم العقيدة، وكان الشيخ فيحان المطيري يقول لي: (لا تلتحق إلا بقسم الفقه، ولا نأذن لك إلا في قسم الفقه) وشاء اللّه أن أكون في قسم الأصول، فعُيِّنت في قسم الأصول معيداً، ودرستُ السنة المنهجية، وفي السنة الثانية أصررت على أن أدرِّس في الكلية، فبحمد اللّه درَّست القواعد الفقهية منذ تقريرها في كلية الشريعة على طلاب الكلية، فكنت أولَ من درَّسها في الكلية، واستمرَّيت على ذلك سنين، إلى أن انتقلت إلى التدريس في الدراسات العليا في الجامعة، ولا زلنا - ولله الحمد والمنة - ندرِّس في الجامعة.

رزقني اللّه عَزَّ وَجَلَّ نعمة عظيمة، وهي التتلمذ على مشايخي الذين حببونا في منهج السلف، وعلمونا أن هذا هو المنهج الصالح للعلم والعمل معاً، فالعلم النافع هو الذي يكون على طريقة السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، والعمل الصالح إنما هو على طريقتهم؛ لأنها مأخوذة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا زلنا على هذا، وأسأل الله، أن يثبتنا وإخواني على هذا، وأن يميتنا عليه، مهما خالف المخالفون.

أما الحالة الإجتماعية: فأنا متزوج وموحِّد وخائف، كلها صفات مدح، فالزواج ممدوح شرعاً، والتوحيد ممدوح شرعاً، والخوف ممدوح شرعاً.

لي من الأولاد - الحمد للّه - سبعة، خمسة من الذكور .

ألَّفت بعض الكتب، بعضها مخطوط عندي، وبعضُها نُـشِر:

فمما كتبته:

- «شرح الأصول الثلاثة». (تحت الطبع).
- «شرح منظومة السعدي في القواعد الفقهية» - وهي مخطوطة عندي كاملة - (تحت الطبع).
- «شرح كتاب البيوع من منار السبيل » - وقد فرَّغه بعض الفضلاء من أشرطة لي - (تحت الطبع).
- «قواعد تعارض المصالح والمفاسد».
- «مسائل الكتاب والسنة ودلالات الألفاظ التي أخطأ فيها الرازي في المحصول والمعالم».
- «التعريفات الأصولية في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية».
- مسائل الأمر الأصولية التي انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية.
- «الإشراقات على كتاب المقاصد في الموافقات». (تحت الطبع).
- «نقد شيخ الإسلام ابن تيمية لمسألة تكليف ما لا يطاق». (تحت الطبع).
- «انحراف الشباب، الوسائل والعلاج».
- «من فقه الفتن».

رسالة الماجستير كانت عن: «التأويل وأثره في أصول الفقه»، كان المشرف الشيخ عمر عبد العزيز، من خيرة من عرفت، عرفتُ فيه حبه للتوحيد، عرفت فيه حبه لعقيدة السلف، وعرفت فيه حبه لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وكان يفرح جداً عندما آتيه بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم.

ثم رسالة الدكتوراه كانت بعنوان: «القواعد المشتركة بين أصول الفقه والقواعد الفقهية»، وكان المشرف عليَّ الشيخ عمر عبد العزيز، وهو عراقي، الآن في قطر، الشيخ مريض، أسال اللّه أن يشفيه[1]، أشرف عليَّ في الدكتوراه، وانتقل إلى أم القرى قبل أن يتم الإشراف فقلت رسمياً أن يكمل الإشراف عليَّ، ومن فضله أنه كان يأتيني إلى المدينة لساعة الإشراف، لا أذهب إليه أنا في مكة؛ بل يأتي بسيارته يوم الثلاثاء - لأنه لا محاضرات عنده -، أحياناً يأتي مباشرة إلى الكلية ويحضر ساعة الإشراف، ثم قد يسافر من نفس الليلة إلى مكة، وهذا أمر لا أظن أن أحداً يفعله، أسأل اللّه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزيه عني خير الجزاء.

الأعمال العلمية والإدارية:

أستاذ في قسم أصول الفقه بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية.

التدريس في مرحلة الدكتوراه في قسم الفقه وفي مرحلة الماجستير في قسم أصول الفقه إضافة إلى التدريس في المرحلة الجامعية.

الإشراف على عدد من الرسائل في داخل الجامعة وخارجها.

---

(١) وقد توفي الشيخ رحمه الله في (٢٥/ ٧/ ٢٠١٠م).

أستاذ كرسي سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، للفتوى وضوابطها في الجامعة.

المشاركة في التدريس في المسجد النبوي.

رئيس لجنة أفريقيا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

رئيس لجنة آسيا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

رئيس لجنة أوروبا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

وكيل كلية الشريعة للدراسات العليا والمسائية سابقاً.

عميد شؤون الطلاب في الجامعة الإسلامية سابقاً.

عضو مجلس الجامعة سابقاً.

عضو اللجنة العليا للتوجيه والإرشاد بالجامعة الإسلامية.

المشاركة في البرنامج الثقافي للجامعة.

إلقاء محاضرات في داخل السعودية وخارجها.

إقامة دورات علمية في داخل السعودية وخارجها.

المشاركة في مؤتمر المواطنة، وغيره في دولة الكويت الشقيقة.

المشاركة في برنامج الأستاذ الزائر الدولي في الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا بعض ما يحضرني في هذا المقام، وهو أمر على كل حال، لا أظن أن فيه فائدة سوى ألا نسمع لغواً.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الملك القدوس السلام، أكرمنا بدين الإسلام، وأكمل لنا الدِّين وأتمّ علينا الإنعام، وبيَّن لنا الحلال والحرام، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المعبود الحقُّ على الدوام، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، النبيُّ الإمام، المبعوثُ رحمةً للأنام، من التزم سنَّته اهتدى واستقام، ومن أَعرَضَ عن دينه تخبَّط في دياجير الظلام، ومن أحدث في أمرِه ما ليس منه فهو ردٌّ مع الآثام، صلى الله عليه وسلم أكمل صلاة وأتمّ سلام، ورضي الله عن آله الطيِّبين الأعلام، وصحابته الخيار الكرام.

أما بعد:

فبين يدي شرح هذه الوصية الصغرى حجماً، الكبرى مضموناً، أُذكّر نفسي وإخواني بأمر غفل عنه كثير من طلاب العلم، فقلَّ الانتفاع بالعلم، وكثر التباهي به، واتسع الخلاف وشُقِّق، ذلكم الأمر العظيم: أن نتعلم العلم لأنفسنا أصلاً، وقد كان السلف يتعلمون لإصلاح أنفسهم، ويعلمون أنهم المقصودون أصالة بما يتعلمون.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (ما تعلمت حرفاً واحداً للناس)، فكان الواحد من السلف يتعلم؛ ليصلح نفسه، ثم يفيض الخير على غيره من الناس.

وكلامنا في شرح «الوصية الصغرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، حيث سأل العالمُ الرحَّالة أبو القاسم السبتي المغربي شيخَ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة أمور:

الأوّل: أن يوصيَهُ بما ينفعه في دينه ودنياه.

الثاني: أن يدلَّهُ على كتاب جامع يغني عن غيره في علم الحديث خاصة، وعلوم الشريعة عامة.

الثالث: أن يدلّه على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات.

الرابع: أن يدلّه على أرجح المكاسب.

وقد أجابه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبدأ بالأمر الأول؛ وهو الوصية بما يُصلِح الدِّين والدنيا، وبيَّن أمرًا عامًا؛ وهو: أنّ الذي يُصلِح دينَ الإنسان ودنياه: أن يتمسَّك بما في الكتاب والسنة.

ثم أوصاه بالوصية الخاصة؛ وهي وصية النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، هذه الوصية من تمسّك بها أصلح دينه ودنياه؛ حيث قال النبي ﷺ لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لـمّا بعثه إلى اليمن: «**يا معاذ، اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلُق حسن**».(١)

وخلاصة هذا الوصية: أن تعمل أيها المسلم بما أمرك الله به، وأن تجتنب ما نهاك الله عنه؛ وهذا معنى «**اتق الله حيثما كنت**»، وأن تحرص إذا زلَّت القدم على أن تزيل أثر الذنب؛ وهذا معنى «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»، وأن تتعامل مع الناس بكريم الأخلاق؛ وهذا معنى «**وخالق الناس بخلق حسن**».

ولا شك أنّ من عاش حياته على هذا، عاش سعيد القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، على صراط مستقيم.

---

(١) يأتي تخريجه.

وبيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وجه كون هذه الوصية أنفع ما يكون للمسلم في دينه ودنياه من وجوه:

الوجه الأول: أنها من آخر وصايا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لأنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصّى بها معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـمّا بعثه إلى اليمن، وكان ذلك قبل وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيسير.

والوجه الثاني: أنها وصية يحتاجها كل إنسان مهما عَلَتْ منزلته، ولا يَستغني عنها أحد، ولو كان يستغني عنها أحدٌ لعلوِّ منزلته، لاستغنى عنها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

والوجه الثالث: أنها جامعة لجوامع الخير؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصّى بها معاذًا، الذي له منزلة عليَّة عنده، والمعلوم أنّ من يوصي مَن يحب يختصُّه بجوامع الخير.

والوجه الرابع: أنها جمعتْ بين كونها تفسيرًا لوصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكونها وصيةً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فجمعتْ الحُسنيَين؛ هي تفسيرٌ لوصية الله عَزَّ وَجَلَّ، ووصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثم بيَّن شيخ الإسلام كونها جامعة للخير، وبيَّن أنّ العبد في الدنيا بين حقَّين: حق الله، وحق عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنّ المطلوب منه أن يؤدِّيَ الحقوق، لكنّ الإنسان لضعفِه، لا بد أن يقع منه الخطأ في حق الله، وفي حق عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتق الله حيثما كنت**» أي: افعل المأمور، واجتنب المحظور أو المنهي عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فإذا زلّت القدم؛ فأتْبِع السيئة الحسنة تمحها.

ثم بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ الذنوب لها آثارٌ على العباد؛ عاجلةٌ وآجلةٌ، وأنّ الله من رحمته قد جعل لعباده أمورًا تزيل آثار الذنوب.

وقـد عـدّ العلماء ما يزيل آثار الذنوب في عشـرة أمور، وشـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الوصية ذكر أربعة منها؛ لأنها التي تقع في الدينا؛ وهي:

١. التوبة.
٢. الاستغفار.
٣. العمل الصالح.
٤. البلاء الذي يصيب المؤمن.

وهذه الوصية ينبغي أن يهتم بها الإنسـان، فإن العقلاء يحرصون على اسـتماع الوصايا رجاء الانتفاع بها؛ لأن العادة جرت بأنه لا يوصي إلا من كان كبير الشأن واسـع الحكمة، وأنه يودع فيها جوامع الكلم ومهمات الحكم، فكيف إذا جاءت الوصيـة من عالم رباني أثري عُرِفَ عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ سـعة العلـم ونصرة (قال الله، قال رسـوله ﷺ)، والصبـر علـى ما يصيبه في ذلـك، كما عرف عنه حسـن خلقه مع النـاس، ورحمتـه بالخلـق، وسـعيه فيمـا ينفعهم في أمـور دينهـم ودنياهم، وقد دلت سـيرته على هذا أعظم دلالة؛ ألا وهو شـيخ الإسلام، ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما أحوجنـا إلى مثل هـذه الوصية! في هذا الزمن، الذي كثر فيـه التعالم، وازدادت قسوة القلوب، وكثرت الفتن.

وهذه الوصية معروفة عند أهل العلم بـ «**الوصية الصغرى**» وهو أشهر أسمائها، وإن كان متأخراً، و بـ«**سـؤال أبي القاسـم المغربي**»، وبـ «**وصية شيخ الإسلام لأبي القاسم السبتي**»، وأقدم هذه الأسماء الثالث منها.

ووصفـت بالصغـرى تمييزاً لهـا عن الوصية الكبرى مـن حيث الحجم؛ حيث تقـع الوصية الصغرى فـي «مجموع الفتاوى» في ثلاث عشـرة صفحة في المجلد العاشر، وتقع الوصية الكبرى في المجلد العاشر في سبعين صفحة .

وهذه الوصية اشتهرت في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قرأها عليه بعض تلاميذه .

والسائل أبو القاسم السبتي اسمه: القاسم بن يوسف، السبتي، من أهل المغرب، وهو موصوف بأنه: فاضل، محدث، رحّال، وكان يكتب ما يستفيده من العلماء في رحلاته.

وقد جاء في مفتتح هذه الوصية العظيمة قول أبي القاسم المغربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يتفضل سيدنا الشيخ، الفقيه، الإمام، الفاضل، العالم، بقية السلف، قدوة الخلف، المبدع المُغَرِّب، المعرب، المفصح).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(سيدنا)** أي: صاحب الشرف والرفعة، والله هو السيد الكامل السؤدد، ويطلق على البشر بما يليق بهم؛ فمحمد ﷺ سيد ولد آدم[1]، ووَصَفَ النبيُّ ﷺ بعضَ الصحابة بالسيادة؛ كقوله في سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**قوموا إلى سيدكم**» كما في «الصحيحين»[2]، وقال في سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**اسمعوا إلى ما يقول سيدكم**» كما في «صحيح مسلم»، فيصح ويستقيم أن نقول سيدنا محمد ﷺ إلاّ في الأذكار المنقولة، كالصلاة الإبراهيمية، فإنه لا يجوز أن يضاف على المنقول شيء؛ لأن الأذكار توقيفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(المبدع)**؛ أي: أنه لسعة علومه وكثرتها، كأنه يخترعها، لقلة من يهتم بالعلم المبني على المنقول في زمنه، ويقال للشيء إذا كان غريباً في وقته: (بدعة)وإن كان ثابتاً معمولاً به فيما مضى؛ كقول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما جمع الناس في

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في «الصحيح» كتاب: الفضائل رقم: (٢٢٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم: (٣٠٤٣)، و«صحيح مسلم» كتاب: الجهاد والسير، رقم: (١٧٦٨).

صلاة التراويح في رمضان: (نعمت البدعة هذه)، لأن الناس قد تركوها، وإن كان النبي ﷺ قد صلى بالناس جماعة في قيام رمضان ليلتين أو ثلاثا، ثم ترك ذلك؛ خشية أن تفرض على الأمة(١)، فلما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة، جمع الناس على إمام واحد(٢)، فكأنه أبدعها لعدم عمل الناس بها.

قال رحمه الله: **(المغرب)** هو: المكثر، الذي يتكلم في كل شيء، ومقصوده رحمه الله: المتفنن في العلوم المختلفة، الذي يتكلم في كل علم بإحسان، وقد صدق رحمه الله؛ فقد كان شيخ الإسلام متبحراً في العلوم، وإذا تكلم في علم، أحسنه أكثر من أهله بل من ميزات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه يعرض حجة غيره - وقد يكون من مخالفيه - أقوى من عرض أهلها لها وهذا لسعة علمه وإنصافه رحمه الله.

قال رحمه الله: **(أعلَمُ من لقيت ببلاد المشرق والمغرب، تقيُّ الدين، أبو العباس، أحمد بن تيمية أبقى الله علينا بركته).**

الله أكبر!! أبو القاسم، العالم الفاضل، يصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بهذه الأوصاف العظيمة، التي اشتهر بها في ذلك الزمن، ولم يكن رحمه الله تجاوز السادسة والثلاثين من عمره؛ لأن هذه الرسالة قد قرئت على شيخ الإسلام رحمه الله سنة ستمائة وسبع وتسعين من الهجرة، والمعلوم أن شيخ الإسلام ولد سنة ستمائة وإحدى وستين من الهجرة، وهذا من بركة العلم بالكتاب والسنة

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، رقم: (٩٢٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: صلاة التراويح، باب: فضل من قام رمضان، رقم: (٢٠١٠).

على فهم السلف الصالح رضي الله عنهم، فإن شيخ الإسلام رحمه الله عُرِف من نعومة أظفاره بشغفه بالمنقول وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم، ومن وُفِّق لهذا العلم كان من أعلم الناس بالحق، وأرحمهم بالخلق .

قال رحمه الله : **(بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية، وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه، والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته).**

طلب أبو القاسم رحمه الله من شيخ الإسلام أن يوصيه بهذه الجوامع - كما قدمناه - وأن تكون الوصية على سبيل الإيماء والاختصار؛ لتكون أسهل في الحفظ والضبط، وأيسر في العمل، وهذا ديدن السلف؛ فإنهم كانوا يحرصون على العمل لا على التكثير .

وانظر - يا طالب العلم - إلى هذا السؤال المبارك، كيف كان سبباً للأجر الكبير الكثير، الذي يُرجَى أن يفوز به أبو القاسم رحمه الله كلما قُرئت هذه الوصية، أو شرحت، أو عُمل بها إلى يوم القيامة، فاحرص - وفقك الله - على أن يكون لقاؤك بالعالم سبباً للخير، واحذر من أن تكون سبباً في صدور كلام من العالم؛ بناء على قولك، يكون فيه شر وفتنة، لا من جهة العالم؛ وإنما من جهة صنيعك.

(قال شيخ الإسلام بحر العلوم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه: الحمد لله رب العالمين).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان معروفاً بالسخاء؛ لاسيما في بذل العلم، ويظهر هذا في أجوبته رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يبسط الجواب، ويدلل عليه، ويجيب عما يشكل عليه ويزيد السائل فوائد لم يسأل عنها، ومن سخائه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالعلم أنه ما طلب منه أحد كتاباً إلاّ أعطاه إياه، ولو كان محتاجاً إليه، وكان يقول: (كيف أرده وقد سألني علماً).

وجوابه في هذه الوصية على طريقته بالسخاء بالعلم، مع تحقيق مقصود السائل بالاختصار، وبدأ جوابه بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ اقتداءً بكتاب الله الكريم؛ فإنه مبدوء بـ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ١].

ثم تكلم عن الوصية، والوصية في لسان العلماء هي: (الكلام الجامع لخير كثير، المتضمن أمراً ونهياً).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما الوصية فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله ﷺ لمن عقلها واتبعها).

الله أكبر!! هذا الاعتصام بالكتاب والسنة، والخير كله فيه؛ أوله وآخره وظاهره وباطنه، فمن أراد الخير لنفسه وأهله ومجتمعه فعليه أن يحرص على نشر ما في الكتاب والسنة، بفهم السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وأن يربي الناس على ذلك.

ولا أنفع للعبد من وصية ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ووصية رسوله ﷺ لمن فهمها فهماً يؤثر في نفسه، وعمل بها، فلابد عند استماع الخير من إحضار القلب، ومن حسن الاستماع، وصدق العزم؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ **: (قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]).**

هذه وصية الله للأولين والآخرين، وهذه الآية تدل على أن الأنبياء قد اتفقوا على أمر الناس بالتقوى.

والله عَزَّ وَجَلَّ أمر بها الناس جميعاً، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

وأمر الله بها المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٢٧٨].

وأمر بها خير ولد آدم أجمعين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: (ووصى النبي** ﷺ **معاذاً لَـمَّا بعثه إلى اليمن، فقال: «يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»).**

النبي ﷺ بعث معاذاً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن قبل موته بيسير؛ فهذه من آخر وصاياه ﷺ، وهذا الحديث رواه أحمد، والترمذي، والطبراني، واختلف في إسناده، وأعدل الأقوال فيه أنه حسن لغيره[١]، وأنه من الأحاديث التي تلقاها علماء الأمة بالقبول، وجاء التصريح بكون هذه الوصية عند بعثه إلى اليمن في «شعب الإيمان» للبيهقي «والتمهيد» لابن عبدالبر[٢].

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٥/ ٢٨٤) رقم: (٢١٣٥٤)، والترمذي في «الجامع»، أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم: (١٩٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٤٥)، رقم: (٢٩٧)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٣٧٣).

(٢) «شعب الإيمان» السابع والخمسون من شعب الإيمان: وهو باب في حسن الخلق، رقم: (٨٠٢٥)، و«التمهيد» (٦/ ٥٥).

وقد كان السلف يهتمون بهذه الوصية العظيمة فقد جاء في «مسند ابن الجعد»: حدثنا علي، أنَّ شعبة، قال: قلت للحكم: (أوصني) قال : (أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذاً: «**اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»)[1].

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وكان معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من النبي ﷺ بمنزلة علية، فإنه قال له : « يا معاذ، والله إني لأحبك»، وكان يردفه وراءه، وروي فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة - أي بخطوة - ومن فضله أنه بعثه النبي ﷺ مبلغاً عنه، داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن ، وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وإبراهيم إمام الناس، وكان ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول : (إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين)؛ تشبيهاً له بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2]، ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية).

في هذا الكلام بيان لأهمية هذه الوصية، وعظم شأنها، وعلو منزلتها؛ من وجهين:

الوجه الأول : أنه يحتاجها كل أحد، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والعالم وغيره، ولا يستغني عنها أحد مهما علا شأنه، وعظم فضله، إذ لو كان يستغني عنها أحد لاستغنى عنها معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لكنه لم يستغن عنها، بل أوصاه بها النبي ﷺ بل كلما علا شأن المسلم كلما كان أحوج إلى هذه الوصية؛ لأنه كلما علا شأن المسلم كلما كان أثره في الأمة أعظم، وكلما كان الشيطان على إغوائه أحرص.

والوجه الثاني : أن النبي ﷺ كان يحبه ويُقْسِمُ على ذلك ويؤكده، والمعلوم أنه كلما عظمت المحبة كلما اعتنى الموصي بجوامع الكلم والخير في وصيته لمن يحب.

---

(١) انظر : «مسند ابن الجعد» رقم : (٣١٢).

(٢) يأتي تخريج هذه الأحاديث في الصفحة التالية.

وبين شيخ الإسلام رحمه الله علو شأن معاذ رضي الله عنه بأمور :

الأول : أن النبي ﷺ كان يحبه ويؤكد ذلك ويقول: «**يا معاذ، والله إني لأحبك**» رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح(١).

الثاني : أن النبي ﷺ كان يردفه وراءه كما ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ أردفه وراءه على حمار(٢)، وهذا يدل على منزلته عند النبي ﷺ .

الثالث : أنه فقيه الأمة، فهو أعلمها بالحلال والحرام، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»، رواه أحمد، وابن ماجه والترمذي وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: (صحيح لغيره)، وقال شعيب الأرناؤوط: (صحيح)، وصححه ابن باز(٣).

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم: (١٥٢٢)، و «السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: المساجد، باب: نوع آخر من الدعاء، رقم: (١٢٢٧)، وانظر «صحيح أبي داود الأم» .

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، رقم: (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (٣٠).

(٣) «المسند» للإمام أحمد (٢١/ ٤٠٥)، رقم: (١٣٩٩٠)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت . . . ، رقم: (٣٧٩١)، و«السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: المناقب، باب: أبي بن كعب رضي الله عنه، رقم: (٨١٨٥)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الإيمان وفضائل الصحابة، باب: فضل زيد بن ثابت، رقم: (١٥٤)، و«المستدرك» للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة، (٣/ ٤٢٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٢٢٤)، و«حاشية البلوغ» لابن باز (ص ٥٦٤).

الرابع: أنه يحشر أمام العلماء برَتوة، رواه الطبراني[(١)]، وقال كثير من العلماء إنه مرسل، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» إنه: (مرسل صحيح)[(٢)]، وقال في «صحيح الجامع» إنه: (صحيح)[(٣)]، وقال في تعليقه على «كتاب الإيمان» لأبي عبيد: (صحيح بمجموع طرقه)[(٤)].

ومعنى رَتْوة: قيل خطوة، وقيل: أكثر من خطوة، وقيل: منزلة، وقيل: درجة، وقيل: رمية سهم، وقيل: مد البصر، وهي تدل على أن معاذاً رضي الله عنه يتقدم العلماء.

الخامس: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن معلماً وحاكماً، كما ثبت في «الصحيحين»[(٥)].

السادس: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، هكذا في بعض نسخ «الوصية»، وفيها إشكال؛ لأنه لم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، فلعل الكلمة - والله أعلم -: (كان يُشَبَّه بإبراهيم عليه السلام)، ويدل عليه ما جاء في بعض النسخ (وكانوا يشبهونه)، وكذا يدل عليه ما بعده؛ أي: قوله: وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين) تشبيها له بإبراهيم.

وجاء عند الطبراني عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله قال: (قرأت عنده، أو قرأها: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠]، فقال عبد الله: إن معاذا

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني، (٢٠/ ٢٩) رقم: (٤٠).

(٢) «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٠٩١).

(٣) «صحيح الجامع» رقم: (٥٨٨٠).

(٤) «الإيمان» لأبي عبيد بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ص: ٤٧).

(٥) «صحيح البخاري»، كتاب: الفرائض، باب: ميراث البنات، رقم: (٦٧٣٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩).

كان أمة قانتاً، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾، فقال عبدالله: وهل تدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله)[١].

وعن الشعبي، عن مسروق قال: (قال عبد الله: إن معاذاً كان أمة قانتا لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، فقال فروة - رجل من أشجع - : نسي، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، فقال: ومن نسي؟ إنا كنا نشبه معاذاً بإبراهيم، وسئل عن الأمة فقال: معلم الخير، وسئل عن القانت، فقال: مطيع لله ورسوله)[٢].

و عن فروة بن نوفل الأشجعي، قال: (قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، قال: أتدري ما الأمة؟وما القانت؟! قال: الله أعلم، قال: الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: المطيع لله ولرسوله، وكذلك كان معاذ بن جبل يعلم الخير، وكان مطيعاً لله ولرسوله)، ورواه الحاكم، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي[٣].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (فَعُلِمَ أنها جامعة وهي كذلك لمن عقلها).

هذا وجه آخر في بيان علو منزلة هذه الوصية، وهي أنها جامعة لأصول الخيرات النافعة، وسيأتي بيان جمعها .

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (مع أنها تفسير الوصية القرآنية).

هذا وجه آخر في بيان علو منزلة هذه الوصية وهو أنه يجتمع فيها أمران شريفان، أحدهما: أنها تفسير لوصية الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده في القرآن كما تقدم.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ٥٩) رقم: (٩٩٤٣).

(٢) المصدر السابق، رقم: (٩٩٤٤).

(٣) «المستدرك» (٣/ ٢٧١).

والثاني: أنها نص وصية رسول الله ﷺ.

فتحصَّل من هذا أن هذه الوصية عالية المنزلة جداً؛ لكونها لا يستغني عنها أحدٌ، ولكونها وصية محب لحبيبه، ولكونها جامعة، ولكونها تفسيراً لوصية الله تعالى، ونص وصية رسول الله ﷺ، وفي هذا تشويق لاستماع هذه الوصية، وحث على العناية بها والعمل بما فيها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما بيان جمعها، فلأن العبد عليه حقان: حق لله عَزَّ وَجَلَّ، وحق لعباده).

العبد عليه حقان: حق لله، وحق لعباد الله، والموفق من عباد الله مَن أدى الأمانات إلى أهلها، ووفَّى كل ذي حق حقه، وقد قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران**» رواه البخاري[1].

وفي رواية له: «**وأيما عبد أدى حق الله وحق مواليه فله أجران**»[2].

وعند مسلم: «**إذا أدى العبد حق الله وحق مواليه، كان له أجران**»[3].

وحق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «الصحيحين»، وحق العباد: ما جعله الله حقاً لبعض العباد على بعض؛ كحق الوالدين والأقارب، والعلماء، وولاة الأمر، وهكذا.

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله، رقم: (٩٧).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب: العتق، باب: العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، رقم: (٢٥٤٧).

(٣) «صحيح مسلم»، كتاب: الإيمان، رقم: (١٦٦٦).

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم الحق الذي عليه لابـد أن يُخِل ببعضه أحياناً، إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه).

العبد مأمور بأن يؤديَ حق الله، وحق عباد الله، لكنَّ العبدَ لابد أن يخل بشيء من هذا، إما لقصورِه، أي: لأنه قاصر فيلحقه النسيان أو الضعف أو الزلل، وإمَّا لتقصيره؛ بأن يقصر في التعلم؛ فيكون جاهلاً ببعض حق الله أو ببعض حق عباد الله .

وهـذا الإخـلال إما أن يكون بترك مأمـور به، أو فعل منهي عنـه، وترك المأمور به قد يكون تركاً للواجب؛ فيكون ذنباً وسـيئةً يسـتحق بسـببه العقاب، وقد يكون تركاً لمسـتحب؛ فيكون نقصاً في الثواب والكمال، وفعل المنهي عنه قد يكون فعلاً للمحرم؛ فيكون ذنباً وسـيئةً يسـتحق به العقاب، وقد يكون فعلاً لمكروه؛ فينقص به الثواب.

قال شـيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة، وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية).

أي احرص على فعل المأمور به ما استطعت راجياً ثواب الله، وعلى ترك المنهي عنـه خائفـاً من عقـاب الله، وهذه هي التقـوى؛ أن تفعل طاعة اللـه، على نور من اللـه؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية اللـه، على نور من الله؛ خوفاً من عقاب الله .

وفـي قول النبـي ﷺ: «**حيثما كنت** » بيـان أن العبد بحاجة إلـى تقوى الله في السـر والعلانيـة، فهو بحاجة للتقوى فـي العلانية، بأن يحـرص العبد على تحقيق الإخـلاص، ودفع الرياء، وبحاجة للتقوى في السـر، حيث يخلو بنفسـه ولا يراه الناس فقد تضعف نفسه، ويشتد عليه مكر الشيطان؛ فيحتاج إلى تقوى الله ليدفع

هـذا، ومن غفل عن التقوى لابد أن يصاب في مقتل في العلانية أو في السـر؛ في العلانية: بأن يقع في مصيبة الرياء، وفي السر: بأن ينتهك محارم الله في الخلوات، فالإنسـان بحاجة إلى تقوى الله في السـر والعلن؛ لأنه يعلم أن الأمر كله عند الله علن لا تخفى عليه خافية.

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال :«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»).

أي: اتـق الله أيها العبـد، واحرص على أداء الحقوق، فـإذا زلَّت القدم، ووَقَعْتَ في الإخلال، فلا تيأس من رحمة الله، وتستسـلم للشـيطان، ولا تقـل: ذهب الخيـر مني، ولا تنحدر في طريق الخطايا بسـبب تلـك الزلة، بل بادر مسـرعاً لمحو هذه السيئة بحسـنة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أتبع**» وهذا يـدل علـى المبادرة؛ حتى لا تأتـي زلة أخرى؛ فتقوي الزلـةُ الزلةَ، فعن أبي هريـرة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسـول اللـه ﷺ قـال: «**إن العبد إذا أخطـأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سـوداء، فإذا هو نزع واسـتغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيهـا، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكـر الله،** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾»، [المطففين: ١٤]. رواه الترمـذي، وقـال: (حسـن صحيـح)، والنسـائي، وحسنه الألباني[(١)].

قال شـيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً، أمره بما يصلحه).

أي: أنَّ فعل الحسنة بعد السيئة إنما هو من جنس تناول المريض الدواء إذا تناول

---

(١) «جامع الترمذي»، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، رقم: (٣٣٣٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: عمل اليوم والليلة، باب: ما يفعل من بُلِيَ بذنب وما يقول، رقم: (١٠١٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

ما يضره، ولا شك أن المريض يبادر بتناول المصلح المذهب للضرر، ولا يتوانى، فكذلك العبد إذا أدخل على نفسه ما يضرها في أعظم ما تملك وهو الدين، ينبغي أن يبادر إلى ما يزيل ذلك الضار، بفعل حسنة ماحية لتلك الزلة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والذنب للعبد كأنه أمر حتم).

في هذه الجملة علاج عظيم للنفس، فلا يتساهل العبد في فعل الذنوب بحجة أنها لابد منها؛ بل هو مأمور باجتنابها، لكن إذا زلت القدم بادر بفعل ما يُمْحَى به الذنب، ولا يغفل عن نفسه ويقول: أنا من الصالحين، ولا أخاف على نفسي الذنب، بل يعلم موقناً أن الذنب كأنه أمر حتم له؛ فيظل مُرَاقباً لنفسه دائماً، يمنعها من الحرام قبل وقوعه، ويزيل أثر الحرام عن نفسه عند وقوعه، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» رواه ابن ماجه، والدارمي، والبزار، وأبو يعلى، وحسنه الألباني والأرناؤوط[(١)].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تَمَنَّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه**»، متفق عليه[(٢)].

وترجم عليه النووي باب: (قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره)، وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة،**

(١) «سنن ابن ماجه»، أبواب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥١)، و«السنن» للدارمي، كتاب: الرقاق، باب: في التوبة، رقم: (٢٧٦٩)، و«البحر الزخار» للبزار (١٣/ ٤٥٩) رقم: (٧٢٣٦)، و«المسند» لأبي يعلى (٥/ ٣٠١) رقم: (٢٩٢٢)، وحسنه الألباني وشعيب الأرناؤوط في «سنن ابن ماجه».

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج، رقم: (٦٢٤٣)، و«صحيح مسلم» كتاب: القدر، رقم: (٢٦٥٧).

أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق، إن المؤمن خلق مفتناً، تواباً، نسياً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ» رواه الطبراني، وصححه الألباني[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فالكَيِّس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات).

(**الكَيِّس**) هو: العاقل الحازم، والأكياس يزيدهم الذنب قُرْباً من الله؛ لأن الكيس الفطن إذا أذنب قابل ذلك بالإكثار من الحسنات؛ فيزداد قرباً من الله، فمن أتبع السيئة الحسنة اكتسب فائدتين؛ الأولى: محو السيئة بالحسنة، وإذهاب أثرها، والثانية: ثواب الحسنة التي قد فعلها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة؛ لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»).

المقصود بكون «**السيئة**» مفعولة: أن الفعل قد وقع عليها من جهة الفاعل، فالسيئة سابقة، والحسنة لاحقة؛ فهي كصب الماء على النجاسة، فالنجاسة تقع أولاً، ثم يُصَبُّ الماء عليها، فكان النسق أن يقال: أتبع الحسنة السيئة؛ لأن الإتباع للحسنة، لكن الذي ورد في الحديث «**وأتبع السيئة الحسنة**» فقدم السيئة وخالف النسق لفائدة؛ وهي بيان أن المقصود أصالة بفعل الحسنة هنا إذهاب السيئة، والمقصود التابع فعل الحسنة وحصول ثوابها، ففاعل الحسنة بعد السيئة له مقصدان؛ أصليٌّ، وتابعٌ، أما الأصلي: فهو إزالة أثر السيئة، وأما التابع: فهو حصول ثواب الحسنة.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٣٠٤) رقم: (١١٨١٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٧٦).

وكان قول النبي ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة**» كقوله ﷺ في بول الأعرابي لما بال في ناحية المسجد: «**صبوا عليه ذنوباً من ماء**»، هذا لفظ أبي داود[(١)]، وفي لفظ البخاري: «**وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء**»[(٢)]، ولم يقل: صبوا ذنوباً من ماء عليه؛ لأن المقصود ليس صب الماء بذاته؛ وإنما المقصود إذهاب النجاسة بصب الماءِ عليها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات؛ فإنه أبلغ في المحو).

لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الله جعل إتباع السيئة الحسنة ماحياً لها، ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ينبغي أن تكون الحسنة المفعولة من جنس السيئة التي فعلها العبد، فإن كانت السيئة قولية، ينبغي أن تكون الحسنة قولية، وإذا كانت السيئة المفعولة فعلية، ينبغي أن تكون الحسنة فعلية، وهكذا فإنه أبلغ في المحو، وهذا ليس شرطاً لكنه كمال، بل إن الحسنة إذا كانت عظيمة كانت أبلغ في المحو، سواء كانت من جنسها أو لم تكن من جنسها، لكن إن وجد من جنس السيئة حسنة عظيمة كان ذلك أبلغ في المحو، فعن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فأخبره؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «**لجميع أمتي كلهم**» متفق عليه[(٣)].

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الطهارة، باب: الأرض يصيبها البول، رقم: (٣٨٠)

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الوضوء، باب: صبُّ الماء على البول في المسجد، رقم: (٢٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم: (٥٢٦)، و«صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٣).

و عـن أنـس بن مالـك رضي الله عنه، قال: كنـت عند النبـي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجـل فقال: يا رسـول اللـه، إني أصبت حـداً فأقمه علي، قال: ولم يسـأله عنه قـال: وحضرت الصـلاة، فصلـى مـع النبـي صلى الله عليه وسلم، فلما قضـى النبي صلى الله عليه وسلم الصـلاة، قام إليـه الرجل فقـال: يـا رسـول اللـه، إني أصبـت حـدًا، فأقم فيَّ كتـابَ اللـه، قـال: «**أليس قد صليـت معنـا**» قـال: نعم، قـال: «**فـإن الله قد غفـر لك ذنبـك**» أو قـال: «**حدك** » متفق عليه [١].

وفي رواية لمسـلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينما رسـول الله صلى الله عليه وسلم في المسـجد، ونحـن قعـود معـه، إذ جـاء رجل فقـال : يا رسـول الله إنـي أصبت حـداً، فأقمه علـي، فسـكت عنه رسـول صلى الله عليه وسلم، ثم أعـاد فقال : يا رسـول الله إنـي أصبت حداً، فأقمـه علي، فسـكت عنـه، وأقيمـت الصـلاة، فلما انصـرف نبي اللـه صلى الله عليه وسلم قال : أبـو أمامة : فاتَّبع الرجل رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم حين انصرف، واتبعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنظرُ ما يَرُدُّ على الرجل، فلحق الرجل رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسـول الله، إني أصبـت حـداً، فأقمه علي، قال أبو أمامة : فقال له رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم: «**أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟**» قال: بلى يا رسول الله، قال: «**ثم شهدت الصلاة معنا**» فقال : نعم يا رسول الله، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فإن الله قد غفر لك حدك**» أو قال : «**ذنبك**»[٢].

وعليه فالقاعدة الشرعية الشريفة أن السيئة، إذا أُتبعت بحسنة، رجي أن تزيل أثرها، وكلما كانت الحسنة أعظم، كانت أبلغ في المحو، فإن تيسر أن تكون الحسنة العظيمة من جنس السيئة كان ذلك أكمل.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب : الحدود، باب : إذا أقرَّ بالحد ولم يبين، هل للإمام أن يستر؟ رقم : (٦٨٢٣)، و«صحيح مسلم»، كتاب : التوبة، رقم : (٢٧٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب : التوبة، رقم : (٢٧٦٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (والذنوب يزول موجبها بأشياء).

من عظيم لطف الله بهذه الأمة، أنه جعل لها الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وجعل السيئة بمثلها، ومع ذلك جعل لها كفارات ما حيات.

والذنوب إذا وقعت من العبد لها موجِب - بكسر الجيم - وهو السبب، أي: فعلها، وموجَب - بفتح الجيم - أي: الأثر، والمقصود هنا الثاني؛ أي الموجَب، وهو الأثر؛ لأنه هو الذي يزول، أما السبب إذا وقع، فإنه لا يزول؛ وعليه نقول: إن آثار الذنوب في الدنيا والآخرة تزول بأسباب، ذكر العلماء أنها عشرة، وذكر شيخ الإسلام منها هنا أربعة، وهي التي تقع في الدنيا، وذكر منها ثلاثة معاً: لأنها من فعل العبد، وهي: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة، وأخَّرَ الرابع عنها؛ لأنه ليس من فعل العبد، وهو البلاء الذي يصيب المؤمن .

ولم يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الممحصات المكفرات، التي تكون في القبر، والتي تكون يوم القيامة، والتي تكون بعد دخول النار لمن استحق دخولها من الموحدين .

وهذه المكفرات كلها خاصة بالموحدين، ولا يدخل فيها المشركون، إلا التوبة فإنها تمحو كل ذنب حتى الشرك .

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (أحدها التوبة).

بدأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بالتوبة؛ لأنها أعم المكفرات؛ إذ تكفر كل ذنب، والتوبة معناها: الرجوع إلى الله تعالى عن الذنب بالإقلاع عنه، والندم عليه، والعزم على عدم العود إليه .

والتوبة سبب من أسباب تكفير الذنوب، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»، رواه مسلم(١).

قال رسول الله ﷺ: «**التائب من الذنب، كمن لا ذنب له**»، رواه ابن ماجه، والطبراني، والبيهقي، وصححه ابن باز، وحسنه الألباني(٢).

و التوبة لا تنفع صاحبها إلا إذا استَجمعتْ شروطها، وشروط التوبة إذا كان الذنب في حق الله سبحانه وتعالى خمسة:

الشرط الأول: الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، بأن يكون الدافع للعبد لكي يقلع عن الذنب هو خوف الله سبحانه وتعالى.

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٥٩).

(٢)«السنن» لابن ماجه، أبواب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ١٥٠) رقم: (١٠٢٨١)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٥٤) رقم: (٢١٠٧١)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني رقم: (٦١٥، ٦١٦)، و«مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن باز» (٨/ ٢٩٢).

فالعبد إذا تاب، إما أن يتوب خوفًا من الله، وإما أن يتوب خوفًا من عباد الله، فإن تاب خوفًا من الله، فهذه التوبة النافعة التي تزيل أثر الذنب.

وإن تـاب خوفـا من عباد اللـه، فإنّ هذا يزيل عنه الذنب فـي الحاضر ولكنه لا يزيل أثر الذنب الماضي.

مثال ذلك: إنسان - والعياذ بالله - يزني، زنى مرة، مرتين، ثلاثاً، ثم عَظُم خوف الله في قلبه فتاب، فهذا يُمحى عنه الماضي، كأنه لَمْ يُذنب، ويَسلَم من الحاضر.

آخر - والعياذ بالله - كان يزني، زنى مرة، مرتين، ثلاثًا، ثم خاف من الفضيحة، خاف على مقامه ومكانه بين الناس؛ فترك الذنب، هذا يَسلم الآن من الذنب لأنه لَمْ يزنِ، ولكنّ الذنب الماضي يبقى عليه أثره، فانتبه يا رعاك الله لمسألة الإخلاص.

والشرط الثاني: أن يقلع عن الذنب، وليس صادقًا في توبته من يبقى على الذنب، ويقول إنه تائبٌ منه، والبقاء على الذنب يَمنع التوبة؛ من حيث أثرها.

والشرط الثالث: أن يندم على ما مضى، فيندم على الذنب الذي وقع منه، ومن علامة الندم: أن يكره أن يعود إلى الذنب بعد أن نجاه الله منه كما يَكره أن يُقذف في النار، فليس تائباً مَن إذا تذكَّر الذنب قال: تلك أيامٌ جميلة! فإنّ هذا ليس نادمًا على الذي وقع منه.

والشرط الرابع: أن يعزم على عدم العَود إليه، وانتبهوا؛ لَمْ يقل العلماء: ألا يعود إليه، وإنما: (أن يعزم على عدم العَود إليه)، فإذا عزم صادقًا فإنه تائب، فإن عاد بَعْدُ، فذاك ذنب جديد، لا يَنقُض التوبة السابقة.

والشرط الخامس: أن تقع التوبة في وقتها، ووقت التوبة عامٌّ وخاصٌّ.

أمَّا العامُّ: فهو أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها فإنّ باب التوبة يُغلَق.

وأمّا الخاصُّ: فهو ما لَمْ يغرغِرِ الإنسان، يعني: ما لَمْ تبلغ الروح الحلقوم؛ فإنّ الله يقبل التوبة.

وهنا مسألة دقيقة اختلف فيها أهل العلم: هل المقصود بالغرغرة الثابتة في الحديث: ذات الغرغرة، أو المقصود اليأس من الحياة؟

ويترتب على هذا مسألة مهمة: وهي توبة من أُصيب بمرض قاتل يَعلَم الناس أنّ صاحبه يموت في غالب الحال؛ كمن أصيب - والعياذ بالله - بالسرطان لا سيما في بعض أنواعه، أو أصيب بما يسمّى بالإيدز، أو غير ذلك، وعَلِمَ به، هل تُقبل توبته؟

إنسان ظلم إخوانه، ثم عَلِمَ أنه مصاب بالسرطان القاتل؛ وتاب، هل تقبل توبته؟

المسألة مبنيَّة على ما قدّمناه؛ وهي: هل المقصود بالغرغرة: ذات الغرغرة؟ أو المقصود اليأس من الحياة؟

فمن قال: إنّ المقصود هو ذات الغرغرة، قال: نعم، تُقبل توبته؛ لأنه لَمْ يغرغر.

ومن قال: المقصود هو اليأس من الحياة، قال: لا تُقبل توبته.

والذي يظهر - والله أعلم -: أنّ المقصود الغرغرة بذاتها، يعني ما لَمْ يغرغر فيَعلَم أنه ميت الآن؛ لأنّ الغرغرة دليلٌ على الموت الحاضر، وهذا المقصود، فما دام أنّ الإنسان لَمْ يَقطَع بموته فإنّ توبته مقبولة، فإذا غرغر بحيث يعلم الناس أنّ الروح لا تعود بعد هذا، فإنه لا تقبل توبته إذا غرغر.

هذا إذا كان الذنب لله، **وإذا كان الذنب لعباد الله فإنه تُشتَرط للتوبة ستة شروط:**

هذه الشروط الخمسة السابقة، ويُزاد عليها سادس، وهو: **أن يُعيد الحق إلى أهله إن كان عينًا، أو يتحلَّل منه إن كان عينًا أو معنى.**

أن يعيد الحق إلى أهله إن كان عينا؛ مثال ذلك: إنسان غصب أرضًا فالتوبة أن يعيد الأرض، أو سرق مالًا؛ التوبة أن يعيد المال.

أو يتحلَّل منه إن كان عينًا؛ مثال ذلك إنسان سرق عينًا وتلِفَتْ، أو لم تزل، فقال لأصحابها: سامحوني، فقالوا: سامحناك، فهذا يكفي.

أو كان معنويًا كمن سبَّ مسلمًا، أو اغتاب مسلمًا، أو كذب على مسلم، فلابد أن يتحلَّله.

لكن هنا مسألة دقيقة في المعنويات، قال العلماء: الذنوب المعنوية المتعلِّقة بحقوق العباد لا تخلو من حالَين:

الحال الأولى: أن يعلم صاحب الحق بالذنب الذي وقع عليه، أي: يعلم صاحب الحق أنّ فلانًا سبّه، أو أنّ فلانًا اغتابه، أو أنّ فلانًا كَذَبَ عليه، وهنا لابد أن يَستحلّه ويَبذُل ما يستطيع لعله أن يُحلَّه.

والحال الثانية: ألا يكون صاحب الحق قد عَلِمَ بذلك الذنب، لَمْ يعلم أنّ فلانًا كذب عليه أو اغتابه، أو سبَّه، هنا قال العلماء: إن كان فاعلُ الذنب يأمَن صاحب الحق، ويَعلَم أنه لا يترتَّب على ذلك فتنة؛ فإنه يستحلُّه.

أما إذا كان لا يأمَنُهُ، ويَخشى لو استحلَّه أن تترتَّب على ذلك فتنٌ، أو مقاطعة، أو مهاجرة، أو نحو ذلك؛ فإنه هنا لا يُخبِره ولا يَستحله؛ ولكن يجتهد في الدعاء له، ويجتهد في أن يذكُرَهُ بخير كما ذكره بسوء، وهذا يكفي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم ذكر شـيخ الإسـلام الأمر الثاني، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثاني: الإسـتغفار من غير توبـة، فـإن الله تعالى قد يغفر لـه؛ إجابة لدعائه وإن لَمْ يتب، فـإذا اجتمعت التوبة والإستغفار فهو الكمال).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثاني الاستغفار من غير توبة)**؛ الاستغفار: هو طلب المغفرة؛ لأنّ الألف والسين والتاء تدلّ على الطلب، فمعنى الاستغفار: طلب مغفرة الله، ومغفرة الله تعني: أن يستر الله ذنب العبد، وأن يزيل عنه أثره، فعندما تقول: (أستغفر الله) معنى هذا: أسألك يا ربي أن تستر عليَّ ذنبي، وأن تزيل عني أثره.

وقد ورد الاسـتغفار في النصوص، فقد جاء أنّ النبي ﷺ يقول: «**إني لأسـتغفر الله في اليوم مائة مرة**» رواه مسلم في «الصحيح».

وفـي الحديـث الـذي يرويه النبي ﷺ عـن ربه – تبـارك وتعالى – أنـه قال: «**يا عبـادي، إنكم تخطئون بالليل والنهـار، وإني أغفر الذنوب جميعًا؛ فاسـتغفروني أغفر لكم**»، رواه مسلم في الصحيح[1].

الشاهد هنا أنّ الاستغفار ورد مفردًا من غير توبة؛ فعندنا هنا مسألتان:

المسألة الأولى: هل بين الاستغفار والتوبة فرق؟ أو هما بمعنىً واحد؟

الجواب: أنّ بينهما فرقًا، ويظهر ذلك بوجوه:

الوجه الأول: أنّ التوبة لها وقت تنتهي به، أمّا الاستغفار فلا وقت له؛ ولذلك يُستغفَر حتى عن الميّت، بعد أن غرغر ومات ودُفن وقُبر، ولا يُتاب عنه، فالتوبة لا تكون بعد الغرغرة.

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).

الوجه الثاني : أنّ التوبة إنما تكون من صاحب الذنب، أمّا الاستغفار يكون من صاحب الذنب، ومن غيره له، فيصح أن يستغفر أحد عن أحد، ولا يصح أن يتوب أحد عن أحد، فلا يتوب الولد عن أبيه، ولكن يستغفر له، وتستغفر الملائكة للبشر، فهذا يبيّن لك أنّ بين التوبة والاستغفار فرقًا.

المسألة الثانية: هل ينفع الاستغفار بلا توبة؟

يرى بعض العلماء أنّ الاستغفار طريق التوبة؛ وأنه لا ينفع مع الإصرار على الذنب؛ فلا ينفع إلا بتوبة، لأنّ الطريق إذا لَمْ يوصِل إلى المقصود فإنه غير نافع.

ويرى بعض أهل العلم أنّ الاستغفار ينفع بلا توبة؛ بدليل وروده مفردًا في النصوص، وإفراده يدلّ على نفعه بذاته.

أين تظهر فائدة المسألة؟

تظهر فائدة المسألة فيمن فعل ذنبًا وأصرّ عليه واستغفر، مثلاً إنسان يشرب الدخان - وشرب الدخان ذنب، يكاد يكون عليه اليوم اتفاق أهل العلم الذين يؤخَذ برأيهم في الفتوى أنه حرام - وبعد ما ينتهي من السيجارة يقول: استغفر الله، لكن هو عازم على أنه سيشرب بعد ساعة أو ساعتين، فهو مُصِرّ؛ فهنا وُجد الاستغفار ولم توجَد التوبة.

فإن قلنا: إنّ الاستغفار لا ينفع إلا مع توبة؛ فهذا الاستغفار ضائعٌ لا ينفعه.

وإن قلنا إنّ الاستغفار ينفع من غير توبة؛ فهذا الاستغفار ينفعه.

والتحقيق من أقوال أهل العلم في المسألة: أنّ الاستغفار لا يخلو من حالَين:

الحال الأولى: أن يكون من باب استغفار الغير للمذنب، مثل استغفار الملائكة لمن قعد في المصلى ما لَمْ يُحدِث: «**اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»(١)، ومثل استغفار الولد لأبيه، وهذا ينفع بلا توبة والدليل على ذلك أنه مطلوب للميت، والمعلوم أنّ الميت لا يتوب.

النبي ﷺ، لـمّا مات النجاشيُّ نعاه لأصحابه في اليوم الذي مات فيه، وقال: «**استغفروا لأخيكم**»(٢)، وقد مات.

وكان يقف على القبر ويقول: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل**»(٣)، وقد مات، فلا يَتصوّر منه أن يتوب.

ومن وجه آخر: أنه طُلِب شرعًا، ومَا دام أنه طُلِبَ شرعاً، فلابد أن يكون نافعًا.

وهذه قاعدة: ما طلب الله منّا شيئًا إلا وهو نافع؛ فإنّ الله لَمْ يأمرنا تشديدًا علينا، وإنّما أمرنا بما فيه المصلحة العاجلة والآجلة.

والحال الثانية: استغفار المذنِب بنفسه، والصحيح أنه ينفع صاحبه، بشرط أن يكون نابعًا من خوف الله، فيكون صادرًا من خشية الله سبحانه وتعالى، حقًا وصدقًا، فيكون حال العبد بين حالين: حال الخوف من الله، وحال الضعف مع الشهوة، فإذا تذكَّر الخَوف من الله استغفر، وإذا غلبته الشهوة فَعَلَ، فهذا ينفعه.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في مسجد السوق، رقم: (٤٧٧)، و«صحيح مسلم» كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم: (٦٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد، رقم: (١٣٢٧)، و«صحيح مسلم» كتاب الجنائز، رقم: (٩٥١).

(٣) «السنن» لأبي داود، كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم: (٣٢٢١)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز»: (ص١٥٦).

أما الاستغفار باللسان من غير أن يكون نابعًا من خشية الله، فهذا استغفار الكذابِ، الذي يقول بلسانه: (أستغفر الله)، وليس في قلبه استشعار للذنب الذي يفعل وخوف المعاقبة؛ فهذا يكذب في استغفاره، ولا ينفعه.

إذن نقول: إنّ القول الوسط من أقوال أهل العلم في استغفار المذنب من غير توبة: أنّ ذلك ينفعه إذا كان ذلك نابعًا من خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما إذا كان باللسان فقط دون استشعار القلب فإنه لا ينفع صاحبه، ولذلك **قال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإنّ الله تعالى قد يغفر له؛ إجابة لدعائه، وإن لَمْ يتب)**.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال)** فَجَمْعُ الإنسان بين التوبة والاستغفار كمالٌ، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. فجمع هنا بين الاستغفار والتوبة، فالاستغفار: أنهم ذكروا الله فاستغفروا، والتوبة: أنهم لَمْ يصروا، فجمعوا بين التوبة والاستغفار.

وقال النبي ﷺ: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**». رواه البخاري في «الصحيح»[1].

فدلّ ذلك على أنّ الجمع بين التوبة والاستغفار كمالٌ للعبد إذا وقع في الذنب.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، رقم: (٦٣٠٧).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الثالث: الأعمال الصالحة المكفّرة).**

وذلك أنَّ النبي ﷺ، قال: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» فالأعمال الصالحة ماحية، يسمّيها بعض العلماء بالممحّصات؛ يعني التي تُمحَّص بها الذنوب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إما الكفارات المقدَّرة؛ كما يكفِّر المجامِع في رمضان، والـمُظاهِر، والمرتكِب لبعض محظورات الحج، أو تارِك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدَّرة).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الكفارات المقدَّرة)**: أي: الكفارات المعيَّنة التي رُتِّبتْ على السبب، فمتى ما وُجِد السبب وجبت، وهي سبب لتكفير الذنب أو التقصير، وإزالة ما يترتّب عليه فإنّ الكفارات يُرجى أن تزيل موجَب الذنب الذي وجبتْ بسببه.

ويرى بعض أهل العلم أنّ هذا الكفارات لا تزيل موجَب الذنب بالكليَّة، إلا إذا اجتمعتْ معها التوبة.

والصحيح من أقوال أهل العلم: أن الكفارات زواجر قبل الوقوع، جوابر بعد الوقوع، الكفارات والفِدى: زواجر قبل الوقوع؛ تزجر المكلَّف عن أن يقع في الفعل، وجوابر بعد الوقوع؛ فتجبر الخلل الذي وقع، هذا الصحيح من أقوال أهل العلم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يكفِّر المجامِع في رمضان)**: الجماع في رمضان سيئة وكبيرة عظيمة، فإذا جامع الإنسان في نهار رمضان ترتّب على ذلك أنه يجب عليه أن يكفِّر بعتق رقبة، فإن لَـمْ يجد يصوم شهرين متتابعَين، فإن لَمْ يجد يطعم ستين مسكينًا، فإذا فعل هذا فإنه يزيل موجَب الذنب، ويبقى حقُّ اليوم معلَّقًا بالقضاء، فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه يجب عليه أن يقضي ذلك اليوم مع الكفارة.

ما أثر الكفارة؟ أثر الكفارة في الزجر قبل الوقوع، فإنّ العبد إذا عَلِمَ أنه إذا جامع في رمضان، ستُرتَّب عليه هذه الكفارة العظيمة؛ فإنه ينزجر عن الجماع.

وقد قال العلماء قاعدة شريفة نافعة: أنه كلَّما ضعف الوازع الطَّبْعيّ، عَظُمَ الوازع الشرعيّ، وكلّما قَوِيَ سبب الفعل كلّما قَوِيَتْ الكفارة الزاجرة عنه.

فالمعلوم أنّ الإنسان إذا صام، ومُنِعَ من الجماع، تقوى عليه الدواعي حتى مع ضعف نفسه؛ ولذلك إذا أردتَ مصداق هذا: فإنك تجد أنّ الرَّجل في رمضان تكون عنده امرأته طوال الليل لا يقربها؛ فإذا صام جاءه الشيطان وجاءته الدواعي فيقع، ومن غرائب الأسئلة التي سُئلتُها: أنّ رجلًا في السبعين من عمره سألني فقال: يا شيخ، والله لي عشرة سنين لا أقرب امرأتي، وفي هذا العام في رمضان وأنا صائم وقعتُ عليها! وذلك أنّ إبليس حريص على إيقاع الإنسان في هذا الأمر؛ فجاءت هذا الكفارة المغلَّظة لتزجر الإنسان عن الوقوع في هذا الضَّعف.

ثم أثرُها بعد الوقوع: أنها تزيل أثر الذنب، وأمّا حقُّ اليوم فلا يزيله إلا قضاء ذلك اليوم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمُظاهِر)**: فالمظاهِر كذلك؛ يعتق رقبة، فإن لَمْ يجد يصوم شهرين متتابعَين، فإن لَمْ يجد يطعم ستين مسكينًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمرتكب لبعض محظورات الحج)**: لماذا قال: **(لبعض)**؟ ولَمْ يقل: والمرتكب لمحظورات الحج؟ لأنّ من محظورات الحج ما لا فدية فيه؛ مثل النكاح، النكاح ليس فيه فدية؛ ولذلك قال: **(لبعض محظورات الحج)**، كفدية الأذى، مَن حلق رأسه، أو أخذ شعره، فإنه يكون مخيَّرًا بين ذبح شاة، أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام.

وقولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو تارك بعـض واجباته)**: أي: كما يكفِّر تـارك بعض واجبات الحـج؛ لأنّ مـن تـرك الواجـب فإنه يجب عليـه دم؛ يزيل أثـر هذا التـرك، ويَتمُّ به الحج.

وهنـا لطيفة فقهية؛ وهي: هل الدم الواجب في تـرك بعض واجبات الحج بدلٌ عـن الواجب؟ أو أثرٌ لترك الواجب؟ هل هذه المسـألة من بـاب الرفاهية العلمية؟ لا، بل لها أثرٌ عظيم في أحكام الحج.

إذا قلنـا: إنّ الدم بدلٌ عـن الواجب؛ فإنّا نقول: من عجز عن الواجب يلزمه دم، يعني: مثلاً إنسـان دخل المستشـفى، ورُبِطَ في السـرير ما يسـتطيع يخرج، عاجز، ذهبـوا بـه إلى عَرَفة بالسـيارة، لكن لَمْ يبـت في مزدلفة، ولم يبت فـي منى، الرمي يسـتطيع أن يوكّل فيه لكن المبيت ليس فيه توكيل، فهل يجب عليه دم؟ إذا قلنا: إنّ الـدم بـدل؛ نقول: نعم، يجب عليه؛ لأنّ من عجـز عن الواجب وله بدل انتقل إلى بدله، كالذي يعجز عن الوضوء هل تسقط عنه الطهارة؟ لا؛ بل ينتقل إلى التيمم.

وإذا قلنا إنه أثر؛ فإنه لا يجب عليه دم، العاجز لا يجب عليه دم؛ لأنّ أثر الترك لا يلحقه؛ لأنه يسقط عنه الواجب، فلا واجب مع العجز، فلا يلحقه الأثر.

والـذي يظهر لي - والله أعلم - أنه أثـر ماح، يمحو ما وقع من التقصير وليس بـدلاً، وعليـه فإنه لا يجب على العاجز، لكن لـو أنّ العاجز ذبح احتياطًا؛ خروجًا من الخلاف؛ فهذا شيءٌ طيب.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو قاتـل الصيد)** قاتل الصيد عليه الكفـارة إن كان متعمّدًا، عليه مثلُهُ من النَّعم.

إذن لو سألَنا سائلٌ: ما هي الكفارات المقدَّرة؟ نقول: هي الكفارات المعيَّنة التي رُتِّبت على سبب، فمن وجه: هي محدَّدة ليست مطلقة، ومن وجه: هي مرتبة على سبب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهي أربعة أجناس: هدي، وعتق، وصدقة، وصيام).**

المقصود بالهدي هنا: الذبح، وليس المقصود الهدي إلى الكعبة، بمعنى أنّ التكفير المقدَّر قد يكون بالذبح، وقد يكون بالعتق، وقد يكون بالصدقة، وقد يكون بالصيام.

الصدقة من حيث هي تدخل فيها الزكاة؛ لكن هل تدخل الزكاة في الصدقة هنا؟ لا تدخل، لماذا؟ لأنا نتكلم عن الكفارات، والكفارات فيها صدقة غير الزكاة.

وهنا أخطأ بعض شُرَّاح الوصية؛ فذكر أنّ الصدقة هنا يدخل فيها الزكاة، ويدخل فيها الصدقة النافلة، ونحن نقول: ليس المراد بهَا هنا الزكاة ولا الصدقة النافلة، وإنما المراد: الصدقة التي أوجِبَت على من فعلَ فعلًا معيّنًا؛ كإطعام ستة مساكين على من حلق شعره.

كذلك الصيام هنا، ليس المقصود به الصيام الواجب الذي هو صيام رمضان، وليس المقصود به التنفّل؛ كصيام الاثنين والخميس، وإنما المقصود ما أوجبه الله من صيام على من فعل سببًا معيّنًا؛ كصيام شهرين متتابعَين على من جامع في نهار رمضان.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإمَّا الكفارات المطلقة، كما قال حذيفة لعمر: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفِّرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»).**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإما الكفارات المطلقة)** المراد بها هنا: جنس الأعمال الصالحة، فإنّ الأعمال الصالحة مكفِّرة للسيئات، وتسمّى - كما قلنا - الممحِّصات.

وقد جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث اختصام الملأ الأعلى، وهو حديث عظيم: **«فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قال: في الكفارات، والكفارات: المُكْث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء**

في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه». رواه الترمذي، وحسّنه ابن عبد البر وابن تيمية، وصححه الألباني(١).

وانظر هنا؛ «**فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: في الكفارات**»، والكفارات فُسِّرت في الحديث بأنها: «**المكث في المساجد بعد الصلوات**» هذا كفارة، «**والمشي على الأقدام إلى الجماعات**» هذا كفارة، «**وإسباغ الوضوء على المكاره**» هذا كفارة، «**ومن فعل ذلك عاش بخير**»، يعني من كان من أهل هذا الخير، وكم فرّطنا في الخير؟ مَن منّا يحرص على المكث في المساجد؟ سبحان الله! إذا سلّم الإمام كأنّا على جمر، الجيِّد من يبقى حتى يذكر الله، حتى إنه يذكر بعجلة، ويمشي! نعم، قد يَعن للإنسان حاجة فيَخرج، لكن كثير منّا اليوم أصبحوا لا يجلسون في المساجد إلا قليلاً والمكث في المساجد من علامات الخير، ومَن فعل المكثَ في المساجد موعود أن يعيش على خير، وهو أيضًا من أسباب حسن الخاتمة؛ لأنّ النبي ﷺ، قال: «**ومات بخير**».

وكذلك «**المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء على المكاره**». فدلّ ذلك على أنّ الأعمال الصالحة مكفِّرات، سُمّيت مكفرات بنص الحديث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال حذيفة لعمر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**فتنة الرجل في أهله وماله وولده»)** وفي رواية: «**في نفسه وولده وجاره**» **(تكفِّرها: الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)**، متّفق عليه(٢).

---

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ﴿صٓ﴾، رقم: (٣٢٣٤)، وانظر «التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٣٢٢)، و«بيان تلبيس الجهمية» لابن تيمية (٧/ ٢٠٥) وصححه الألباني «صحيح الترمذي».

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم: (٥٢٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الفتن وأشراط الساعة، بعد حديث رقم: (٢٨٩٢).

قولـه: «فتنـة الرجـل في أهله وماله وولـده»: ماهي فتنة الرجل فـي أهله وماله وولده؟ قال العلماء: ما يَعرِض للإنسـان من الالتهاء بهم، أو أن يَفعل من أجلهم شيئًا من الحرام دون الكبائر.

يقول العلماء: (الرَّجل قد يُفتَن في ولده، وقد يُفتَن بولده، وقد يُفتَن من ولده).

قـد يفتن بولده فيلهو به؛ فقد يترك شـيئًا مما وجب عليه من أجل ولده، أو يفعل شـيئًا من الحرام من أجل ولده، كم من شخص لَمْ يصوِّر قط، ولم يتصوَّر هو قط، حتـى رُزِقَ بالمولـود فأصبح يحمل صورة ولده في جواله! هناك من أهل الخير من عـاش منذ أن عرف الحق يأبى أن يُصوَّر هو بنفسـه، وليسـت لـه صورة إلا الصور التي لابد منها، لكن لـمّا رُزق بولد صوَّر هو ولده! ففُتِن بولده.

وقـد يُفـتَن في ولـده؛ بأن يكون الولد مثـلًا – والعياذ بالله – على سـلوك غير طيب أو خلق غير طيب.

وقـد يُفـتَن من ولده؛ بـأن يدعو الولد والده إلى سـوء، كم مـن رجل كان على الهدى والسنة والسلفية الطيبة المباركة، التي تحلو بها الحياة، وتتحقق بها الاستقامة، فرُزق بولد لا زال به حتى حَرَفَه عنها! .

وأمّا فتنة الرجل بجاره – كما جاء في الرواية الأخرى – فقالوا: بما يحصل من حسد ومزاحمة على الحقوق، كموقف السيارة مثلاً، أو الظل، هذه فتنة الرجل في جـاره، تكفِّرهـا الأعمال الصالحة: من صلاة، وصيـام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.

وقد أجمع العلماء على أنّ الصغائر تكفَّر بالأعمال الصالحة، لكن هل الأعمال الصالحة تكفر الكبائر؟

نذكر الصورة حتى تعرف أثر المسـألة، الآن المسـلم يصلي أو لا يصلي؟يصلي، وأعظم الأعمال الصالحة بعد التوحيد: الصلاة، فإذا قلنا: إن الأعمال الصالحة تكفِّر الكبائـر هكـذا بإطلاق، هل يبقى مسـلم عليه ذنب؟ ما يبقـى، لأن أقلّ ما يعمل أن يصلي، ليس معنى أقل بمعنى أدْوَن؛ ولكن هذا الذي لا يتركه المسـلم أبدًا، فلو قلنا إنّ الأعمـال الصالحة تكفِّر الكبائر على الإطلاق - لكان كلّما صلى كفّر ما مضى، وعليه فإنه يوم القيامة لا يَدخل مسلم النار؛ لأنّ ذنوبه قد كُفِّرت، وهذا لا يكون.

اختلف العلماء في هذه المسألة؛ هل الكبائر تُكفَّر بالصالحات أو لابد فيها من توبة؟

الصحيح الذي تدلّ عليه الأدلة: أنّ الكبائر لابد فيها من توبة، كما جاء في قول النبي ﷺ: «**ما اجتُنِبتْ الكبائر**»[1]، ولما قدّمناه من الصورة.

لكـنّ الأعمـال الصالحة إذا لَمْ تصـادِف صغائر فإنها تخفف مـن الكبائر، مثلاً إنسـان عليه صغائر فتوضأ فمُحيَتْ،ثم صلى وهو ليس عنده صغيرة، فإنه يُرجى لـه أن يُخفَّـف بها من الكبيـرة، لا تُزيل الكبيـرة بالكليّة، ولكن يُرجـى أن تُخفَّف الكبيرة بها.

فإن لَمْ تصادف كبيرة؟ فإنّ التكفير فيها ينقلب إلى ثواب زائد؛ لأنّ الله حَكَمٌ عدْل، مثلاً: مسـلمان توضئـا؛ الأول عليه صغيرة مُحيتْ بالوضوء، والثانـي لَمْ يكن عليه إذ ذاك صغيـرة؛ فالله عز وجل، يعامل هذا بأن يُخفَّف عنه من الكبيرة التي عليه، فإن لَمْ يكن عليه كبيرة فإنّ التكفير ينقلب إلى ثواب زائد على ثواب الوضوء في حق هذا.

ثم إنّ الأعمال الصالحة قد تَقوى فيَعظُم أثرها، فتزيل الكبيرة، ليس لجنسها ولكن لقوتها، إما لعظم يقين القلب، أو للنفع المتعدي، فتقوى إلى أن تُمحى بها الكبيرة، سواء كان ذلك بالموازنة - كما سيأتي - بحيث ترجح الحسنات بالسيئات، أو بالمغفرة.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٣٣).

صورة ذلك: صاحب السجلات الذي يأتي يوم القيامة بسجلات قد ملئت ذنوبًا، ويؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضَع السجلات في كِفَّة، وتوضع البطاقة في كِفَّة؛ فتطيش بهن البطاقة، ترجح البطاقة على السجلات(١).

هل هذا في حق كل مسلم يقول: (لا إله إلا الله)، هل كل مسلم تَرجح كِفَّة حسناته بسيئاته؟ لو كان ذلك كذلك؛ لَمَا دخل مسلم النار، إذن هذا لخصوصيةٍ في (لا إله إلا الله) عنده؛ لقوة يقينه مثلًا، وعظيم عمله بحقيقة (لا إله إلا الله)، ولكن هذا قد لا يوجَد في مسلم آخر؛ فلا يَحصل له الرُّجحان.

كذلك المرأة البغيّ من بني إسرائيل التي كانت تَمتهِن الزنى، لـمَّا شَربَت رأت كلبًا يأكل الثرى من شدة العطش، فرحمَته فنزلت فاستَقت له فأسقته؛ فغفر الله لها (٢).

هل كلُّ زانٍ إذا سقى كلبًا يُغفَر له؟ الجواب: لا، وإنما هذه المرأة لِـمَا لَحِقَها من رحمةٍ ورقَّة قلب صالحة؛ غُفِرَ لها بهذا العمل.

بعض الناس قد يحج، وتُغفر له جميع ذنوبه، إمّا بكونه قرن التوبة مع حجِّه، وإمّا بكونه حرص على إتمام حجه بإخلاص قلبٍ وصدق نيَّة، وبعض الناس قد يعود من الحج وقد خُفِّفت عنه الذنوب، إذا كان دون ما ذكرنا، وكانت عليه كبائر من الذنوب.

إذن نقول: إن الأصل أنَّ الأعمال الصالحة من حيث جنسها، لا تُكفَّر بها الكبائر، بل لابد من أن تكون معها توبة، لكنّ الأعمال الصالحة قد تُخفَّف بها

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم: (٢٦٣٩)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: الزهد، باب: ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم: (٤٣٠٠) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: حديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم: (٣٤٦٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: السلام، رقم: (٢٢٤٥).

الكبائر من وجه، وقد تقوى لقوة يقين القلب أو عظيم النفع المتعدي، فتُرفَع وتُمحى بها الكبيرة.

ومعنى هذا الكلام الذي ذكرتُه، موجود في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإن لَمْ يكن بهذا النص الذي ذكرتُه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد دلّ على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج، وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غُفِر له، أو غفر له ما تقدّم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقّاها من السنن؛ خصوصًا ما صُنِّف في فضائل الأعمال).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد دلّ على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج)**: كقول النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهنّ، ما اجتُنبت الكبائر**»، رواه مسلم(١).

فهذه الأعمال: منها مُكَفّرات يومية؛ الصلوات الخمس، ومُكَفّرات، أسبوعية الجمعة إلى الجمعة، ومكفرات سنوية؛ رمضان إلى رمضان، فاستشعر - يا مسلم - عظيم فضل الله عليك؛ فإنّ الله جعل لك من جنس الأعمال الصالحة مكفراتٍ يومية ومكفِّرات، أسبوعية، ومكفِّرات سنوية.

وهناك مكفِّراتٌ لكل ما مضى؛ كقول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدّم من ذنبه**»(٢).

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الإيمان، باب: صوم رمضان احتسابا من الإيمان، رقم: (٣٨)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦٠).

وقـول النبـي ﷺ: «**مَن حج هـذا البيت فلم يَرفث ولم يَفسـق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(١).

وقولـه رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وسـائر الأعمـال التـي يقـال فيهـا: مـن قـال كـذا**): كقـول النبـي ﷺ: «**إذا قـال أحدكـم: آمين، وقالـت الملائكـة: آمين؛ فوافقت إحداهما الأخرى؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه**» والحديث في «الصحيحين»(٢) يعني في الصلاة، إذا قـال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة: آمـين؛ فوافقت إحداهما الأخرى؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه.

وكقـول النبـي ﷺ: «**إذا قـال الإمـام: سـمع اللـه لمن حمـده، فقولـوا: اللهم ربنـا لـك الحمـد، فإنه مـن وافق قولـه قـول الملائكة؛ غُفـر له مـا تقدّم مـن ذنبه**». وهذا الحديث في «الصحيحين»(٣).

فانتبه يا عبد الله! استشعر هذا وأنت تعمل هذه الأعمال، بعض الناس لا يعطي هذه الأعمال الشريفة حقَّها، عندما يقول الإمام: (ولا الضآلين) قل: (آمين) وأنت مُسْتشـعر هذه الكلمـة العظيمة، راجيًا فضـل الله وأن يجعل قولـك موافقًا لقول الملائكـة، وإذا قال الإمام: (سـمع الله لمن حمده)، فقل: (اللهـم ربنا لك الحمد)، وأنت مستشـعر ما تقول، راجيًا أن يجعل الله قولك موافقًا لقول الملائكة؛ فإنّ من وقع له ذلك غُفر له ما تقدّم من ذنبه.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، رقم: (١٥٢١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحج، رقم: (١٣٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الآذان، باب فضل التأمين رقم: (٧٨١) و«صحيح مسلم»، كتاب: الصلاة، رقم: (٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الأذان، باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٦) ومسلم في «الصحيح»، كتاب: الصلاة، رقم: (٤٠٩).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعمل كذا؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه)**: كقول النبي ﷺ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدّم من ذنبه**» متفق عليه[1].

وكقوله ﷺ: «**من قام ليلة القدر؛ إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**». والحديث في «الصحيحين»[2].

وكقول النبي ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدّم من ذنبه**». الحديث في البخاري ومسلم[3].

من حاول هذا؟ من حاول منّا أن يُسبِغ الوضوء، ويقوم يصلي ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه؟ والتحقيق أنّ المقصود: ألا يحدِّث نفسه بأمور الدنيا، بل يُقبل على صلاته من أوّلها إلى آخرها، هذه العبادة الشريفة، من حاول منا أن يفعلها؟ قلّ من يفعل.

نحن - والله المستعان - حتى في الفريضة اليوم، أصبح الواحد منّا لا يحاول أن يستحضر نفسه في الصلاة، لا تحلو له الدنيا إلا في الصلاة، ربما لا يفكر في شيء حتى يقول الإمام: (الله أكبر)، فإذا قال الإمام: (الله أكبر)، انفتحت عليه الدنيا! وهذا تقصير وتفريط، ينبغي أن نحرص على الإقبال على الصلاة بروحها.

فحريٌّ بك يا من أثقلتك الذنوب - وكلُّنا كذلك - أن تجتهد في أن تتوضأ وضوءًا مسبغًا، ثم تقوم تصلي ركعتين، تُقبل على الله، لا تحدّث فيهما نفسك؛ لتنال هذا الموعود الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ «**غُفر له ما تقدّم من ذنبه**».

---

(١) تقدم في الصفحة السابقة.

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الصوم، باب: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، رقم: (١٩٠١)، و«صحيح مسلم»، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: الوضوء، باب: الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، رقم: (١٥٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٢٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي كثيرة لمن تلقّاها من السنن؛ خصوصًا ما صُنِّف في فضائل الأعمال)**: أهل الحديث صنَّفوا كتبًا في فضائل الأعمال، بعضها مفردة، وبعضها في ضمن كتبهم في السنن، وهناك أحاديث كثيرة جدًا في هذا الباب، وهذا الباب بابٌ عظيم نافع للمؤمن، فإنّ الأعمال الصالحة تزيد الحسنات، وتُمحَى بها الذنوب، وتقدّم معنا أنّ كل بني آدم خطاء، فما أحوَجنا إلى هذا الباب العظيم، فينبغي على المؤمن أن يحرص على معرفة الأعمال، التي نُصّ فيها على تكفير الذنوب.

وهناك أعمال يسيرة كثيرة، رُتِّبت فيها المغفرة على قولٍ أو فعل، منها قول النبي ﷺ: «**من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، ومن لبس ثوبًا** - أي جديداً - **فقال: الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه بغير حول مني ولا قوة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»[1].

ومنها: إحسان الاستغفار في آخر الصلاة، فقد ورد أنّ النبي ﷺ دخل المسجد، فإذا هو برجل قد قضى صلاته - أي: أنه في آخر صلاته - وهو يتشهد وهو يقول؛ أي: بعد أن فرغ من تشهده شرع في الدعاء -: اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لَمْ يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لي ذنبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم، فقال النبي ﷺ: «**قد غُفر له، قد غُفر له، قد غُفر له**»[2]، قالها ﷺ ثلاثًا.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: اللباس، رقم: (٤٠٢٣)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام، رقم: (٣٤٥٨)، وابن ماجه في «السنن» كتاب: الأطعمة، باب: ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم: (٣٢٨٥)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (١٩٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الصلاة، باب: ما يقول بعد التشهد، رقم: (٩٨٥)، والنسائي في «السنن»، كتاب: السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، رقم: (١٣٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود الأم».

ومنها: قول النبي ﷺ: «**من قال حين يسمع المؤذِّن: وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربًا، وبمحمَّدٍ رسولًا، وبالإسلام دينًا غُفر له**»(١).

ومنها: قول النبي ﷺ : «**من غسَّل مسلمًا فكتم عليه، غفر الله له أربعين مرة**»، «**فكتم عليه**»: يعني: لَمْ يَنشر عيبه إن اطّلع على عيبٍ فيه، «**غفر الله له أربعين مرة**»(٢).

ومنها: قول النبي ﷺ: «**ما من عبد يُذنب ذنبًا فيتوضأ، فيُحسِن الطُّهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله بذلك الذنب إلا غفر الله له**»(٣).

ومنها: قول النبي ﷺ: «**من توضأ هكذا**»، أي: توضأ وضوءًا مُسبغًا، «**ثم خرج إلى المسجد، لا يُنهِزه إلا الصلاة - أي: لا يخرِجه إلا الصلاة - ؛ غُفِر له ما خلا من ذنبه**»(٤).

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٣٨٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» كتاب: الجنائز، باب: من رأى شيئاً من الميت، (٣/ ٣٩٦)، والحاكم في «المستدرك» كتاب: الجنائز (١/ ٣٥٤)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» رقم: (ص: ٥١).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم: (١٥٢١)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الصلاة، باب: ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم: (٤٠٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب: الصلاة، باب: ما يفعل من بُلي بذنب وما يقول، رقم: (١٠١٧٥)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم: (١٣٩٥)، وصححه الألباني فيها.

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٢٣٢).

وانظر كيف أنّ بعض الناس اليوم يُهوّن من صلاة الجماعة، إما بذكر أنها مسألة خلافية،وإمَّا بأنه لا حاجة إليها، ويَغفلون عن الفضائل العظيمة المرتَّبة على صلاة الجماعة.

ومنها: قول النبي ﷺ: «**من تَعارَّ من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم دعا ربه: ربِّ اغفر لي غُفر له**»[١].

والشاهد من إيراد هذا أن نعلم أنّ الأعمال الصالحة إذا أدّاها الإنسان ،فإنها تكون سببًا في مغفرة الذنوب، وهذا النوع الأول منها؛ وهو ما نُصَّ عليه.

ثم يأتي النوع الثاني: وهو كل الأعمال الصالحة، ولو لَمْ يُعلَّق عليها مغفرة الذنب بخصوصها، فإنّ محوَ السيئات بالصالحات ليس خاصّاً بما ورد أنّ من فعله و قاله يُغفر له؛ بل هذا عام؛ لقول النبي ﷺ : «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»، فإذا أتبع الإنسان السيئة الحسنة فإنها تمحو الذنب.

فإن قال قائل: إن كان الأمر كما تقولون؛ فما فائدة التنصيص في هذه الأعمال على أنه يُغفَر له، ما دام أنها تشترك مع غيرها في المغفرة؟

قلنا: للتنويه بشرفها، وبيان أنّ المغفرة بها أعظم من المغفرة ببقية الصالحات.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى، رقم: (١١٥٤).

قال شـيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (واعلم أنّ العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليـه؛ فـإنّ الإنسـان مـن حين يبلـغ خصوصًا في هـذه الأزمنـة ونحوها مـن أزمنة الفترات، التي تُشـبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإنّ الإنسـان الذي ينشـأ بين أهل علم ودين، قد يتلطّخ من أمور الجاهلية بعدّة أشياء، فكيف بغير هذا ؟!).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**واعلم**): عادة العلماء أنهـم إذا قدّموا جملة (واعلم)؛ فإنّ هذا يدلّ على عظيم ما سيذكرونه بعدها، فهذا تنبيه على علوّ شأن ما سيُذكَر بعد.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**واعلـم أنّ العناية بهـذا**): (**بهذا**) :يعـود إلى الأمـور الثلاثة التي تقدّمـت: التوبـة، والاسـتغفار من غيـر توبـة، والأعمـال الصالحة، فعنايـة المؤمن بالاجتهاد في الحسـنات الماحيات، والتوبة والاسـتغفار من أشـدّ ما يحتاجه العبد، فإنّ الإنسـان مـن حين يبلغ، لماذا قال: (**مـن حين يبلغ**)؟ لأنه قبـل البلوغ لا يُكتَب عليه شيء، «**رُفع القلم عن ثلاثة**»، ومنهم: «**الصبي حتى يبلغ**»[1]، ولكنه من البلوغ يُكتَب عليه.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فـإنّ الإنسـان من حين يبلـغ؛ خصوصًا في هـذه الأزمنة**): يعني الإنسان عمومًا؛ وخصوصًا في هذه الأزمنة، يعني في زمانه.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ونحوها من أزمنـة الفترات**) والمقصود بالفتـرة هنا: الفتور،أي: مـن أزمنـة الفتور التي تصيب الناس؛ لأنّ الناس قد تمـرّ بهم فترات فتور؛ يضعف الديـن فيهـا، وهذا تجده في بعض البلدان، فتجد أنـه في زمن من الأزمنة يَفتر أهل البلـد ويَضعـف الدين عندهم ضعفًا شـديدًا، ثم في فترة يَنشَـط، وسـبب هذا هو العلم والجهل، فإذا نَشِـط أهل العلم ونشـروا العلم بالكتاب والسـنة؛ نَشِط الناس

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الحـدود، باب: في المجنون يسرق أو يصيب حداً، رقم: (٤٣٩٨)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٢٩٧).

في الخير، وإذا فترَ أهل العلم في نشر العلم بالكتاب والسنة، وتركوا الأمر لغيرهم لنشر ما هو في حقيقته جهل وإن ظُنَّ علمًا – كما سيأتينا إن شاء الله في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية – مثلًا نشر الصوفية والدرْوَشة والأذكار التي لَمْ يرد بها نص من الكتاب والسنة على وجه الإلتزام؛ فإنه يضعف الدين في نفوس الناس.

لأنّ القاعدة: أنّ البدعة تُطفئ السنة في قلوب الناس، ومَا تعلَّق أحدٌ ببدعة إلا مات في قلبه مقدارها من حب السنة، فيفتر الناس في دينهم لأنهم يفعلون ما يظنونه دينًا وليس بدين، ويتركون ما هو دين صحيح، بل يُنكِرونه! فإذا جاءهم إنسان بـ(قال الله عَزَّوَجَلَّ، قال رسوله ﷺ) على خلاف ما يفعلونه من البدع، أنكروا هذا، ولربما قالوا له: أنت وهّابي، بل ربما جَرُؤَ بعض الناس فقال: هذه آيات الوهّابيّة! حتى القرآن لـمّا دلّ على خلاف ما اعتادوه، وصفوه بأنه قرآن الوهابية، مع أنه القرآن الذي يتلونه والآيات التي يتلونها.

وهذا ينبغي أن يُنبِّهنا على شيء: وهو أنه ينبغي علينا أن نعتني بنشر العلم، بكتاب الله وسنة النبي ﷺ في بلداننا، أمّا طلاب العلم فيجتهدون في هذا، وأمّا عامّة الناس فيجتهدون في اقتناء أشرطة العلم للمشايخ الربانيين، الذين عُرِفوا بالتوحيد والسنة، وتُسمَع هذه الأشرطة في البيوت، فيُصبح في البيوت طنين بذكر الله عَزَّوَجَلَّ بدلًا من رنين الموسيقى ومَا يجلب الشياطين إلى البيوت، إن أردنا لمجتمعنا عِزَّة ورفعة وكرامة في الدنيا، وسعادة واطمئنانًا للقلوب ورفعة في الآخرة علينا بهذا.

تأسَف – أيها المؤمن المبارك – عندما تجد بعض المسلمين يتباكى على حال المسلمين من الضعف والمهانة ويذهب إلى السياسة، ويدع ما ينبغي أن يكون وهو الاهتمام بالسبب الحقيقي لهذا الضعف؛ وهو البُعد عن نشر العلم الحقيقي المبني

على كتاب الله، وعلى سنة النبي ﷺ، فهذا الأمر ينبغي التنبُّه إليه، ولذلك قال رحمه الله: **(من أزمنة الفترات)** يعني الفتور والضعف في الديانة.

قوله رحمه الله: **(التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه)** لاحظ لم يقل رحمه الله: المجتمعات الجاهلية أو مجتمعنا جاهليّ ولكن قال: **(التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه)**: والمقصود: من كثرة الانفتاح على الدنيا، وكثرة الفتن؛ فإنها تشبه الجاهلية في هذا الباب، وكذلك من جهة كثرة المعاصي، والوقوع في السيئات، فإنّ هذا قد كثر في الجاهلية، وكثر في اليهود والنصارى.

قوله رحمه الله: **(فإنّ الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين)**: في هذه البيئة التي تَضعف فيها الديانة **(قد يَتلطّخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء)**، فكيف بِمَن ينشأ بعيدًا عن العلم! فإنه أحرى أن يتلطّخ بشيء من أمور الجاهلية، وهذا يأتي بيانه في كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: **(وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد** رضي الله عنه: **«لتتبعنّ سَنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[(١)])**.

قوله ﷺ: **«لتتبّعنّ سَنَن من كان قبلكم»**: أي: طُرق من كان قبلكم **«حذو القُذَّة بالقُذَّة»** كالرمح يتلو الرمح، **«حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه»**، وجحر الضب يكون ضيّقاً صعب المسالِك، ومع ذلك لو دخلوا هذا الجحر الضيّق صعب المسالك لدخلتم وراءهم! قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ أي: من كان قبلنا؟ قال: **«فمَن»**؟ أي: أنهم اليهود والنصارى.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: (٣٤٥٦)، و«صحيح مسلم» كتاب: العلم، رقم: (٢٦٦٩).

وليس المقصود بهذا الحديث أنّ الأمّة كلها تتشبّه باليهود والنصارى في أمورهم كلّها، وإنما المقصود: أنّ التشـبّه يقع من أفراد الأمّة، فهذا يتشـبّه بكذا، وهذا يتشـبّه بكذا، وهذا يتشبّه بكذا.

أمّـا أن تتشـبّه كل الأمّـة بـكل حـال اليهـود والنصـارى فهـذا منتـفٍ؛ لقـول النبـي ﷺ: «**لا تزال طائفةٌ من أمّتي على الحق ظاهِرين، لا يضرّهم من خالفهم أو خذلهم، حتى يأتي أمر الله**»(١).

والتشبّه باليهود والنصارى له وجوه سننبّه عليها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(هذا خبر تصديقه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩]، ولهذا شواهد في الصِّحاح والحسان).**

هـذه الآية وردتْ في المنافقين، الذين سَـخِروا بالنبي ﷺ وأصحابه، وقالوا: ما رأينـا مثل قُرَّائنا هؤلاء، وذموهم، فجاءت هـذه الآية فيهم، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾، والخَـلاق: هو النصيب من الدِّين والدنيا، فرضيتـم بالدنيا من نصيبكم في دنياكم ودينكـم، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ أي بنصيبهـم، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ في الباطل وسبِّ الأنبياء والصالحين.

وهـذه الآيـة وإن كانت فـي المنافقـين، إلا أنّ العبرة بعمومها؛ وهـو أنّ مِن هذه الأمّة من يَتشبّه بالأمم السابقة.

فإمّـا أن يُتشـبَّه بهم في تـرك العلم، وهذا تشـبُّه بالنصارى الذيـن تركوا العلم؛ فكانوا ضالين.

وإما تشبّه بهم في ترك العبادة مع العلم، وهذا تشبّه باليهود؛ فكانوا مغضوبًا عليهم.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**»، رقم: (٧٣١١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان رقم: (١٥٦).

وقـد ذكـر بعـض أهل العلـم أنّ قـول اللـه عَزَّلَ: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ هذا باب الشـهوات، أي تشـبّهتم بهم في باب الشـهوات؛ باب المعاصي، هذا فعل العُصاة، ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ هذا في باب الديانة؛ وهذا فعل المبتدعة.

فالعصـاة من أمّة محمد ﷺ يَتشـبّهون بأهل الجاهلية فـي فعل المعصية في باب الشهوة، والمبتدعة من أمّة محمد ﷺ يَتشبّهون بالأمم السابقة في التعبُّد بلا علم.

والتشـبّه بالكفـار فـي دينهم حـرام، والتشـبّه بالكفار فـي دنياهم فيمـا هو من خصائصهم حرام.

أمّا فعل ما يفعله الكفار لحاجة الناس، فهذا ليس من باب التشبه في شيء، كوننا مثلًا نقود السـيارة، والسـيارة قد اخترعها الكفار؛ فهذا ليس من باب التشـبّه، لأنّ ركوب السيارة إنما هو حاجة إنسانيّة لا يَختصّ بها الكفار، فليس مطلوبًا منّا – كما فهـم بعـض متنطّعة هذا العصر – أن نركب الجمال، وأن نترك ركوب السـيارات، لأنّ هذا من باب التشبه؛ زعموا.

أو كذلـك مثلًا الآلات الميسِّـرة مثل النظارات على الهيئـة الموجودة الآن، كآلة الحاسـب الآلـي وغير ذلـك؛ هـذا يُفعَل للحاجـة الإنسـانية، ومَا يُفعَـل للحاجة الإنسانية لا تشبُّه فيه.

رأيـتُ بعض الشـباب يَتعمّدون قطع إشـارة المـرور الحمـراء يتعمّدون قطعها ويتعبّـدون بقطعهـا، لماذا؟ قالوا: مخالفـةً لليهود والنصارى؛ لأنّ هذا الإشـارات مأخـوذة مـن اليهود والنصارى! وهـذا جهل فاضِح، فإنّ هذا قـد اتفق أهل العلم فيه على أنه لا يَدخل باب في التشـبّه؛ لأنه مما يُفعَل للحاجة الإنسـانية، لا يَختصُّ به كافر ولا مسلم.

وكذلك اللباس الذي يشترك فيه العموم، فإنه لا يكون من باب التشبّه، أمّا إذا كان اللباس خاصًّا بالكفار، بحيث من رأى لابسه يقول: إنه يَلبس لِبْسة الكفار؛ كطاقية اليهود المعروفة وزُنّار النصارى، ونحو ذلك فهذا يحرم التشبّه بهم فيه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهذا أمرٌ قد يسري في المتنسبين إلى الدين من الخاصة، كما قال غير واحد من السلف؛ منهم ابن عيينة).**

يعني هذا يقع حتى لمن ينتسبون إلى العلم، فإنّ بعض من ينتسبون إلى العلم يتشبّهون باليهود أو النصارى، فإن قصَّروا في العلم تشبّهوا بالنصارى، وإن لَمْ يعملوا بعلمهم تشبّهوا باليهود، كما قال سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى)، لأن فساد النصارى في باب العبادة، وفساد اليهود في باب العلم؛ علموا فلم يعملوا، والنصارى عبدوا بدون علم، وقد يقع في العلماء الشَّبَه بهذا وهذا، و يقع في العُبّاد الشَّبَه بهذا وهذا، وهذا واقع معايَن.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلي بها بعض المتنسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلي بها بعض المتنسبين إلى الدين كما يُبصِر ذلك مَن فهم دين الإسلام، الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، ثم نزّله على أحوال الناس).**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما يُبصِر ذلك مَن فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ ثم نزّله على أحوال الناس)**، الله أكبر! هذه القضية قضية مهمة جدًا، وهي أنّ الحكم على الناس وتنزيل الأحكام عليهم تعيينًا ليس لكل أحد، ولا يُطلَق فيه الأمر لكل واحدٍ من الناس، ولا يكون على عواهنه، بل لابد أن يكون على بصيرة، وعلى الأصول الشرعية التي جاءت في كتاب الله، وفي سُنَّة النبي ﷺ، وأن يكون من أهل البصيرة.

وهذا باب تساهل فيه الناس كثيرًا اليوم، فتجد أنّ الواحد من أسهل ما يكون على لسانه أن يقول: فلان كافر! أو هذا كافر! ويُنزِّل الحكم المطلَق على المعيّن.

والناس في هذا الباب طرفان ووسط:

طرفٌ يُسَارع إلى تنزيل الأحكام المطلَقة على المعيّنين، ولو لَمْ يكن على بصيرة من الدين، ولو لَمْ يكن من أهل الشأن.

وطرفٌ يغلو في الفصل بين الأحكام المطلَقة وأحكام المعيّنين، حتى يكاد لا يُنزِّل حكم على معيّن، **وهذا خطأ، وذاك خطأ.**

والصواب ما عليه أهل السنة من التفريق بين الحكم المطلَق والحكم على المعيّنين، فإنّ الشيء قد يُحكَم عليه بإطلاق؛ لأنّ الدليل دلّ عليه، مثلًا: نجد أنّ أكثر السلف صحّ عنهم أنهم يقولون: (من قال بخلق القرآن فهو كافر)، وهنا ليس المقصود وصف المعيَّن بأنه كافر، وإنما هذا وصْفٌ مطلَق.

لكن إذا جاؤوا إلى معيّنٍ يقول بخلق القرآن فإنهم لا يسارعون إلى تكفيره؛ بل يُنظَر ببصيرة، فإذا اجتمعت الشروط وانتفت الموانع؛ حَكَمَ أهل البصيرة بهذا الحكم، ولا يحكم به كل أحد.

ولَمَّا أَغفَل أقوامٌ هذا؛ انتشرت فتنة التكفير بين الشباب، وأصبح الشباب يسارِعون إلى تكفير المسلمين؛ بل إلى تكفير العلماء الربانيّين الذين قضَوا أعمارهم في العلم والتوحيد والسنة!

رأينا شبابًا في السادسة عشر من أعمارهم، والثامنة عشر من أعمارهم، والعشرين من أعمارهم يكفّرون عموم الأمّة، حتى أنّ أحدهم قال لي: أرأيت هؤلاء الحُجّاج بالملايين؟ قلتُ: نعم، قال: ما عرف واحد منهم الإسلام، كلهم كفار!

ولـمَّـا أُورِد على أحد هؤلاء الشـباب أنّ الشـيـخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يقـول كذا، وأنّ الشـيـخ ابن العثيمـين رَحِمَهُ اللَّهُ يقول كذا؛ قال: ما أكفر من هـذا إلا هذا! وهم صغار السـن لا يحمل أحدهم شـهادة الثانوية، لكن ربّاهم أقوام على إطلاق الأحكام، وعلـى الجرأة في هذا الباب، فلمّا كسـروا الحاجز بينهم وبينـه؛ لَمْ يقفوا عند حدّ، وهكـذا من يدخل فـي باب التكفير، وهو من غير أهلـه، وبغير ضوابطه، لا ينتهي عند حدّ، لا يزال يُضيِّق الدين حتى يبدأ يُشكِّك في نفسه.

أحدهم قال لي: أنا أغتسل الفجر وأُسلِم، وأغتسل المغرب وأُسلِم!! وكما هي القصة المشهورة أنّ رجلًا يقول: أنا لا أعرف مسلمًا اليوم على وجه الأرض إلا أنا وزوجتي ورجلٌ في الهند!

هذا التهوّر في هذا الباب أنشـأ هذه القضيـة الخطيرة، ولذا ينبغي على المعلِّمين وعلـى طلاب العلم أن يربّوا الطلاب على الطريقة الشـرعية في هذا الباب، وألا يُطلَق الكلام على عواهنه، وأن يُعلَم أنّ الحكم على المعيّنين إنما يكون بفهم الدين، ثم بفهم توفر الشروط وانتفاء الموانع، ثم بكون الإنسان من أهل هذا الشأن؛ حتى لا يكون الأمر فوضى في هذا الباب.

ولذلك قال شيخ الإسلام هذه الجملة العظيمة النافعة؛ **قال: (كما يُبصِر ذلك)** لم يقل كل أحد وإنـما قال: **(كما يُبصِر ذلك من فهم دين الإسـلام الذي بعث الله بـه محمدًا ﷺ)**، ففهمه على الحقيقة وليس دعوى، **(ثم نزّله على أحوال الناس)**، وهذا أمر ينبغي أن يُتنبّه له.

وإنـه مما ينبغي أن نربي عليه أنفسـنا وإخواننا ومـن حولنا من الناس أربعة أمور فيها خير عظيم:

١. العاطفة
٢. والعقل
٣. والعلم
٤. والعدل

فالعاطفة الرشـيدة مطلوبة، واليبوس في العاطفة لا يأتي بخير، ولا ينبغي على المربّي سـواء كان أبًـا أو معلّمًا أن يُجفِّف العاطفة في قلـب من يربيه؛ بل ينبغي أن يُنمِّيها مرشَّدة.

والعقـل كُـرِّم بـه الإنسـان، فتنميـة العقل والحـرص علـى المحافظة عليـه أمرٌ مطلوب.

والعاطفة – كمايقول العلماء – فيها إدراك الحال الموجود؛ استجابة للحال الآن، والعقل فيه إدراك المآل، فمن جمع بين العاطفة والعقل يحصل له رُشْدٌ في أمره.

مثلًا لو أنّ رجلًا دخل فإذا بامرأته تسبّ أمّه! يا له من أمر عظيم؛ زوجته تسب أمّه عاطفته لأمّه تدعوه لأن يطلّقها؛ انتصارًا لأمّه، لكن إذا فكّر بعقله مع عاطفته، قال: أدّبها ولا تكسرها؛ لأنك لو طلقتها يترتّب على هذا كذا وكذا.

ولذلـك لـمّا تعطّل هـذا الأمر، كثر الطلاق بين الناس؛ لأن أكثر الأزواج اليوم يتصرّفون بالعاطفة فيستجيبون للحال، ويُعطّلون العقل، الآن أصبح الرجل يطلّق علـى ثوبه إذا لَمْ يُغسَـل! وعلى الشـاي إذا لَـمْ يُعدّ! لأنّ النـاس عطّلتْ العقل مع العاطفة في أكثر الأحوال.

والأمر الثالث: العلم، فإنَّ العلمَ سراجٌ يضيء للعقل وللعاطفة الظلمات.

فإذا جمع العبد بين عاطفة رشيدة وعقل وعلم؛ فإنه يعيش في نور الحق والخير.

ثم لابد مع هذا من العدل، فيأخذ نفسه بالعدل؛ مع القريب والبعيد، والمحِبّ والمبغِض، فيعيش بخير، ويعلِّم الناس الخير، ملتزمًا السنة، من غير إفراط ولا تفريط، وهذا أمرٌ حريٌّ بنا أن نفهمه وأن نحرص عليه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإذا كان الأمر كذلك، فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميّتًا فأحياه الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية، وطريق الأمّتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتُلي ببعض ذلك).**

وليس المقصود بهذه الصفات العظيمة أنْ يرى أنه قد ابتُلي ببعض ذلك فقط، وإنما المقصود: أنّ الإنسان في حال الفتن يَتفقّد نفسه؛ حتى يُخلّصها من أثر الفتن، فإذا انتشر أمرٌ بين الناس يتعلّق بالتشبّه باليهود أو النصارى، أو بأهل الجاهلية، فإنّ الإنسان يتفقّد نفسه ببصيرة، فإذا وجد أنه قد أُصيب بغبار هذا الأمر فإنه يُنظّف نفسه منه، ويَدَع هذا الأمر، ويَتخلّص منه، فقول شيخ الإسلام: **(فيرى أن قد ابتُلي ببعض ذلك)** أي: أنه ينبغي عليه مع هذا أن يسعى في الخلاص من هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فأنفع ما للخاصة والعامّة: العلم بما يُخلِّص النفوس من هذا الورَطات؛ وهو إتْبَاع السيئات الحسنات).**

إذا ثَبَتَ لديك - يا عبد الله - أنه لابد لك من الخطأ، وأنّ الذنب كالحتم اللازم لك، وأنّ طرق الوقوع في السيئات كثيرة؛ كالتشبّه باليهود والنصارى ونحو ذلك؛ فينبغي أن تعلم أنّ أنفع ما يكون لك أن تعرف ما يُخلِّص نفسك من أثر السيئة،

وأن تتعلّم ما يُخلِّص مجتمعك من أثر السيئة، وهذا يحتاجه الخاصة؛ أي: العلماء وطلاب العلم، والعامّة - أي عموم الناس -، فإنّ الإنسان لابد أن يقع في شيء من هذه الورَطات، فإذا تعلّم ما يزيل أثرها، فإنه يُتبِعها بما يزيل أثرها؛ فتزول بإذن الله عز وجل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (والحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات).

لمّا ذكر شيخ الإسلام أنّ الحسنات ممحّصات؛ تزيل أثر السيئات أخذًا من الأدلة، عاد فبيّن ما هي الحسنات، فقال رحمه الله: **(الحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين)** - عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم -؛ **(من الأعمال والأخلاق والصفات)**، والمقصود بالندْب هنا: الحث، وليس المقصود أنّ الحسنات هي المندوبات فقط المستحبات، بل المقصود: ما حثّ الله على فعله إلزامًا أو استحبابًا.

فالحسنات لا تُعرَف بالهوى والابتداع، وإنما تُعرَف بالاتّباع؛ بمعرفة ما في الكتاب والسنة، فالحسنة: كل أمرٍ طُلِب فعله في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أمّا ما يُفعَل من التعبُّدات مما ليس في الكتاب والسنة فليس بحسنة، بل بدعة، ولا يزيل أثر السيئة، بل هو سيئة عظيمة.

لأنّ المعلوم أنّ أعظم السيئات: الشرك الأكبر، ثم الشرك الأصغر، ثم البدع، ثم ما دون ذلك من الذنوب، وهذا ترتيب الذنوب، فإذا كان الإنسان يفعل عبادة لَمْ ترد في الكتاب ولا في السنة، فإنه لَمْ يفعل حسنة، وإنما يكون قد فعل سيئة تحتاج إلى ما يمحو أثرها.

والبدعـة أحـبّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنّ المعصية يفعلها الإنسـان على غير سبيل التقرُّب، يفعلها الإنسان وهو يرى أنها خطأ لكن تغلبه الشهوة، فيكون قريبًا مـن التوبة، أما البدعة فيفعلها الإنسـان دينًا؛ فيكون بعيـدًا عن التوبة، كيف يتوب مـن الدين؟! ولذلك النبـي ﷺ يقول: «**إنّ الله قد حجـب التوبة عن كلِّ صاحب بدعة حتى يدعها**»[1].

إذن الحسـنة التي تزيل السـيئة: هي ما طلبه الله في كتابه أو على لسـان رسوله ﷺ، سواء كان ذلك متعلّقًا بالأقوال كالأذكار، أو الأعمال كالصلاة، أو الأخلاق - كما سيأتي إن شاء الله في بيان حسن الخلق - أو الصفات؛ والمقصود بالصفات: مـا يُتحلى به، وهـو نوعٌ من الأخلاق؛ مثل: الأناة، والحلـم ،ونحو ذلك؛ فهي من الحسنات.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومما يزيل موجَب الذنوب: المصائب المكفِّرة؛ وهي كل ما يؤلم من همٍّ، أو حزَن، أو أذى في مالٍ أو عرض أو جسد، أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد)** .

هذا الأمر الرابع مما يزيل آثار الذنوب، وشيخ الإسلام ذكر أربعة: التوبة، والاستغفار مـن غيـر توبة، والأعمال الصالحـة، وهذا الرابع: مـا يصيب العبد المؤمـن من البلاء.

فإن قال قائل: لماذا فصله شيخ الإسلام عن الثلاثة المتقدّمة؟

قلنا: لأنّ الثلاثة المتقدّمة من عمل الإنسـان، ويُطلَب منه أن يفعلها، فيُطلَب منه أن يتوب، ويُطلَب منه أن يسـتغفر، ويُطلَب منه أن يُكثِر من الأعمال الصالحة، أمّا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ٢٨١) رقم: (٤٢٠٢)، والضياء في «المختارة» (٦/ ٧٢) رقم: (٢٠٥٤-٢٠٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٦٢٠).

هذا السبب الرابع فليس من فعْل الإنسان؛ أن تصاب بالحمّى ليس من فعلك، ولا يُشـرَع للإنسـان أن يطلبه، لا يُشـرَع للإنسـان أن يطلب البلاء؛ ولو برجاء تكفير الذنوب، لا يُشرَع للمؤمن مثلًا أن يقول: (اللهم أسألك البلاء بالحمى)؛ لأنه عَلِمَ أنّ الحمّى تَحُتُّ الذنوب[١]، ولا يُشـرَع للمسـلم أن يقول مثلًا: (اللهم إني أسـألك البلاء بالعَمَى)؛ لأنه علِمَ أنّ الله إذا ابتلى المؤمن بفقد إحدى حبيبتيه -أي: عينيه- فَصَبَر فأنه يكون له الجنة[٢]، ولا يُشرَع للمؤمن مثلًا أن يقول: (اللهم إني أسألك أن تُميتَ أولادي)؛ لأنه علِمَ أنّ الولد إذا مات قبل البلوغ يَشْفَع لوالديه، وأنه إذا مات الولـد فحمد العبدُ واسـترجَع يُبنـى لأبيه بيتٌ في الجنـة[٣] - وإن كان الحديث فيه ضعف -، هذا لا يجوز ولا يُشرَع؛ لكن إذا وقع فإنَّ المسلم يصبر على البلاء.

والعلمـاء يقولـون: إنّ العبـد إذا نـزل به البلاء ينبغـي عليه أن يصبـر، كما قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إنّ أمره كله له خير، إن أصابته سـرّاء شـكر؛ فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان ذلك خيرًا له**»[٤].

ومما يُعين العبد على الصبر أن يَستحضر أمورًا:

الأمر الأول: أن يستحضر أنّ الذي ابتلاه هو ربُّه، وأنه عبدٌ، فالمبتلي هو الله، والمبتلى هو عبد الله، والعبد تحت أمر مولاه سبحانه وتعالى.

(١) أخرج مسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٥)، ولفظه: «**لا تسبي الحمى فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد**».

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الزهد، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم: (٢٤٠١)، وصححه الألباني فيه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع»، أبواب: الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، رقم: (١٠٢١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٠٨).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الزهد والرقائق، رقم: (٢٩٩٩).

الأمر الثاني: أن يستحضرَ أنَّ الذي ابتلاه هو الله الذي لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

الأمر الثالث: أن يستحضر أنّ الذي ابتلاه هو الله الذي لا يُسأل عما يفعل؛ لتمام فعله؛ فإنه لا يفعل إلا لحكمة، فيستحضر أنّ هذا البلاء الذي نزل به إنما نزل به لحكمة، وليس عبثًا، فإنّ الله لَمْ يفعل شيئًا؛ ولا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

الأمر الرابع : أن يستحضر أنّ البلاء إذا نزل بالعبد المؤمن؛ إمّا أن ينبّهه من غفلة، أو تُكفَّر عنه به سيئة، أو تُرفَع له به منزلة، هذه الحِكَم الثلاث في نزول البلاء؛ إمّا تنبيه من غفلة، فإن المؤمن قد يعيش في غفلة، فقد تلهيه الدنيا ويضعف في دينه؛ فينزل به بلاء يُذكِّره، فيتذكر ما هو عليه، فيعود إلى الله، كم من شخص كان بعيدًا عن الأعمال الصالحة فمات ابنه فتنبه وعاد إلى الديانة والتقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كم من شخص كان غافلًا لاهيًا مُغرِقًا في المعاصي فابتُلِيَ بمرض فتنبّه فعاد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أو تُكفَّر بهذا البلاء سيئات، أو تُرفَع له بها منزلة؛ فإنه ورد في الحديث: «**إنّ الله إذا أراد بعبدٍ منزلة في الجنة، ثم لَمْ يبلغها بعمله، قال لملائكته: صبُّوا عليه البلاء صبًّا، ثم صبَّره عليه**»[1]، فيرتفع بالبلاء إلى منزلته في الجنة التي لَمْ يبلغها بعمله.

الأمر الخامس: أن يستحضر أمرًا عظيمًا؛ وهو أنّ الذي ابتَلَى هو الذي أنعم، فإذا نزل بك البلاء فانظر إلى نعم الله عليك، إن كان الله ابتلاك بمرض في جسدك فقد أنعم عليك في جسدك - مع المرض - بنعم كثيرة، فالذي ابتلى بهذا البلاء هو

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب، رقم (٣٠٩٠)، وصححه الألباني لغيره في «السلسلة الصحيحة»، رقم: (٢٥٩٩).

الذي أنعم بلا انتهاء، وهذا يعين المسلم على أن يصبر على البلاء الذي ينزل به، فإذا نزل البلاء بالعبد وصبر على ذلك؛ فإنه يبلغ بذلك منزلة عظيمة.

وعرّف شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ المصيبة فقال: (**هي كلُّ ما يؤلم؛ من همٍّ أو حَزَنٍ او أذىً في مال أو عرْض أو جسد أو غير ذلك**)، وقد قال النبي ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَب ولا همٍّ ولا حُزْنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها؛ إلا كفّر الله بها من خطاياه**» متفق عليه[1].

هذا الحديث فيه بيان أنّ البلاء يكفّر الذنوب، وفيه بيان البلاء بالمثال.

فالمصيبة: هي ما ينزل بالإنسان مما يكرهه، هذا ضابطها العام؛ ما ينزل بالإنسان مما يكرهه، حتى لو جاءك رجل كثير الأذى فنزل بك وأنت تكره هذا؛ فهذه مصيبة، وإن صبرتَ على هذا وعملتَ بالمشروع في هذا فإنك تنال منزلة عالية.

والهمّ: نوعٌ من الحُزن، يقع في الغالب بسبب التفكير فيما يُتوقَّع، يَتوقّع الإنسان أن يصيبه كذا فيصيبه الهمّ.

والحُزن: معروف، يصيب القلب بسبب وقوع المكروه، فإذا وقع مكروه فإنّ القلب يصيبه حُزن.

والنَّصَب: هو التعب.

والوَصَب: هو الألم، والسُّقْمُ الدائم، بعض الناس يصاب بمرض يصيبه بألم مستمر، لا يُعجِزه لكنه يؤلمه، يعني: بعض الناس يقول: أنا عندي صداع دائم؛ هذا وَصَب؛ ألَمٌ مستمرٌّ دائم، فهذه كلها من المصائب، وهي مكفّرات للذنوب.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، رقم: (٥٦٤١)، و«صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٢).

فإذا أصاب الإنسان همٌّ فإنه يكفَّر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان حُزن فإنه يُكفَّر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان أذى في ماله فذهب بعض ماله فإنه يُكفَّر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان أذىً في عرضه - يعني من جهة أنه نِيل من عرضه بكلام أونحو ذلك - فإنه يُكفَّر به من سيئاته، أو أذى في جسده، أو غير ذلك مما ينزل بالإنسان مما يكرهه فإنّ هذا تُكفَّر به السيئات.

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ **معقِّبًا: (لكن ليس هذا من فعل العبد)**، والمقصود: ليس هذا مطلوبًا من العبد، فما دام أنه ليس من فعلك، فإنه ليس مطلوبًا منك.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: من الأجور ما لا يُشرَع طلبه ويذكرهذا في الألغاز الفقهية ويقال: ما الأجر الذي لا يُشرَع للإنسان أن يطلبه؟ والجواب: الأجر المرتَّب على نزول المصيبة؛ فإنه لا يُشرَع للإنسان أن يطلبه ،لكن إذا نزلتْ به المصيبة صبر وعلم أنّ في هذا أجرًا، وأنّ في هذا إذهابًا للوزر.

وبهذا يكون شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرغ من الكلام عن الجملتَين الأوليَين في هذا الوصية العظيمة: «**اتق الله حيثما كنت**»، وخلاصة ما فيها: افعل يا عبد الله ما أمرك الله به، واجتنب ما نهاك الله عنه، واحرص على ذلك.

«**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» فيا عبد الله اعلم أنك مع حرصك على فعل الأوامر واجتناب النواهي سيقع منك الخطأ، فإذا وقع الخطأ فبادر، وأتبع الخطأ بحسنة، أو بمكفّر يكفّرها، وهذا يزيل عنك أثر الذنب.

ثم سيشرع شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الجملة الأخيرة من هذه الوصية «**وخالق الناس بخلق حسن**».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلمّا قضى بهاتين الكلمتين حق الله؛ من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد؛ قال: «وخالق الناس بخلق حسن»، وهو حق الناس).**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فلمّا قضى بهاتين الكلمتين حق الله؛ من عمل الصالح**) هذا في قوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت**»، (**وإصلاح الفاسد**) هذا في قوله ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»؛ قال: («**وخالق الناس بخلق حسن**»، **وهو حق الناس**).

وقد تقدّم معنا أنّ الإنسان في الدنيا عليه حقّان: حق الله، وحق الخلق.

وقد قال بعض العلماء كلمة عظيمة نافعة: (جِماع الدين: الصدق مع الحق عَزَّوَجَلَّ، وحسن الخُلق مع الخَلق)، الأمر الذي يجمع الدين كلَّه: أن تكون صادق القلب مع الله، موحِّدًا، عابدًا، مخبتًا لربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حسَنَ الخُلق مع خَلْق الله، فإذا جمعتَ بين هذين الأمرين، فقد جمعتَ الدِّين، وهذا معنى قول العلماء: (جماع الدين: الصدق مع الحق عَزَّوَجَلَّ، وحسن الخُلق مع الخَلْق).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهو حق الناس**) أي: أنّ حسن الخلق حق الناس، والعلماء يقولون: إنّ حسن الخلق يُختبَر به الناس، وتتبيّن به معادنهم، فكم من شخص يجتهد في العبادة لكنه يعجز عن حسن الخلق! وهذا معنى قول أهل العلم: (إنّ حسن الخُلق يُختبَر به الناس، وتنكشف به حقائقهم وتتبيّن معادنهم).

وحسن الخُلق يجمع فعل الفضائل وإجتناب الرذائل، وهو صفة الأخيار الأبرار، فإنّ نبينا ﷺ لَمْ يكن فاحشًا ولا متفحّشًا، وكان يقول ﷺ: «**إنّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا**» متفق عليه[1].

(١) «صحيح البخاري» كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، رقم: (٣٥٥٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الفضائل، رقم: (٢٣٢١).

النبي ﷺ يشهد هذه الشهادة بالخيرية للمسلم «**إنّ خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»، فمن أراد أن يكون له نصيب من شهادة رسول الله ﷺ بالخيرية، فليجتهد في تحسين أخلاقه.

وقال ﷺ جملةً عجيبةً مشوقةً لمن أحب النبي ﷺ صادقًا، ومَا من مؤمن إلا وهو يحب النبي ﷺ، قال ﷺ: «**إنّ من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقًا**» رواه البخاري في الصحيح(١)؛ فالنبي ﷺ يحب المؤمنين، ومَن حَسُن خُلقُه كان أحبَّ إلى النبي ﷺ.

ولذلك قال بعض أهل العلم: (مَن زاد عليكَ في الخُلق زاد عليك في الدِّين)، يعني من زاد عليك في الخُلق وهو على دين؛ زاد عليك في الدين؛ لأنّ الخُلق من البر الذي يحبه النبي ﷺ، ولذلك كلّما حسَّنتَ خُلقك كلما كنت أحبَّ إلى النبي ﷺ.

وقال النبي ﷺ: «**البر حُسن الخُلق**»(٢)، والمعلوم أنّ هذه الصيغة تقتضي الحصر: «**البر حُسن الخُلق**» فكأنّ النبي ﷺ حصر البر في حُسن الخُلق، قال العلماء: لأنّ البر يَكون بمعنى الصلة، ويكون بمعنى اللُّطف، ويكون بمعنى حُسن الصحبة، ويكون بمعنى الطاعة، وهذه مجامع حُسن الخُلق.

وسيأتي - إن شاء الله - الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا.

وقال النبي ﷺ: «**إنّ المؤمن ليدرِك بحُسن الخُلق درجة الصائم القائم**» رواه الإمام أحمد، والترمذي بمعناه، وصححه الألباني(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رقم: (٣٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٥٣).

(٣) «مسند الإمام أحمد» (٤١/ ٤٧٠) رقم: (٢٥٠١٣)، و«جامع الترمذي» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧٩٤-٧٩٥).

«**إنّ المؤمن**» وهذا يدلّ على أنّ حُسن الخُلق إنما ينفع المؤمن، فلابد أن يكون مع إيمان، «**ليدرك بحُسن الخُلق درجة الصائم القائم**» والمقصود بالصائم: مُديم الصيام. والمقصود بالقائم: مُديم القيام. وهذا يدل على فضيلة حُسن الخُلق.

وقال النبي ﷺ: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**» رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني(١).

هنا أَلفِتُ لفتةً علميَّة، نجد كثيرًا في الحديث مثل هذا، فقد يقول قائل: أليست الصلاة المفروضة ثقيلةً في الميزان؟ أليست أركان الإسلام ثقيلةً في الميزان؟ أليس التوحيد ثقيلًا في الميزان؟ والنبي ﷺ يقول: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حُسن الخُلق**».

نقول: بلى؛ إنّ الصلاة ثقيلة، وإنّ التوحيد ثقيل، وهذه النصوص إذا وردتْ لا تمنع المشاركة، فهذا ثناء على المذكور لا يَمنع مشاركة غير المذكور، وهو مثل التفضيل بين الأنبياء؛ لا يقتضي نقصًا، ولهذا نصّ أهل العلم على أنّ التفضيل بين الأنبياء على وجه التنقّص لا يجوز.

فعندما يقول النبي ﷺ: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حُسن الخُلق**» لا يعني أنّ غيره لا يكون ثقيلًا مثله؛ بل يشاركه، لكن ذُكِرَ هذا في باب الحثّ على حُسن الخُلق، ولا يَمنع شِرْكَة غيره فيه.

وقال ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلقه**» رواه أبو داود، وصححه النووي، وحسنه الألباني(٢).

---

(١) «سنن أبي داود» كتاب: الأدب، باب: في تفسير الخلق، رقم: (٤٧٩٩)، و«جامع» الترمذي، أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٨٧٦).

(٢) «سنن أبي داود» كتاب: الأدب، باب في حسن الخلق، رقم: (٤٨٠٠)، وانظر «رياض الصالحين» باب: حسن الخلق، رقم: (٦٣٠)، و «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٧٣).

«**أنـا زعيم**»؛ أي: ضامن، «**ببيت في ربـض الجنة**» أي في طرف الجنة، «**لمن ترك المـراء وإن كان محقـاً**»، والمراء: أن يَصِـلَ الحوار بين الطرفين إلـى حب كل واحد لنصـرة رأيه ،لا لإظهار الحق، فإذا وصل الأمر إلى أنّ المتحاورَين كل واحد منهما أصبح يريد أن ينصر رأيه لا أن يُظهر الحق؛ فهذا المراء، والنبي ﷺ ضمِنَ لمن تركه بيتًا في طرف الجنة؛ لأنه إذا اشتد النقاش وظهرت رغبة النفس في النصرة، يصعب أن تَفطِم نفسك إذ ذاك؛ ولذلك جاء هذا الفضل؛ حتى إذا تذكرتَه توقّفت.

«**وببيت في وسـط الجنة**» في وسط درجاتها «**لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا**»، كثيـر مـن الناس اليـوم قد يَمتنع مـن الكذب، لكنه يتسـاهل في الكـذب من أجل المـزاح؛ من أجل أن يُضحك الناس، فيكذب ليُضحـك الناس، والنبي ﷺ يقول: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الكذب ولو كان مازحًا**».

«**وزعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حُسـن خُلقه**» فحُسـن الخُلق مع الإيمان يقرّبك – يـا عبد الله – من درجة الأنبيـاء والأولياء التي هي أعلى الجنة، وهذا دليل على شرف حُسن الخُلق.

وقـال النبـي ﷺ حديثًـا عجيبًـا، فيـه حـثٌّ علـى الخيـر، وتسـليةٌ للنفـوس؛ قـال ﷺ: «**أربـعٌ إذا كنّ فيك فلا عليـك ما فاتك من الدنيا: صـدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحُسن الخُلق، وعِفَّةُ مَطعَم**» رواه الحاكم، والطبراني، وصححه الألباني[(١)].

«**أربعٌ إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا**»: أنت فقير؟ فاتتك الدنيا؟ ليس عندك ما عند الناس من رفاهية؟ إذا كان عندك هذه الأربع فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا، فأنت الغني حقّاً.

---

(١) «المستدرك» للحاكم (٤/ ٣١٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني، (١٣/ ٣٢٢)، رقم: (١٤١٢٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧٣٣).

ما هذه الأربع العظيمة التي تساوي الدنيا؟

«**صدق الحديث**»: أن يحرص الإنسان على أن يكون صادقًا دائمًا.

«**حفظ الأمانة**»: بأنواعها: أمانة الدين التي هي أمانة عند الإنسان، وأمانة ودائع الناس، وغير ذلك.

«**وحُسن الخُلق، وعفّةُ المَطعَم**»: أن تحرص أن يَكون مَطعمَك حلالًا.

إذا تحقّقت فيك هذه الأربع فوالله أنت الغني، فإنّ هذه الأربع تساوي الدنيا بشهادة رسول الله ﷺ، أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، ومَا أعظم هذا الحديث!

أيضًا يقول النبي ﷺ لـمّا سُئل عن خير ما أُعطِيَ الرجل، قال: «**خُلقٌ حَسن**». رواه الحاكم، وابن حبان، وابن ماجه، وصححه ابن عبد البر، وابن مفلح، والألباني(١).

وقال النبي ﷺ ناصحًا بأمرين يقلّ الالتزام بهما في كثير من الناس؛ قال ﷺ: «**عليكَ بحُسن الخُلق وطول الصمت**» يعني الزم حُسن الخُلق وطول الصمت.

قال بعض أهل العلم: (من أحسن أخلاق الرجال أن يكون الرجل صموتًا حتى يشتاق صاحبه إلى كلامه)، بعض الناس إذا جلس معك تتمنى متى يسكت،

(١) «السنن» لابن ماجه، أبواب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم: (٣٤٣٦)، و«صحيح ابن حبان» بترتيب ابن بلبان، باب: ذكر البيان بأن حسن الخلق من أفضل ما أعطي المرء في الدنيا: (٢/ ٢٦٦) رقم: (٤٧٨)، و«المستدرك» للحاكم، (١/ ٢٠٩)، وانظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٥/ ٢٨١) و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ١٩٧)، و «السلسلة الصحيحة» للألباني، رقم: (٤٣٢).

وبعض الرجال إذا جلس معك تتمنى متى يتكلم، فالنبي ﷺ يقول: «**عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عَمِلَ الخلائق بمثلهما**» رواه أبو يعلى، والطبراني، والبزّار، وحسّنه الألباني[(١)].

والمقصود بقول النبي ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما**»: أنّ العمل بهما صعب؛ لأنّ الإنسان يحب الكلام؛ فيصعب عليه أن يطيل الصمت، ولأنّ حُسن الخُلق يحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وقلَّ من يصبر عليه.

والخلق المحمود هو ما يحرص فيه الإنسان أن يكون عليه في مختلف أحواله، وأكثر ما يتبيّن حُسن الخُلق إذا ذهبتِ المصانَعة، الإنسانُ قد يُصَانع الغرباءَ فيُحسِّن خُلقه، لكن إذا ذهبت المصانعة، يَنكشف الأمر، يظهر ذلك في السفر؛ فإنّ السفر تَقِلُّ فيه المصانَعة وتَغلب فيه المشقة؛ فينكشف من بكى ممن تباكى، يظهر ذلك مع الأهل في البيت فينكشف من ظهر حسن خلقه حقيقة ممن لَمْ يكن ذلك له بصفة.

وكما قلتُ ذلك سابقًا ومرارًا؛ إنّ بعضنا قد يُحسِّن خُلقه إذا كان في خارج البيت؛ بل حتى لو أخطأ عليه أحد تجده يبتسم ويقول: (جزاك الله خيرًا، عفا الله عني وعنك)، فإذا دخل البيت غيّر هذا تمامًا، وأصبح سبّابًا، لعّاناً، شتّامًا، ضرّابًا، يغضب لأدنى سبب، ويضرب عند أدنى سبب، لا يقف عند حدّ، وهذا في الحقيقة ينبغي أن يراجع نفسه، فإنّ حُسن الخُلق هو الَّذي يتّصف به الإنسان على كل أحواله.

---

(١) «المسند» لأبي يعلى (٢/ ٨٣٤)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٧/ ١٤٠) رقم: (٧١٠٣)، و«البحر الزخار» للبزار، (١٣/ ٣٥٩)، رقم: (٧٠٠١)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٩٣٨).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض، وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب)** .

جاء في حديث مرويٍّ أنّ النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ أن تَصِلَ من قطعك، وتُعطيَ من حرمك، وتَعفوَ عمن ظلمك**» رواه الإمام أحمد، والحاكم، وعبد الرزاق، لكن في إسناده ضعف[1].

وذكرتُ هذا الحديث؛ لأنه يظهر لي - والله أعلم - أنه مستنَد قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه ذكر ما فيه.

وقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجماع الخُلق الحَسن أن تصل من قطعك)**: صلة الناس من أعظم الأخلاق وأحسنها، ورأسها وأكرمها: صلة الوالدين، أن يصل الإنسان والديه بما يستطيع من أنواع الصلة، ثم صلة الرحم الأقرب فالأقرب، ثم صلة أهل العلم، وصلة الجيران، وأعظم الصلة أن يصل العبد من قطعه، قال النبي ﷺ: «**ليس الواصِل بالمكافئ؛ ولكنّ الواصل الذي إذا قطعتْ رحمه وصلها**» رواه البخاري[2].

ليس الواصِل بالمكافئ الذي إن وصله الناس وصلهم؛ إن وصله عمُّه وصله، وإن قطعه قطعه؛ هذا ليس الواصل على وجه الحقيقة، وإنما الواصل على وجه الحقيقة الذي إذا قَطِعتْ رَحِمُه وَصَل، وإذا أدبر الناس عنه أقبل، ويكون بادئًا حريصًا على الصلة، فهذا هو صاحب الخلق.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد (٢٨/ ٦٥٤) رقم: (١٧٤٥٢) و«المستدرك» للحاكم (٤/ ١٧٨)، و«المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ١٧٢) رقم: (٢٠٢٣٧)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» رقم: (٦٦٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ، رقم: (٥٩٩١).

قال بعض العلماء: (الناس في الصلة ثلاثة: واصِلٌ، ومكافئ، وقاطِع)؛ فالواصل: من يَتفضّل ولا يُتفضَّل عليه؛ أي: هو السّبّاق، سواء مع الواصلين من رَحِمِه أو القاطِعين؛ يسبق إليهم ويَصِلُهم، وهذا معنى قولهم: (من يتفضَّل) أي: بالصلة، (ولا يُتفضَّل عليه) أي: لا يُسبَق بها.

والمكافئ: الذي لا يزيد على الإعطاء على ما أَخَذ؛ فعلى سبيل المثال: لو زارني ابن عمي مرة في الشهر، أزوره مرة في الشهر، لَمْ يزرني لا أزوره، هذا مكافئ؛ هذه بتلك.

والقاطِع: الذي يُتفضَّل عليه ولا يَتفضَّل، قد يصله أقاربه، لكنه لِكبْرٍ أو غير ذلك يَهجرهم، ولا يصل رَحِمَه، قد يكون له مقام علميٌّ أو دنيويٌّ، فيتكبَّر على أقاربه، ويرى أنهم ليسوا أهلًا أن يزورهم ويزورونه، فيقطع أقاربه! وهذه - كما يقولون - آفة العصر.

اليوم قد يَجتمع طلاب علم في عمارة واحدة، لا يزور الواحد منهم الآخر، طلاب علم لا أقول العامّة، طلاب علم يَجتمعون في عمارة واحدة، وقد يكونون في غربة، كل واحد يحتاج الآخر، وقد يكون هذا جاء بأهله وليس لهم أقارب في المدينة، وهذا جاء بأهله ليس لهم أقارب في المدينة، لا يزور الواحد منهم الآخر!

الآن يسكن الناس في عمارة واحدة، يسكنون سنة وسنتين وثلاثاً وأربعاً، لا يَعرف الواحد منهم اسم جاره، لا أقول لا يزوره، بل لا يَعرف اسمه! تأتي إلى عمارة تقول: فلان هنا؟ يقول: ما أدري والله، وهو في نفس العمارة! أين الأخلاق؟ أين حُسن الخُلق؟ أين الصلة التي هي من أعظم أنواع حُسن الخُلق؟

والأصل في الإنسان الوصل؛ إلا أنه قد تتقدّم أسباب للقطع، فهذه الأسباب يجب أن ننظر فيها؛ لأنّ بعض الناس يَتحجّج يقول: أنا ما قطعتُ من تلقاء نفسي؛ بل هناك أسباب، ولكن ما هي هذه الأسباب؟

إما أن تكون : **دينية، أو دنيوية:**

إن كانت الأسباب دنيوية فلا تخلو من حالين:

الحال الأولى: أن تكون صادرة ممن تقطع، مثلاً سبّكَ، أو آذاك، في هذه الحال جعل الله لك فرصةً ثلاثة أيام، والمحسِن من تركها، «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيُعرِض هذا، ويُعرِض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[(١)]، جعل الله لك ثلاثة أيام من أجل أن يَندفع ما في نفسك، ولا خير فيمن لَمْ يندفع ما في نفسه بعد ثلاثة أيام، لأنّ النبي ﷺ جعل الخيرية فيمن يبدأ بالسلام.

والحال الثانية: إن كان السبب صادرًا من غير من تقطع؛ كأن تكون أنت على منصب أو غير ذلك؛ فليس لك الحق في أن تقطع من يوصَل قطعًا مقصودًا.

وإن كانت الأسباب دينية؛ يعني: يقوم في الإنسان سبب ديني شرعي يقتضي منك أن تقطعه.

تأتي هنا مسألة الهجر، ومسألة الهجر مسألة شرعية شريفة؛ ينبغي أن توضَع في موطنها، والأصل في المسلم أن يُبادِرَ إلى الإصلاح والنصح قبل أن يَهجُر.

فإنّا نجد اليوم بعض طلاب العلم، يهجر أخًا له، وهذا الأخ لا يدري لِمَ هجره! ربما لو عرف وتبيّن له الحق لترَك، وهذا من حيث الأصل غلط، المسلم يبدأ بالبيان، والنصح والإصلاح، فإن لَمْ ينفع هذا فإنه تأتي مشروعية الهجر.

ولا حدّ للهجر بسبب الأمر الديني، لا ثلاثة أيام ولا غيرها، بل يهجر مادام السبب الشرعيُّ قائمًا، ولهذا أصولٌ عند أهل العلم لا أحبّ أن نطيل فيها.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»كتاب: الأدب، باب الهجرة، رقم: (٦٠٧٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة، رقم: (٢٥٦٠).

وكلامنا عن ذمّ القطع إنما هو في ذمّ القطع المقصود، يعني: أن تقطع قاصدًا القطع، أمّا إن لَمْ تقصد هذا، لكنك لَمْ تلتقِ بالمسلم شهرًا، هذا ليس بمذموم، وإنما المذموم هو القطع المقصود على ما فصّلناه.

ومن حُسن الخُلق: بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى.

فتبسط وجهك للمؤمنين، وتتصدّق بالبسمة؛ «**فتبسُّمك في وجه أخيك صدقة**»[(١)]، وأن تكفّ الأذى عن المؤمنين، وأن تبذل لهم الخير.

ولـمّا سُئل الإمام أحمد عن حسن الخلق؟ قال: (لا تغضب ولا تحقد)، جمرتان في القلب تحرقان الخير الذي في الإنسان، وتعميانه: الحقد، والغضب؛ من غَضِبَ أعماه الغضب عن الخير، ومن حَقَدَ على مسلمٍ فإنّ هذا يقوده إلى التسبُّب له في الشر، ولذلك لـمّا سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن حسن الخلق قال هاتين الجملتين: (لا تغضب ولا تحقد).

وهذا مع سهولة نطقه يصعب فعله، ولذلك قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصُّرَعَة؛ وإنما الشديد الذي يُمسِك نفسه عند الغضب**»[(٢)].

هذا الذي يظهر فيه أنه شديد قوي لأنه يُمسِك نفسه عند الغضب، والإنسان إذا غضب أوّل ما يسيء يسيء لنفسه؛ فإنه قد يقول ما يستحي منه غدًا، وقد يَبدر منه أقوالٌ وأفعالٌ لو عُرِضَت عليه بعد ساعة لذاب خجلًا، ثم يسيء إلى غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في صنائع المعروف، رقم: (١٩٥٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: الحذر من الغضب، رقم: (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٦٠٩).

وقد قال بعض العلماء: (جِماع حُسن الخُلق: أن يكون الإنسانُ كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفُضول، بَرّاً وَصولاً، وقُورًا صبورًا، راضيًا شكورًا، حليمًا رفيقًا، عفيفًا شفيقًا، لا لعّاناً ولا سبّاباً، ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا، ولا بخيلًا ولا حسودًا، باشّاً هاشّاً، يحب في الله، ويرضى في الله، ويُبغض في الله). وهذا الكلام مأخوذ من صفات الرسول ﷺ، فلو تأملته لوجدتَه خلاصة ما نُقِل من صفات النبي ﷺ الخُلقية.

وقال بعض السلف: (حُسن الخُلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال)، ويُنسَب هذا إلى الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال بعض السلف: (البشاشة لأهلها مَصيدَة المودّة)، فالإنسان إذا كان بشوشًا، ينجذب إليه الناس ويحبه الناس.

وقال بعض السلف: (البرُّ شيءٌ هيِّن؛ وجه طليقٌ، وكلامٌ ليِّن)، وهذا من جوامع حُسن الخُلق.

ومن مجامع حُسن الخُلق، ومن الصفات الزكية العلية في المؤمن: الحرص على نفع المسلمين؛ فإنّ هذا من رؤوس حسن الخلق.

ورأس النفع: الحرص على نفع المؤمنين بالعلم بالسنة، ونشر التوحيد، فإنّ هذا من أعظم النفع.

وكذلك الحرص على نفع الناس في دنياهم، وقد قال النبي ﷺ: «**أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ: **سرور تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع**

أخ في حاجة أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني: مسجد المدينة - **شهرًا، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يُمضيَه أمضاه؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له؛ أثْبَتَ الله قدمه يوم تزول الأقدام، وإنّ سوء الخُلق يُفسِد العمل كما يُفسِد الخلّ العسل»** رواه الطبراني، وحسّنه الألباني[1].

انظر إلى هذه المجامع، يقول النبي ﷺ: «**أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى: سرور تُدخله على مسلم**» وهذا من حُسن الخُلق، لا سيما إذا وُجدَت الحاجة، إذا رأيتَه مهمومًا، أو علمتَ أنّ شيئًا نزل به؛ فذهبت زائرًا له قاصدًا أن تُحدّثه حتى تُدخل السرور إلى قلبه؛ فأنت في عبادة عظيمة، من أحب الأعمال إلى الله ولو كان حديثك في الدنيا، لو ذهبتَ إليه تحدّثه لتُدخِل السرور على قلبه وحدثتَه في أمور الدنيا في بلاد رأيتها، في أمور وعجائب رأيتَها، وأمور تُدخل السلوة والسرور على قلبه؛ فأنت في عمل من أحبّ الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى.

ويقول ﷺ: «**أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا**» إذا رأيتَ مسلمًا جائعًا، فتقرّبت إلى الله بأن تُشبِعَه، فقد عملتَ عملًا من أحب الأعمال إلى الله، فما بالك إذا كان هذا الرجل جارًا لك عنده صبيةٌ جياعًا؟

فتفقُّد الإخوة والجيران من غير كسرٍ لقلوبهم أمر طيب، والله فوجئتُ أنّ أحد طلابنا، ومعه أسرته عنده ثلاجة في بيته ليس لها باب، لا يستطيع أن يشتري ثلاجة من قلة ذات اليد.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني، (١٢/٣٤٦)، رقم: (١٣٦٤٦)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٠٦).

الواحد منّا قد يعرف أنّ جاره – مثلًا – يستلم مكافأة من الجامعة ووقع له حادث سيارة، فأصلح سيارته، يغلب على ظنه أنه وضع أكثر ماله في هذا الإصلاح، وأنه يبقى فترة ربما على القليل من المال، وربما يأكل وجبة في اليوم، فإذا علِمَ هذا وقام وأعدّ طعامًا في بيته وأدخله على أخيه، انظروا أولًا إلى عِظم أثر هذا في قلب الأخ، ثم هو من أحبِّ الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى.

لو أنّ كل واحد منا تفقّد إخوانه وجيرانه ومن حوله، وحاول أن يطرد عنهم الجوع وأن يشاركهم في بعض ماله ولو القليل منه؛ والله إنها من أحب الأعمال إلى الله، ومن أعظم القربات عند الله سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: «**ولأن أمشيَ مع أخٍ في حاجة، أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد** يعني: – مسجد المدينة – **شهرًا**» لاحظوا إذا اعتكف في المسجد النبوي شهرًا ماذا سيفعل؟ سيصلي الصلوات الخمس لمدة شهر في المسجد النبوي؛ وهي خير من ألف صلاة، ويَتقرّب إلى الله بسائر العبادات بالإضافة إلى عبادة الاعتكاف! والنبي ﷺ يقول: «**ولأن أمشيَ مع أخٍ في حاجة أحبّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد** – يعني: مسجد المدينة – **شهراً**».

«**ومن كفّ غضبه**» يعني لَمْ يجعل غضبه متعدّيًا للناس، بل كتمه: «**ستر الله عورته**».

«**ومن كظم غيظه، لو شاء أن يُمضيَه لأمضاه؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة**» فيكون مؤمَّنًا راضيًا عند لقاء الله سبحانه وتعالى.

«**ومن مشى مع أخيه في حاجته حتى تتهيأ له؛ أثْبتَ الله قدمه يوم تزول الأقدام**» على الصراط؛ يثبّت الله قدمه على الصراط.

«**وإنّ سـوء الخُلق لـيُفسـد العمل**» سـوء الخلق يُفسـد على الإنسان كل شيء؛ يُفسِـد عليـه من حوله، ويُفسِـد عليه عمله، النبـي ﷺ يقول: «**وإنّ سـوء الخلق ليُفسِـد العمل كما يُفسِـد الخلّ العسـل**»: فهذا أمر عظيم، ينبغي علينا جميعًا أن نحرص عليه.

وقولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أن تَصِـلَ مـن قطعك؛ بأنـواع الصِّـلاتِ؛ بالسـلام، والإكرام، والدعـاء لـه**): سـبحان الله! يقطعنـي وأدعـو لـه؟ نعـم هـذا حُسـن الخُلـق، (**والاستغفار والثناء عليه**) ما أصعبها! إنسان يقطعك، ويُظهِر قطيعتك، ومع ذلك إذا جلسـتَ فـي مجلـس و إن أراد أحدٌ أن يتكلم فيه قلتَ: اتـقِ الله هذا ليس فيه، فليـس الخلق أنه إذا بَدَأَ إنسـان يتكلم فيه، قلتَ: نعم، يظهـر هذا، كأنك تقول: زد زد، بل يزيد صاحب حُسن الخُلق أن يُثني عليه.

رأيـتُ من أحد مشـايخنا موقفًـا عجيبًا؛ جاءه رجل فقـال: إنّ فلانًا يقول: إنك لسـتَ بقويٍّ في علم الحديث، شـخص من طلاب العلم من أهل العلم يُنقَل عنه هذا الكلام، فقال: غفر الله له إنه أقوى مني في هذا الباب، وأنا لسـتُ ضعيفًا في علـم الحديث فقط بل في بقية العلـوم، فما أحوجني إلى أن أزيد! فدُهِشَ الرَّجل، ما اسـتطاع أن يقول شـيئًا، كان يظن أنه سيفتح سـيرة - كما يقولون -، فذكر ذاك بمـا فيه - وهو قـوي في علم الحديث - قال: إنه أقوى منـي في علم الحديث، وأنا -زاد- لسـتُ ضعيفًا فـي علم الحديث فقط بل في بقية العلـوم وما أحوجني إلى الزيادة.

والعالـم هو الذي يرى أنه بحاجة إلى زيادة علـم، يقول العلماء: (العالم حقّاً: كلّما زاد علمًا كُلَّما أدرك جهله، والمسكين كلّما علم شيئًا انتفخ كأنه شيخ الإسلام) إن تعلّم حرفًا أو كلمتين أو نحو ذلك رأى نفسـه لا يدانيه أحد، هذا لا يكون عالمًا أبدًا؛ وإنما يكون مغرورًا، ويقع في السوء الكثير.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وتعطي من حرمـك من التعليم والمنفعة والمال وغير ذلك، وتعفو عمـن ظلمك في دم أو مال أو عرض**) وأعظم من العفو: أن تؤمِّنه؛ مع عفوك عنه تُشـعره بالأمان؛ وهذا كظم الغيظ، وأعظم من هذا: أن تُحسِن له، تعفو عنه وتؤمّنه وتحسن إليه.

ذُكِرَ أنّ بعض السـلف اغتابه رجل فبلغه ذلك، فأرسـل إليه غلامه بطبق فاكهة نادرٍ في ذلك الوقت، وكتب له رسالة: (يا أُخيّ، قد بلغني أنك قلت فيّ كذا وكذا، ويعلـم اللـه أنـه ليس فيّ عفا اللـه عنك، وغفر لـك زلتك، واعلـم أن مكانك في قلبي اليوم أعظم من مكانك بالأمس)! من يستطيعها؟ سلفنا الصالح ضربوا أروع الأمثلة في حُسن الخُلق.

الإمـام أحمـد في فتنة القول بخلق القرآن لـمّا ثَبَتَ وكاد أن يكون وحيدًا على القـول بأنّ القـرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بمخلوق، آذاه الخلفـاء، وضربوه، وجلدوه، فكان يُجلَد حتى يَتقرّح جلده، ثم يُحشـى جلده بالملح، ويُسـحَب سـحبًا من أجل أن تنفك مفاصله، ويأتيه الخليفة في الليل ويضع الكرسي ويجلس، والإمام أحمد يئـن مـن ألمه، يقـول: (يا أحمد قل لـي كلمة واحـدة أفكّ قيدك بنفسـي)، فيقول: (لا؛ حتـى تأتينـي بآية من كتاب اللـه)، فإذا أصبح جاؤوا بالجلادين ،وقال: (شُـدَّ عليـه، قطـع الله يدك)، حتى فرّج اللـه عن الإمام أحمد، فلمّا مـات الخليفة أحلّه الإمـام أحمـد، فقالـوا له في ذلـك؛ يعني هذا ابتـلاك في الدين وأنـت على الحق وضربـك وفعل بك ما فعـل، الإمام أحمد بقي يتألم من مفاصل يديه إلى أن مات بسبب ما فُعِل به، ولـمّا مات الخليفة أحلَّه، فقيل له في ذلك، فقال كلمة عجيبة؛ قال: (ومَا ينفعك أن يعذِّب الله أخاك المسلم بسببك؟)، انظروا القلوب، هؤلاء قوم زكـت قلوبهم، يقول في هذا الـذي عذَّبه وضربه وفعل به؛ يقول: (ومَا ينفعك أن يعذِّب الله أخاك المسلم بسببك)؟!

شـيخ الإسـلام ابن تيمية الذي نقرأ الآن في كتابه ابتلي في دين الله، لأنه كان يُظهِـر السـنة، ويقول بما دلّ عليه الدليل، اجتمع عليـه بعض العلماء، وقضى عليه أحد القضاة المالكية بالسَّجن في القلعة، فسُجن في القلعة، فشاء الله أن يتغيَّر أمرُ الحاكم؛ فأخرج شـيخ الإسـلام ابن تيمية، واستشاره في القاضي الذي حَكَمَ عليه أن يَحبسَـه؟ قال: (فأشـرتُ بعدم حبسه، ونَصحتُ بتثبيته في مَقَامه)، لأنه هو من حيث العلم بالقضاء والمذهب الذي يَحكم به هو عالم، فشـيخ الإسلام يُخرَج من سـجنه ويُستشـار في القاضي،الذي قضى عليه بالسجن، وهو يعلم أنه حكم عليه ظلمًا، فيستشـيره في أن يُسجَن؟ فيُشير بعدم سجنه، بل ويقول: (وشفعتُ في أن يُثبَّتَ في مقامه)، وهذه أخلاق سلفنا التي ينبغي أن نتعلّم منها.

اليـوم الواحـد من طـلاب العـلم يخطئ عليـه أخوه خطأ فيـقيم عليه الدنيا! فينبغـي علينـا أن ننظـر في منزلتنا من حُسـن الخُلـق، أين نحن من حُسـن الخُلق؟ ليس حُسـن الخُـلق كلمة تقال، وإنما حُسـن الخُلق أفعال يتبيَّن بها الفضـلاء، سواء مـن الرجـال أو النسـاء، وكما قدّمتُ في أوّل كلامي، أنّ حُسـن الخُلق يُختـبَر به النـاس، فاختـبِر نفسك بحُسن الخُلق، ما هـي مواقفك في حُسـن الخُلق؟ وعالج نفسك.

يقول بعض الناس: إنه لا يسـتطيع أن يكون حَسَـنَ الأخـلاق لأنّ طبيعته كذا! وهـذا خطأ، فإنّ حُ سـن الخُلق قد يكون جِبِلَّة، كما في أشـجّ عبـد القيس(١)؛ فإنّ الحِلم والأناة جبلّة جَبَلَه الله عليها ومُدِحَ عليها.

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان، رقم: (١٧).

وقد يُكتَسب؛ «**إنما الحلم بالتحلُّم**»[(١)]، فالإنسان يستطيع اكتساب هذا. ولو لَمْ يكن حُسن الخُلق يُكتَسب لما رُتِّبَ عليه هذا الأجر العظيم، فهذا دليلٌ على أنه يُكتَسب، ولكنّ الإنسان بحاجة إلى أن يُجاهد نفسه في هذا الباب.

من الأشياء التي مرّت بي في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أنه كان له عدّو من أهل العلم - ينتسب إلى أهل العلم - يعاديه ويؤذيه ويتكلّم فيه، ففي يوم كان جالسًا مع أصحابه، فجاءه أحد طلابه فقال: مات فلان! يظن أنه يُبشِّره، وأنه يفرح بهذا، فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اغفر له)، ثم قام من فوره وذهب إلى أهله وعزّاهم فيه، وقال لهم: (أنا لكم مكانه)؛ يعني: أقوم بحاجتكم وأعينكم، وهذه أخلاق العلماء، وأخلاق الفضلاء، فما أجمل أن يكون الإنسان حَسَنَ الخُلق مع الناس.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً ﷺ، فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقًا، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن؛ كما قالت عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **(كان خُلقه القرآن)**[(٢)]**، وحقيقته: المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفسٍ وانشراح صدر).**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا ﷺ)** في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قال الخُلق العظيم: **(الدِّين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقًا).**

---

(١) أخرجه الخطيب البغداد في «تاريخه» (٦/ ٤٤٢) ترجمة: (٢٩٤٤)، وحسّنَه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٤٢).

(٢) سيأتي تخريجه في الصفحة التالية.

الخلـق العظيـم: أن توحّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقـوم بحقّه؛ بأن تعبده - سـبحانه - بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

قال الطبري: (معنى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾: أي: على أدبٍ عظيم؛ وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به؛ وهو الإسـلام وشـرائعه)، ونُقل عن ابن عباس ومجاهد وقتـادة: أنّ الخلق العظيم: (الدِّين العظيم)، ولذلـك قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الدِّين كلُّه خُلُقٌ)، وهذا معنى الخلق بالمعنى العام، الخلق بالمعنى العام: هو كل ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهـو تأويـل القرآن كمـا قالت عائشـة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا**)**: يعني هـو العمل بالقـرآن؛ لأنّ تأويـل القرآن يُطلَق ويراد به العمل بالقرآن، كما قالت عائشـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كان يتأوّل القرآن)[١]؛ أي يعمل بما أُمِرَ به من تسبيح ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد سأل سعد بن هشام أُمّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قال: (يا أمّ المؤمنين، أنبئيني عن خُلق رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: أَلسـتَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فـإنّ خُلق نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن)، رواه مسلم في «الصحيح»[٢].

فخلق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القرآن، وهذا معنى الخلق بمعناه العام، الذي يشمل كل ما جاء في الكتاب والسنة.

وبهذا نكون قد انتهينا من شرح كونِ حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصية جامعة.

ثم سـيبدأ شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان كـونِ حديث معاذ تفسـيرًا لوصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الآذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود، رقم: (٨١٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٤٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٤٦).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأمّا بيان أنّ هذا كلّه في وصية الله؛ فهو أنّ اسم تقوى الله يجمع فعْل كلّ ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، ومَا نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا، وهذا يَجمع حقوق الله وحقوق العباد).**

تقدَّم معنا أنّ وصية الله للأوّلين والآخرين - لكلّ من أوتيَ كتابًا - هي وصيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتقواه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ولذلك ذكر أهل العلم أنّ الوصية بتقوى الله، مما اتّفقت عليه الرسل.

فهنا يريد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن يُبيِّن أنّ وصية الرسول ﷺ لمعاذ فسَّرت وصية ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا بتقواه؛ **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أمّا بيان أنّ هذا كله في وصية الله)**؛ أي: أنه تفسير لوصية الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فهو أنّ اسم تقوى الله يجمع فعل كلّ ما أمر الله به إيجابًا واستحبابًا، ومَا نهى عنه تحريمًا وتنزيهًا)**، هذا حقيقة التقوى، المؤمن إذا سمع شأن الوصية بالتقوى، وعلم أنّ الله وصّى بها الأوّلين والآخرين، وأنها وصية أنبياء الله وأنها وصية رسول الله ﷺ ،لـمّا قال له الصحابة: كأنها موعظة مودّع فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله**»(١)، وعلِمَ أنّ هذه التقوى التي هي قليلةُ المبنى، عظيمة المعنى حَوَت تحت رايتها كل خير في الدنيا والآخرة، فما من خير للإنسان في الدنيا والآخرة إلا وسببه تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا علِمَ المؤمن هذا وتفكَّر وتدبّر في ثمار التقوى، واشتاق قلبه إلى أن يكون من المتّقين؛ فإنه ينبغي أن يعلم حقيقة التقوى.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، رقم: (٤٦٠٧)، والترمذي في «الجامع» أبواب: العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في «السنن» كتاب: الإيمان وفضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والعلم، باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم: (٤٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٧٣٦).

وحقيقة التقوى – كما قال العلماء – : (هي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله).

قولهم: (أن تعمل بطاعة الله): بالأوامر، (على نور من الله): بالدليل، ليس بالبدع المحدثات؛ وإنما بما دلّ عليه الدليل، فأنت وقَّافٌ عند (قال الله، قال رسوله ﷺ)، مُسَلِّم نفسك لِمَا ورد في الكتاب والسنة، (ترجو ثواب الله) هذا الإخلاص؛ أن يكون قصدك من فعل الأوامر أن تُرضيَ الله سُبحانه وتعالى فتحصل على ثوابه.

(وأن تترك معصية الله): فتجتنب ما نهى الله عنه، أيضًا (على نور من الله)؛ على وِفْق الدليل، ليس من باب التنطّع، ولا من باب التشدّد ، ولا من باب تحريم ما أحلَّ الله ؛ وإنما على وِفْقِ الدليل؛ (تخاف عقاب الله): وهذا الإخلاص؛ فأنت عندما تترك ما نهى الله عنه فإنما تتركه لأنك تريد أن يرضى الله عنك بترك المنهيات، فأنت تخاف عقاب الله إن فعلتَ ما نهى الله عنه، ونعني بما نهى الله عنه هنا: المحرمات، وأما المكروهات، فقد تقدّم معنا أنّ من تركها يفوته الثواب، أمَّا من فعلها فإنه لا يستحق بذلك العقاب، هذه حقيقة التقوى.

وقد قال بعض أهل العلم: (إنّ حقيقة التقوى: أن تعيش في الدنيا كأعمى يحتاج إلى قائد، وسائر في أرض شوك): فلا تتحرك إلا بأمر الله، تفعلُ إذا أُمرْتَ بالفعل، وتتركُ إذا أُمرتَ بالترك، وإذا أُبيحَ لك الأمر فعلتَ أحد الأمرين بالفعل أو الترك، فتكون كالأعمى يُقاد بـ(قال الله، قال رسوله ﷺ)، ويكون بصرك ما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ.

وأن تعيش في الدنيا كالذي يمشي في أرض ذات شوك؛ لا يَغفَل أبدًا، نظره دائمًا في موطئ قدمه، يخاف أن يؤذيَه الشوك، وكذلك أنت في الدنيا: في زمن فتنة في زمن الابتلاء؛ فينبغي أن تسير كمن يسير في أرض الشوك.

كما قال القائل: خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر مايرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

إياك – يا عبد الله – أن تقول: هذا ذنب صغير «**إياكم ومحقَّرات الذنوب**»(١)، لماذا؟ لأنّ محقَّرات الذنوب الصغيرة ،التي يراها الإنسان صغيرة ويحتقرها؛ يتساهل فيجمع الذنب على الذنب، حتى يَرينَ على قلبه.

إذا كنت تريد أن تكون متقيًا حق التقوى، فاترك الذنوب صغيرها وكبيرها، لماذا؟ لأنك لا تنظر إلى الذنب، ولكنك تنظر إلى من تعصي، وتعلم أنه يراك ويسمعك وهذه حقيقة التقوى .

وإذا نظرنا وجدنا أنها مفسَّرة في حديث معاذ؛ «**اتق الله حيثما كنت**»؛ يعني: افعل الأوامر، واجتنب النواهي، «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» إذا حصل منك زلل فامْحُه بالحسنة، «**وخالق الناس بخُلق حسن**» وهذا مما شرعه الله، فإنّ الله شرع لنا أن نخالق الناس بالأخلاق الحسنة –كما تقدّم معنا–، فهذه حقيقة التقوى.

ولذلك قال شيخ الإسلام : (**وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد**): هنا كأنّ سائلًا سأل شيخ الإسلام وقال: ما دمتَ تقول: إنّ حقوق العباد وحقوق الخلق موجودة في تقوى الله، فلماذا قال النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**(٢)»؟ لِمَ لَمْ يقتصر النبي ﷺ على قوله: «**اتق الله حيثما كنت**»؟ النبي ﷺ قد أوتيَ جوامع الكلم، فلماذا لَمْ يقتصر النبي ﷺ على قوله: «**اتق الله حيثما كنت**»؟ فأجاب بما تقدم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٧/ ٤٦٦) رقم: (٢٢٨٠٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣١٠٢).

(٢) تقدم تخريجه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لكن لمّا كان تارة يعني بالتقوى: خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم؛ جاء مفسَّرا في حديث معاذ وكذلك في حديث أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **الذي رواه الترمذي وصححه، قيل: يا رسول الله؛ ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله، وحسن الخلق»، قيل: ومَا أكثر ما يُدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرْج»[1]).**

التقوى إذا ذُكرَت مفرَدة، فهي تعني الدين كله، إذا أُمرْنا بالتقوى بمفردها، فهي تعني: الدين كلَّه، وإذا ذُكرَت مع غيرها من الأوامر، فهي تدلّ على الدين، ويكون ذِكْرُ غيرها من باب بيان الشرف والأهمية، وإفراد الشيء عن نوعه دليل على شرفه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، الروح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الملائكة ،لكن أُفرِد للتنويه بشرفه، وتارةً تُذكَر ويكون معها المنهيات ،أو يكون معها الأوامر؛ فيكون المقصود بالتقوى: اتِّقاء عذاب الله؛ فكأنّ المعنى: اتقوا عذاب الله فافعلوا هذا المذكور.

فيقول هنا رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لكن لمّا كان تارة يعني)**: يعني ربنا **(بالتقوى خشية العذاب المقتضية الانكفاف عن المحارم؛ جاء مفسَّرًا في حديث معاذ)**، فجاء الأمر بفعل الأوامر و اجتناب النواهي، وإصلاح الفاسد، ومخالقة الناس بخلق حسن؛ لدفع التوهُّم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك في حديث أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **الذي رواه الترمذي وصححه، قيل: يا رسول الله، ما أكثر ما يُدخِل الناس الجنة؟)** ومَا أعظمه من سُؤال! كلُّ مؤمنٍ يريد أن يدخل الجنة؛ فينبغي أن يسلك مسالكها، قال: «**تقوى الله وحُسن**

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٧٧).

الخُلق» فذكر تقوى الله وحُسن الخُلق، فهنا إمَّا أن يكون ذكْر حُسن الخُلق من باب ذكر بعض أفراد العام، فتقوى الله منها حُسن الخُلق، فيكون هذا للتنبيه على عِظَم شأن حُسن الخُلق، وإمّا أن يكون معنى تقوى الله: أن يتقي العبد عذاب الله بفعل ما أُمِرَ به ومنه حُسن الخُلق.

«قيل: ومَا أكثر ما يُدخِل الناس النار؟ قال: «**الأجوفان: الفم، والفرج**» قال الترمذي: صحيح غريب، وقال المنذري: إسناده صحيح أو حسن، وحسّنه إمام العصر في الحديث: الإمام الألباني، رحم الله الجميع.

ولخطورة الفم والفرج قال رسول الله ﷺ: «**مَن يَضمَن لي ما بين لَحيَيه ومَا بين رجليه؛ أضمن له الجنة**»(١).

«**من يضمن لي ما بين لحييه**»: وهو اللسان، «**ومَا بين رجليه؛ أضمن له الجنة**».

الشهوات من أعظم أسباب فتنة الإنسان في الدنيا إن لَمْ يُهذِّبها، الله خَلَقَ فينا الشهوة، فالشهوة مركَّبة فينا، ولم يُحرِّم علينا أن نصرف الشهوة؛ ولكن حرّم علينا الاعتداء فيها، فهذّب لنا شهواتنا، فجعل لنا طريقًا كريمًا فيها؛ وهو النكاح أو مُلْك اليمين إن وُجِدَ على الوجه الشرعيّ، فالذي يُهذِّب شهوته يعيش مباركًا، والذي يعتدي في شهوته يعيش مفتونًا، وأعظم الشهوة خطرًا على الرجل والمرأة معًا: شهوة اللسان، وشهوة الفرج.

أمّا شهوة اللسان فهي أخطر فتنة على الرّجل والمرأة لسهولتها؛ سهلٌ أنّ الإنسان يَلغ بلسانه في المحرمات؛ يكذب، يغتاب، ينم، فهي سهلة خفيفة؛ ولذلك فهي خطيرة، لا تحتاج إلى مؤونة.

وأخطر ما يكون على الرجل والمرأة شهوة الفرج من جهة عظم أثرها.

---

(١) أخرج البخاري في «الصحيح» كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم: (٦٤٧٤).

وقـد قال بعض العلماء حكمة: (لا يزال الإنسـان يسـتحي مـن الله حتى يزني – والعيـاذ باللـه –) يعنـي مهما وقع منه من المعاصي لا يزال فيه شـيء من الحياء؛ يسـتحي مـن الله، حتى يزني، فإذا زنى انكسـر الحيـاء في قلبه، فيتسـارَع إلى بقية الشهوات.

وهذا سـرُّ جَمْعِ حبيبنا ﷺ بين الأمرين: شهوة الفم وشهوة الفرج؛ لخطورتهما مـن هاتـين الجهتين، فـكلٌّ واحـدةٍ منهما أخطـر من جهـة، فالفم أخطـر من جهة السهولة، والفرج أخطر من جهة الأثر ومَا يترتّب على ذلك.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**وهل يَكُبُّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»! كما رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح(١).

فاللسـان لخفّته ولسـهولة الوقوع في المعصية به؛ يكون سـببًا فـي كَبِّ كثير من الناس في النار على وجوههم؛ لأنهم قد يتساهلون في هذا.

ولذلك يقول أهل العلم: (كلُّ معصية يتخبّأ بها الإنسان في الغالب، إلا معاصي اللسـان فإنها تكون أمام الناس)، يعني المعاصي في الغالب الإنسان يختبئ بها إلا معاصي اللسـان، فلابد أن تكون مع أحد، يأتي يغتاب ويكذب ما يهمه، ربما يأتي مجلساً فيه فضلاء، ويكذب مئات الكذبات أمام الفضلاء! ولذلك هو خطير على الإنسان.

ومراد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول: إنما ورد في حديث معاذ، إنما هو تفصيلٌ للفائدة؛ كما فصَّل النبي ﷺ في حديث أبي هريرة.

---

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم: (٢٦٢٦)، و «السنن» لابن ماجه، أبواب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم: (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٢٨٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وفي الصحيح**): هنا أنبه على فائدة لطلاب العلم، الصحيح في لسان العلماء إمّا أن يراد به ما في الصحيحين؛ البخاري ومسلم، أو في أحدهما، أو يراد به الحديث الصحيح، وليس خاصًا بالكتابَين، أنبه على هذا لأنّ بعض طلاب العلم لا يتنبّه لهذا فيحمل مصطلح المتقدِّمين على مصطلحنا اليوم، فبعض المحققين اليوم مثلا يأتي يحقق كتاباً فيجد أن الشيخ قال: (**وفي الصحيح**) فيقول: لَمْ أجده في الصحيح؛ يظن أنّ المقصود «صحيح البخاري» أو «صحيح مسلم»، أو يقول: وَهِمَ الشيخ هنا فالحديث ليس في الصحيح، أو يحاول أن يأتي بحديث آخر غير الذي ذكره الشيخ من الصحيح لعله قريب منه، وهذا خطأ في فَهْمِ مراد العلماء.

شيخ الإسلام هنا عندما يقول: (**وفي الصحيح**) يعني في الحديث الصحيح، ولا يعني البخاري ومسلماً.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال: قال رسول الله** ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»)، الحديث رواه الحاكم وصححه، وأبو داود وسكت عنه، والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية هنا، وصححه الألباني[1]، فالحديث صحيح.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم: (٤٦٨٢)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم: (١١٦٢)، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٣)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٨٤).

قال فيه النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»؛ وهذا يدل على أنّ الأعمال من الإيمان، سواء كانت قولية أم فعليّة، فإنّ حُسن الخُلق من الإيمان؛ وقد يكون قولًا وقد يكون فعلًا.

ويدل كذلك على أنّ الإيمان يزيد وينقص؛ لأنّ الذي يكمل ينقص، والنبي ﷺ قال «**أكمل المؤمنين إيمانًا**».

وهذا يردّ على طائفتين؛ كلاهما تزعم أنّ الإيمان واحدٌ لا يتجزّأ:

طائفة تقول: الإيمان واحد، إن ذهب بعضه ذهب كله، فإذا كذب الإنسان أو زنى خرج من الإيمان عندهم.

وطائفة قابلتهم فقالت: الإيمان واحد إن ثبتَ بعضه ثبت كلّه؛ وهؤلاء المرجئة، الذين يرون أنّ المؤمنين سواسية في الإيمان، ويؤخِّرون العمل عن الإيمان، ثم هم أصناف:

صنف لا يرى ارتباط العمل بالإيمان؛ وهؤلاء غلاة المرجئة.

وصنف يرى أنّ العمل مطلوب في الإيمان، وليس من الإيمان، (مطلوب في الإيمان) يعني بسبب الإيمان، وليس من الإيمان؛ وهذا صنيع مرجئة الفقهاء.

والذي عليه أهل السنة والجماعة ودلّت عليه الأدلّة، ومنه هذا الحديث: أنّ العمل من الإيمان، وأنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّ من ادّعى الإيمان، ولم يأتِ بعمل مع العلم والقدرة لا يكون مؤمنًا حقيقة في الشرع وعند أهل السنة والجماعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق**) يريد أنّ التقوى جامعة للدين؛ ويشمل ذلك حسن الخلق والتوبة، وهذا الذي ورد في حديث معاذ، وكله داخِل في وصية ربنا لنا بتقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتفصيل أصول التقوى و فروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله، لكنّ ينبوع الخير و أصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، [الفاتحة: ٥] وفي قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾،[هود: ٨٨]، وفي قوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].**

لسخاء ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العلم زاد بيانًا في هذا الكلام؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله)** ولا يمكن أن يُبيَّن الدين كله في هذا الموضع، **(لكنّ ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه)** فرأس التقوى هو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإخلاصه بالعبادة والاستعانة والتوكل.

والتوحيد هو أن تُخلص لله عَزَّ وَجَلَّ أفعالك فتجعلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأغلى وأحلى وأجلى ما عند المسلم توحيد رب العالمين، وأعلى ما افترضه الله على العبيد التوحيد، والتَّوحيد مفتاح الخير، ومن طلب الخير بغير مفتاح لَمْ يُفتَح له، لا يُفتح إلا لموحِّد، مفتاح الخير هو توحيد رب العالمين، التوحيد سابق الأعمال، وشرط قَبولها، وهو أهم المهمات، وأعلى الفرائض المتحتِّمات، ولا أمن حقيقيّ للإنسان إلا بالتوحيد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لَمْ يَخلطوا إيمانهم بشرك، لأنّ الشرك ظلم عظيم، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ حُصِرَ الأمن فيهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

التوحيد - يا عبد الله - هو الذي خُلِقتَ من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾،[الذاريات: ٥٦] التوحيد - يا عبد الله - هو الذي بُعثَت من أجله الرسل﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومَن علّق قلبه بالله اطمأنَّ، وعاش سعيدًا مباركًا.

ومن علّق قلبه بغير الله فُتِنَ، وعاش في ذِلَّة، والله الذي لا إله إلا هو ما فرَّط عبد في شيءٍ من التوحيد إلا فرَّط في شيءٍ من عزَّته، وكلما أوغَل كلّما ذلّ أكثر.

وقد رأينا بعض من ينتسبون إلى الإسلام في بعض بلدان المسلمين يُذِلُّون أنفسهم لعبادٍ هم دونهم حتى في الصلاح؛ بزعم أنهم أولياء الله، وولاية الله أصبحتْ وراثة؛ فتجدهم يقولون: هذا الشيخ ابن الشيخ ابن الشيخ، ولو لَمْ يَظهر عليه من الصلاح شيء.

والله رأينا بعض المسلمين يأتي لإنسان، - أقلُّ ما يقال: إنه ينبغي أن يُنصَح ليتديَّن -، فإذا دخل الغرفة على من يزعم أنه الشيخ أخذ يَحبو بيديه ورجليه حتى يصل إليه، ولا يُغطي رأسه أمامه أبدًا، رأينا رجالًا ونساءً إذا مرّوا بشخص يقولون عنه: إنه شيخ؛ يتساقطون على الأرض.

أَذكُرُ عندما كنتُ في الثانوي وكان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيع بجوار المسجد، في أيام الحج وأنا جالس، مرّت امرأة من دولة ما فمرّ الرجل، فبركتْ على رجلَيها، سقطتْ بقوة على الأرض، فتعجبتُ !قلت: سبحان الله ! ما السبب؟! فلمّا زرنا البلدان عرفنا السبب؛ هذا شيخ مرّ تركع له، وتَبرُك.

والله من أعجب ما رأيت - ولا زلت إلى اليوم أتعجّب منه -، رأيتُ رجلًا في غرفة يقولون: إنه ولي، ورأيتُ الرجال قد أحضروا نساءهم متجملات متعطرات، ويقفون بالطوابير، تدخل المرأة فقط عند الشيخ يُبرِّكها، الله أعلم ما هذا التبريك!

الإنسان إذا فرّط في التوحيد يُفَرّط في عِزَّته ، ويُفرِّط في كَرَامته، ويَذِلّ للناس.

ذُكِرَ لي أنّ شخصًا فرنسيًا كان من المشاهير، قرأ عن الإسلام وأسلم، وذهب إلى بعض دول أفريقيا، فوجد الناس هناك يعبدون المشايخ، ويتقرّبون لهم من دون الله، فقال: إنّ النصرانية أحسن من هذا؛ لأنّا هناك على الأقل نعبد رسولًا، وهؤلاء يعبدون أناساً حتى أن بعضهم لا يَستحقون الاحترام! فأراد أن يرتد عن الإسلام، فلقيَه رجل ناصح، فقال له: تريد الإسلام؟ قال: نعم، قال: اذهب إلى الحج، وبعد الحج قرِّر، فجاء إلى الحج، وسبحان الله! من الأشياء المَلحوظَة أنّ الناس في الحج تَلين قلوبهم ويَظهر عليهم التوحيد، حتى من كان عندهم انحراف في كثير من الأحوال يَظهر عليهم التوحيد، إلا من طُمِس على قلبه - والعياذ بالله -، فلمّا جاء ورأى الناس تلبّي وتوحِّد ورأى العبادة، ورأى العِزّة، قال: هذا الإسلام الذي قرأتُ عنه، وثبَّتَهُ الله بنصيحة ذاك الناصح بفضل الله سبحانه وتعالى.

ولذلك أغلى ما نتمسّك به التوحيد، وأعلى ما ندعو إليه التوحيد، لا أجد في ديننا أوضَح من التوحيد، لكنك تعجب أيَّما عجب من بعض عباد الله الذين يحبّون الله، ويحبّون رسول الله ﷺ ويَتركون قول الله، وقول رسول الله ﷺ إلى قول المشايخ!

إذا جئتَ لأحدهم قلت: يا أخي، لِمَ تفعل كذا؟ وربنا يقول كذا ، والرسول ﷺ يقول كذا! قال : الشيخ يقول، سبحان الله! نترك أوضَح ما قاله الله، وأوضَح ما قاله رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس؟!

الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه ورضي عن أئمة الإسلام يقول: (أجمع الناس على أنّ من استبانتْ له سنة رسول الله ﷺ لَمْ يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس كائنًا من كان)؛ فكيف والبيان في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ من أوضَح ما يكون؟!

مرة؛ لقِيتُ شخصًا في بلدٍ من بلدان المسلمين للأسف يَخطب الجمعة، وأحاديثُه التي يتكلّم فيها في الجمعة دعوة للشرك، ويستدل بأحاديث، فقلت له: يا أخي هذا الكلام الذي تقوله يناقض قول الله كذا، ويناقض قول الرسول ﷺ كذا، قال: سمعتَ الحديث الذي ذكرناه؟ قلت: هذا الحديث موضوع باتفاق المحدّثين، قال: ولو؛ يصلح لترقيق قلوب الناس، قلت: سبحان الله! تصرف الناس عن التوحيد إلى الشرك بحديث موضوع وتقول: ولو؛ يرقّق قلوب الناس؟!

لذلك أعلى ما ينبغي أن نهتم به إصلاح التوحيد، والله ما عاش شخصٌ مرتاح القلب مطمئن القلب سعيد الحال مرضيًا للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا بتحقيق تَّوحِيد رب العالمين.

ولذلك يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لكنّ ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه؛ عبادة واستعانة؛ كما في قوله** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، [الفاتحة: ٥]) يقول العلماء: (هذه الآية تدلّ دلالة بيِّنة على حصر العبادة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾).

وثمت سؤال هنا، لماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع أنّ الاستعانة من العبادة؟ قال العلماء: لأنّ أكثر خلل الناس في التوحيد يقع في باب الاستعانة والاستغاثة؛ فذُكِرَ هذا من باب التنبيه؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يقول العلماء: إذا كان الإنسان حريصًا على التوحيد في باب الاستعانة والدعاء سيكون حريصًا على التوحيد فيما سوى ذلك، لأن أعظم ما يُفتَن فيه الناس في باب التوحيد ما يتعلّق بالاستعانة ؛والدعاء، فينحرف بعض الناس في باب الاستعانة فيستعين بمن يقال إنهم أولياء، يستعين بالجن، يستعين بالكهنة، يستعين بالعرافين، وكذا في باب الدعاء، ولذا كان هذا التنبيه.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي قوله:** ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ [هود: ١٢٣]) هنا ذكر أهل العلـم مَلمَحًا عظيمًا؛ قالـوا: (إنّ تحقيق التوحيد إنما يحصـل بتعلّق القلب بالله)، فإذا علّق الإنسان قلبه بالله يحقق التوحيد ، والتوكل فيه تعليق القلب بالله، حتى إذا فعـل العبـد السـبب فإنه يعلّـق قلبه بالله ويتـوكل على الله؛ ولذلـك قال الله: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي قوله:** ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾،[هود: ٨٨])، قال العلماء: (من علّق قلبه بالله رَجَعَ إلى الله)، فأساس الخير أن يُعلّق العبد قلبه بربه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي قولـه:**﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾[العنكبوت:١٧])، كثير من الناس قد يطلب الرزق من غير الله، يسأل الصالحين الرزق، وبعض الناس يأتي عند قبر النبي ﷺ ويسأل النبي ﷺ الرزق ويُشرِك بالله، والعياذ بالله!

من أعجب ما رأيت في بلد من بلدان المسلمين، رأيتُ أناسًا يصلُّون ويحرصون على الصلاة، وقد امتلأ المسجد عندما صلينا، ولكن وجدنا في بيوت كثيرين منهم صنمًا من حجر يميل إلى الزرقة ؛ بزعمهم أنه يسبِّب كثرة الرزق، ويَتقرّبون إليه مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله!

وقصدي من هذا أن أنبّه إلى أنّ إفراد بعض الأشياء بالذِّكر إنما هو لبيان وجوب التوحيد فيها لأنها مَظِنَّة الخلل الكثير.

قال شـيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بحيث يقطع العبد تعلُّق قلبه من المخلوقين؛ انتفاعًا بهـم أو عمـلًا لأجلهم، ويجعل همّته ربه تعالى، وذلـك بملازمة الدعاء له في كل مطلـوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب)**، وسـيأتي – إن شاء الله – التعليق على موضوع الدعاء في مسألة أفضل الاعمال.

وهـذا هـو عـين مـا ورد في وصية النبـي ﷺ لابن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندما قال: «**يـا غلام، إنـي أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفـظ الله تجده تجاهك، إذا سـألتَ فاسـأل الله، وإذا استعنتَ فاسـتعن بالله، واعلم أنّ الأمَّة لو اجتمعتْ على أن ينفعـوكَ بشـيء لَـمْ ينفعوك إلا بشـيء قد كتبـه الله لك، ولو اجتمعـوا على أن يضـروك بشـيء لَمْ يضروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليك، رُفعَـت الأقلام وجفّت الصحـف**» رواه الترمـذي وقال: حديث حسـن صحيح، وصحـح جمْعٌ من أهل العلم إسناده[1].

النبـي ﷺ يقـول: «**يـا غـلام ،إنـي أعلّمـك كلمـات**»؛ أي: نافعـات «**احفـظ اللـه يحفظك**»: قال العلماء: حفظ الله يكون بحفظ دينه، احفظ دين الله يحفظك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

«**احفظ الله تجده تُجاهك**»: احفظ الله في الرخاء والشدة تجده تُجاهك، ولذلك ورد أنّ من يُرد أن يستجيب الله له في الشـدائد، فليُكثـر الدعاء في الرخاء، وقد ذكر بعض السـلف شـيئًا عظيمًا في هذا الباب، وسـأذكره - إن شـاء الله - عندما نأتي نتكلم عن الدعاء، ونذكر آداب الدعاء.

«**إذا سألتَ فاسأل الله**»: وهذا قَصْر «**وإذا استعنتَ فاستعن بالله**»؛ لماذا؟ «**واعلم أنّ الأمّـة**» كلهـا، ليس رجـلًا واحدًا ليس صالحًا واحدًا بل الأمّـة بنبيها وصالحِيها وبـكل أفرادهـا «**لو اجتمعـوا على أن ينفعوك بشـيء**» - «**بشـيء**» وهـذا يقتضي التقليـل - «**لَمْ ينفعوك إلا بشـيء قد كتبـه الله لك**»، ولو اجتمعـت الأمّة على أن يضروك بشـيء «**لَمْ يضروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليـك**»؛ إذا أيقنتَ بهذا كيف تعلّق قلبك بغير الله؟! الله إن أراد أن يَمسّـك بضر لن يكشـفه أحدٌ من دونه، وإن

(١) الجامع» للترمذي، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، رقم: (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة» رقم: (٣١٥).

أرادك بخير لـن يمنعه أحد من دونه، فكيف تعلّق قلبك بغير الله؟! كيف تتّجه إلى غير الله سبحانه وتعالى ؟!

فهـذا مراد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، لكن نشـير إلى جملـة قالها؛ قال شـيخ الإسلام رحمه الله: **(ومَن أحكَمَ هذا فلا يمكن أن يُوصَف ما يَعقبُه ذلك)**.

قولـه رحمه الله : **(ومـن أحكم هذا)** اسـم الإشـارة يعود إلـى ماذا؟ يعـود إلى: ما ورد في حديث معاذ رضي الله عنه وما فسَّـره به شـيخ الإسـلام؛ بناء على الأدلّة، أحكَمَه فعمِل به، فإنه لا يُدرِك أحدٌ ما يحصل له من الخير إلا الله، من الأمن، والسـعادة، والطمأنينـة، والحيـاة الطيبـة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعـام: ٨٢] فحصر الله الأمن فيهم، ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً﴾ [النحل: ٩٧].

ولذلك ورد في الحديث أنّ النبي ﷺ قال: «**من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له، ومن كانت الآخرة همّه، جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة**»[(١)].

من كانت الدنيا همّه وطُلبَتَه وعلّق قلبه بغير الله؛ فرّق الله عليه أمره فلا يطمئن قلبه، بل يكون مشتّت القلب، ومن شُتِّت قلبه كيف يسعد؟! والله لو كانت عنده الدنيا؛ إذا لَمْ يطمئن قلبه لن يكون في سعادة.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع، رقم: (٢٤٦٥)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: الزهد، باب: الهمِّ بالدنيا، رقم: (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٤٩).

«**وجعل فقره بين عينيه**» قال العلماء: فيُعذَّب بغناه؛ لأنّ الفقر بين العينين – نعوذ بالله –، فإذا نظر ماذا يرى؟ لا يرى إلا الفقر، فيرى نفسه فقيرًا ولو امتلأت الخزائن، فيسعى لجمع المال ويُشقي نفسه بجمع المال، ولا ينتفع به؛ لأنه يخاف عليه، وهو يرى الفقر بين عينيه، ومع كل هذا لم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له، واللهِ لا يزيد شيئًا ولا ينقص شيئًا، فإن الرزق مثل الأجل؛ مكتوب، ويُكتَب للإنسان وهو في بطن أمّه، يُكتَب له رزقه لا يزيد ولا ينقص.

يذكر العلماء أنّ رجلًا أراد أن يشرب من بئر فزلّت قدمه فوقع، فجاء أناس، فسمعوا أنينه فأخرجوه، وجاؤوه بشيء من لبن فشرِبه، فقال له أحد القوم: كيف وقعت؟ قال: وقفتُ هنا فوقع الرجل في البئر فمات.

بقي عليه من رزقه هذا اللبن، خرج ليشربه، وبقي له من أجله هذا المقدار، فسقط نفس السَّقْطة ومات، الرزق لا يستطيع أحد أن يُنقِصه، ولا يستطيع أحد أن يزيده، مهما كان ماهرًا، ولكن نفعل الأسباب الشرعية ولا نتعلَّق بها.

«**ومن كانت الآخرة همّه**»؛ أي: من علَّق قلبه بربه؛ جمع الله عليه أمره، فيكون قلبه مطمئنًا مجموعًا، لا يَضرِب في شِعاب الدنيا يمينًا ويسارًا، ولذلك يقول بعض الصالحين: (رُبَّ غنيّ لا يستطيع أن ينام، ورُبَّ فقيرٍ ينام قبل أن يصل إلى الفراش)، المسألة مسألة القلب.

«**وجُعل غناه في قلبه**»: فمهما رُزق، قال: الحمد لله عندي خير، إن جاءه ما يكفيه، قال: الحمد لله ما احتجتُ لأحد، إن جاءه زيادة قال: الحمد لله، ويحس أنه غني، ومع ذلك أتته الدنيا وهي راغمة، لا يُحرَم، الذي كتبه الله له سيأتيه.

والله الذي لا إله إلا هو لا يزيد الإنسان رزقه بمعصية، ولا يمنع رزقه بطاعة، الذي يؤذِّن المؤذِّن ويبقى في محله يبيع؛ والله لا يزداد رزقه، والذي إذا أذَّن المؤذِّن أغلق مكانه ومحله وذهب حيث ينادى بالصلاة والله لا يَنقص رزقه؛ بل يُحصِّل من البركة الشيء الكثير.

وهذا أمر ينبغي أن ندركه، وينبغي أن ننشره: الطاعة والعبادة على توحيد وإحسان، أساس كل خير، أساس السعادة، أساس الطمأنينة، أساس سعة الرزق، أساس البركة، وترك التوحيد أساس الشر، وينبوع الشر، وهذا أمر ينبغي أن نبيِّنه للناس.

بهذا يكون شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد انتهى من الأمر الأول؛ وهو الوصية بما يُصلح الدين والدنيا.

فما أجمل أن نجعل ذلك أمرنا الذي ننظر فيه دائمًا، ونَزِنُ أحوالنا به: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١)

ثم سيشرع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في الأمر الثاني، وهو أمر عظيم: أفضل الأعمال بعد الفرائض، كيف أعرف أفضل الأعمال بعد الفرائض؟ ومَا هي القواعد التي أميِّز بها الفاضل من المفضول؟ هذا ما سيشير إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

لكن قبل أن نتكلم عن هذا الأمر سأذكر عن بقية مكفرات الذنوب، لأني ذكرتُ سابقاً أنّ مكفرات الذنوب عشرة، وأنّ شيخ الإسلام ذكر منها أربعة، ولم أذكر الباقي في ذاك الموطِن؛ لأني لَمْ أحبّ أن أفصل كلام شيخ الإسلام في الأمر

(١) تقدم تخريجه.

الأول، فبعد أن فرغنا منه سأذكر بقية المكفرات الستة، وأنبّه على ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن حيالها، ثم نشرع في الأمر الثاني.

كما ذكرت سابقاً أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من العلماء قد ذكروا أنّ للذنوب مكفرات عشرة، فالعبد ما دام في الدنيا فهو خطّاء وعُرْضَة للوقوع في الذنوب.

ومن رحمة الله بهذه الأمّة التي رحمها بمحمد بن عبد الله ﷺ؛ أنه لا يؤاخذها بما حدَّثت به أنفسها مهما عظم؛ ما لَمْ تتكلم أو تفعل، يقول النبي ﷺ: «**إنّ الله تجاوز عن أمّتي ما حدّثتْ به أنفسها ما لَمْ تتكلم أو تعمل**». والحديث في «الصحيح»[1].

ومن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الأمّة؛ أنّ من همّ بسيئة فمال إليها ولم يَجزم جزمًا مؤكَّدًا، يتبعه عمل ثم لَمْ يعملها؛ خوفًا من الله؛ تُكتب له حسنة، فإن تركها لغير خوف الله، لا يُكتَب له ولا عليه.

ومن رحمة الله بهذه الأمّة؛ أنّ العبد إذا عمل الذنب إنما تُكتَب عليه سيئة واحدة لا يُزاد عليها.

ومع كل هذه الرحمة والفضل فإنّ الله عَزَّ وَجَلَّ جعل لعباده أمورًا تُمحى بها سيئاتهم، وتُكفَّر عنهم ذنوبهم، ذكر شيخ الإسلام في الوصية أربعةً منها، ونحن نعدُّ البقية ونعلِّق عليها.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، رقم: (٥٢٦٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (٢٠١).

فمكفرات الذنوب من حيث جنسها: عشرة:

أوّلها: التوبة.

وهذا متّفقٌ عليه بين المسلمين، والتوبة تنفع حتى في غفران الشرك، فمن تاب من الشرك تاب الله عليه وهي من الأمور التي أُمِرَ بها جميع المؤمنين ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١].

والسبب الثاني من المكفرات: الاستغفار من غير توبة.

أي: أن يخاف العبد من الله، فيَستغفر من ذنبه؛ وإن كان قائمًا عليه وقد تقدّم الكلام على التحقيق في المسألة.

وقد قال النبي ﷺ: «**إنّ رجلًا أذنب ذنبًا، فقال: ربّ، إني أذنبتُ ذنبًا أو عملتُ ذنبًا، فاغفره، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: عمل عبدي ذنبًا فعَلِمَ أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؛ قد غفرتُ لعبدي، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: ربِّ، إني أذنبتُ ذنبًا أو عملتُ ذنبًا فاغفره، قال الله تبارك وتعالى: عَلِمَ عبدي أنّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به؛ قد غفرتُ له، ثم أذنب ذنبًا آخر، قال: ربِّ إني عملت ذنبًا فاغفره، قال الله: عَلِمَ عبدي أنّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؛ قد غفرتُ لعبدي فليفعل ما شاء**»، رواه أحمد بإسناد صحيح[1].

ومعنى «**فليفعل ما شاء**»: أي: ما دام أنه مقيم على الاستغفار الصادق؛ الذي يبعثه عليه خوفه من الله.

---

(١) «المسند» (١٣/ ٣٢٩) رقم: (٧٩٤٨)، وقد أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ومسلم في «الصحيح» أيضاً، كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٥٨).

والسبب الثالث من المكفرات: الأعمال الصالحة المكفِّرة للذنوب.

وتسمّى عند أهل العلم بالمُمَحِّصات أو بالحسنات الماحيات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، يقول النبي ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

والسبب الرابع من المكفرات: مصائب الدنيا والبلاء الذي ينزل بالمؤمن.

يقول النبي ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة؛ في نفسه وولده وماله؛ حتى يلقى الله ومَا عليه خطيئة**» رواه الترمذي بإسناد صحيح(١).

وقد تقدّم الكلام على هذه المكفِّرات الأربعة، وقد بيّنا أنّ التوبة تنفع في غسل الذنوب كلها، وأنّ الأسباب الثلاثة الأُخَر إنما تنفع الموحِّدين؛ أمّا المشرك فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأنه لا يُغفَر مع الشرك ذنب.

السبب الخامس من المكفرات: شفاعة الشفعاء.

وهذه الشفاعة نعني بها: الشفاعة لأصحاب الذنوب بأن يعفو الله عنهم؛ لأنّ الشفاعة الثابتة أنواع، ونحن هنا إنما نتكلم عن الشفاعة لأصحاب الذنوب؛ لكي يعفو الله عنهم.

وهذه الشفاعة قد تكون للمذنبين قبل دخول النار، وقد تكون للمذنبين بعد دخولهم النار، فإنّ ربنا سبحانه وتعالى من كرمه وفضله وبرِّه ورحمته أنه يَأْذَن لمن شاء من عباده أن يشفع لمن رضي عنه من عباده، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فالشفاعة النافعة: هي الشفاعة بإذن الله سبحانه وتعالى، مع رضاه عن الشافع والمشفوع له، والشفاعة المنفية: هي ما عدا هذا.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: (٢٣٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٨٠).

وقد قال النبي ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**» رواه أبو داود بإسناد صحيح(١).

وقال النبي ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يُغفَر له في أوّل دَفعة من دمه، ويُرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضَع على رأسه تاج الوَقار؛ الياقوتة منها خير من الدنيا ومَا فيها، ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**» رواه الترمذي بإسناد صحيح(٢).

الشهيد: شهيد المعركة، الذي يكون في جهاد مشروع؛ قد اجتمعت شروطه وانتفت موانعه؛ لأنّ الشهادة أثر الجهاد، فلا يصح ما يقوله البعض من أنّ الإنسان يذهب يقاتل الكفار ولو لَمْ تجتمع الشروط أو تنتفي الموانع؛ لأنه إن قاتلهم فقتلوه يُغفَر له ذلك! فإنّ هذا الموعود على لسان خير مولودٍ ﷺ إنما هو في الجهاد المشروع الذي اجتمعت شروطه وانتفت موانعه. **والشاهد هنا؛ أنّ الشهيد يشفع لسبعين من أقاربه.**

وقال رسول الله ﷺ: «**ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل من أمّتي أكثر من بني تميم**»، (بنو تميم) قبيلة عربية معروفة بكثرة العدد، يقول ﷺ: «**ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل من أمّتي أكثر من بني تميم**» أي: أنهم لا يستحقون دخول الجنة بعملهم، لكن يشفع لهم هذا الرجل ؛ فيغفر الله لهم فيُدخلهم الجنة، «**قالوا: سواك يا رسول الله؟!**» كأنهم يقولون بعبارة أخرى: هل هذا الرجل أنت يا رسول الله؟ أو رجل آخر؟ فقال ﷺ: «**سواي**» أي: أنه رجل من هذه الأمّة.

رواه الإمام أحمد في «المسند» بإسناد صحيح(٣).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: السنة، باب: لشفاعة، رقم: (٤٧٣٩)، وصححه الألباني فيه.

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: فضائل الجهاد، باب: في ثواب الشهيد، رقم: (١٦٦٣)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٣٦).

(٣) «المسند» للإمام أحمد (٢٥/ ١٨٩) رقم: (١٥٨٥٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢١٧٨).

قـال النبـي ﷺ: «**يقال للرجل** – أي: يوم القيامة –: **يا فلان، قم فاشـفع، فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة، ويقوم الرجل فيشفع لأهل البيت، ويشفع للرجل وللرجلين على قدر عمله**» رواه ابن خزيمة في «التوحيد» بإسناد صحيح[(١)].

وفـي «الصحيحـين»؛ أنّ النبـي ﷺ قال فـي المؤمنين الذين يجتـازون الصراط الـذي يُنصَـب على مـتن جهنـم قـال ﷺ: «**وإذا رأَوا أنهم قـد نَجَوا يقولـون: ربنا إخواننـا كانـوا يُصلُّون معنـا ويصومون معنـا ويَعملـون معنا!**» يعنـي إذا اجتازوا الصراط، ولم يسـقطوا في جهنم تذكّروا إخوانهم الذين تسـاقطوا في جهنم ولَمْ يجتازوا الصراط؛ فيشفعون فيقولون: «**ربنا إخواننا كانوا يُصلُّون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا**»، وهذا من بركة انتظام الإنسان مع الصالحين، من أهل السنة، المعروفين بالتوحيد؛ فإنه يُرجى منهم خيرٌ كثير في الدنيا والآخرة.

العبـد وإن كان يقـع فـي الذنـوب، فإنـه إن وُفِّـق يحـرص علـى أن يكون مع الصالحـين، يحـرص على أن يكون مع الموحّدين، يحـرص على أن يكون مع أهل السـنة؛ لأنهم القوم لا يشقى بهم جليسـهم، يُرجى إذا خالطهم أن يَرِقّ قلبه، وأن يترك ذنبه، وإن مات على الذنب فإنه تُرْجَى له شفاعتهم.

يقول النبي ﷺ: «**فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينارٍ من إيمان فأخرِجوه**» يعني من النار، قال: «**ويحرِّم الله صورهم على النار**» أي لا تؤذيهم «**فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه؛ فيُخرجون من عرفـوا**» ممـن كانوا معهم «**ثـم يعودون، فيقـول الله: اذهبوا، فمن وجـدتم في قلبه مثقـال نصف دينار من إيمـان فأخرِجوه، فيُخرجون من عرفوا، ثـم يعودون فيقول**

(١) «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٧٤٤).

الله: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه؛ فيُخرجون من عرفوا، فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون»(١).

وجاء عند النسائي وغيره بإسناد صحيح، أنّ الملائكة يوم القيامة تأتي تشفع، ويشفع الرُّسل(٢).

وهذه شفاعات تقع من الملائكة، وتقع من الأنبياء، وتقع من الصالحين، وهذه الشفاعات لأهل الذنوب الذين يستحقون دخول النار بذنوبهم فيُشفَع لهم فلا يدخلون النار، أو يدخلون النار بذنوبهم فيُشفع لهم فيُخرَجون من النار.

السبب السادس من المكفرات: رحمة الله وعفوه.

ورحمة الله واسعة؛ وسعت كل شيء، والله يعفو عن السيئات، ما لَمْ تكن شركًا ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقد دلّت الأدلة على أنّ الله يعفو عن عباده المؤمنين، المذنبين، بغير سبب منهم في الدنيا ويوم القيامة، فقد يذنب الموحِّد ذنبًا، ولا يَفعل ماحيًا، فيعفو الله عنه برحمته وفضله في الدنيا ويوم القيامة.

حتى إنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يُدني المؤمن يوم القيامة، فيضع عليه كَنَفَه ويَستره ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى أنه هلك، قال سبحانه: «**سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»، كما في «الصحيحين»(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم: (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الإيمان، رقم: (١٨٣).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: السهو، وذكر ما ينقص الصلاة وما لا ينقصها، باب: موضع السجود، رقم: (٧٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: المظالم والغصب، باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم: (٢٤٤١)، و«صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٨).

«**ويجاء يوم القيامة بأناس يأتون بذنوب أمثال الجبال يُغفَر لهم**» كما عند مسلم في الصحيح[(١)].

«**ويؤتى بالرجل يوم القيامة من المؤمنين الموحِّدين، فيقال: اعرِضوا عليه صغار ذنوبه، فتُعرَض عليه ويُخبَّأ عنه كبارها، فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا، كذا وكذا وكذا، وهو مقرٌّ لا يُنكِر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كلِّ سيئة عملها حسنة**» يعفو الله عن سيئاته ويُكرمه بجعلها حسنات؛ «**فيقول: إنّ لي ذنوبًا ما أراها؟**» بعد أن كان مشفقًا من ذكر الكبائر، أصبح طامعًا في ذكرها حتى يُعطى مكانها حسنات.

ولذلك لمّا ذكر النبي ﷺ ذلك ضحك حتى بدت نواجذه من حال هذا الرجل، كان مشفقًا وجِلًا خائفًا من ذكر الكبائر؛ فلمّا رأى كرم الله، طمِع؛ فأخذ هو يبحث عنها، ويقول: إنّ لي ذنوبًا ما أُراها؟ أي: الكبائر التي خُبِّئت عنه؛ من أجل أن يُعطى بدلها حسنات، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواذجه، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «المسند»، وصححه الألباني[(٢)].

ولا يزال ربنا الكريم يرحم عباده في الدنيا، ويرحم عباده يوم القيامة، حتى لا يُبقي في النار من قال (لا إله إلا الله) من قلبه، ولا يزال العبد المؤمن يُرجى له عفو الله ومغفرته.

وليحذر المؤمن المجاهرة بالمعاصي؛ فإنّ المجاهرة بالمعاصي لها شؤمٌ عظيم، وقد تمنع عفو الله.

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٧).

(٢) «المسند» للإمام أحمد، (٣٥/ ٣١٣) رقم: (٢١٣٩٣)، وهو في «صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩٠).

يقول النبي ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يُصبِح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويُصبِح يَكشِف ستر الله عنه**» رواه البخاري في «الصحيح»(١).

«**كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين**»: كل أمتي - ولو كانوا مذنبين - معافى؛ إلا المجاهرين.

كلُّ من فعل الذنب أمام الناس فهو من المجاهرين، وكذلك كلُّ من فعل الذنب خُفية ثم أعلنه أمام الناس فهو من المجاهرين.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وحديث ثوبان رضي الله عنه الَّذي قال فيه النبي ﷺ: «**لأعلمنّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء؛ فيجعلها الله هباء منثورًا**» نسأل الله السلامة «فقال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلّهم لنا؛ ألاَّ نكون منهم ونحن لا نعلم، قال النبي ﷺ: «**أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها**» رواه ابن ماجه، وصححه الألباني(٢).

هنا يظهر باديَ الرأي تعارض؛ لأنّ النبي ﷺ قال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**» وظاهر هذا أنّ الَّذي يستخفي بذنبه معافى، وفي حديث ثوبان يقول النبي ﷺ: «**ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها**»، وظاهر هذا أنّ الذي يفعل الذنب في خلوة يكون معاقَبًا بهذا العقاب العظيم!

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، رقم: (٦٠٦٩).

(٢) «السنن» لابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم: (٤٢٤٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٠٥).

وهذا في ظاهره تعارض! فكيف نجمع بين الحديثين، وأحدهما في «الصحيح» ومعناه في «الصحيحين»، والآخر صححه الألباني؟

الجواب: جُمِـعَ بينهما بوجوه:

الوجه الأول: أنّ حديث ثوبان: في أقوام إذا برزوا للناس أظهروا الطاعة والتذلُّل والعبادة؛ رياء وسمعة، ولا يذكرون الله إلا قليلاً، وإذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها، فهؤلاء قومٌ منافقون أو قريبون من المنافقين، وهذا يتّفق مع كونهم يُجعَل حسناتهم هباءً منثورًا، فإنّ المتقرِّر أنّ السيئات ما عدا الكفر والردة لا تحبط الحسنات، وإن كان قد يؤخَذ من حسنات العبد من أجل خصومه يوم القيامة، وتُطرَح عليه من سيئاتهم، لكن أن تكون السيئة سببًا في حبوط الحسنة الصحيحة الصالحة، فهذا غير وارد؛ ولذلك هذا الوجه - الذي ذكره بعض أهل العلم - يتّفق مع الحديث: أنّ هؤلاء القوم الَّذينَ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها؛ قومٌ يتظاهرون بالطاعة أمام الناس، فلهم حسنات فيما يرى الناس، أمَّا عند الله فتكون هباءً منثورًا، فإذا جاؤوا يوم القيامة بهذه الحسنات في الظاهر جعلها الله هباءً منثورًا.

أمَّا حديث «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**» فهؤلاء قومٌ موحِّدون يعبدون الله، ويخافون الله، ولكنهم يقعون في الذنوب فيستترون بها؛ **هذا وجه**.

الوجه الثاني في الجمع: قال بعض أهل العلم: إنّ حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «**ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها**» أنهم أقوام لا يفعلون الذنوب أمام الناس ؛حياءً من الناس لا من الله، فإذا خلَوا ارتكبوا الذنوب، ولا يستحيون من الله، يعني هم في ظاهر الأمر أمام الناس يتركون الذنب، ليس حياء من الله، ولا خوفًا من الله؛ ولكنهم يستحيون من الناس، ولذلك ما إن يخلو أحدهم بالذنب حتى يفعله بلا تردد، لأنه لا يستحي من الله وإنما يستحي من الناس.

وأما حديث «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين» فهؤلاء أقوامٌ يستترون بذنوبهم حياءً من الله وحياءً من الناس، فهم يستترون بذنوبهم وفي قلوبهم خوف الله والحياء من الناس لكن يغلبهم الضعف فيقعون في الذنوب ويَتستّرون بها، فهؤلاء يُرجى لهم عفو الله سبحانه وتعالى.

والوجه الثالث: في قوله ﷺ: «**ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها**»: قال بعض أهل العلم: هؤلاء الَّذينَ يخونون الأمانة، أي يؤتَمَنون على الشيء فينتهكونه، كالرجل الذي يُزاني حليلة جاره، الرجل الَّذي يُزاني حليلة جاره من أشدِّ الناس ذنبًا، ومن أعظمهم عقابًا ؛ لأنّ جاره يأتمنه على أهله، لا يظن منه الخيانة، فإذا ذهب جاره انتهك هذه الحرمة وزانى أهله، والعياذ بالله.

أو من يؤتَمَن على أبناء المسلمين ويُوضَع عنده أولاد المسلمين؛ فإذا خلا بهم انتهك محارم الله، إمّا بمعنى أو يعلِّمهم ما يخالف شرع الله؛ كأن يعلِّمهم التكفير، أن يعلمهم التفجير والتدمير، أو يعلمهم كيف يكونون سيفًا في صدور أهل بلادهم، أو بالانتهاك الحسي؛ بانتهاك أعراضهم، فهؤلاء قومٌ ذنبهم عظيم.

ومعنى أنّ حسناتهم تكون كالهباء المنثور بهذا الوجه؛ أنّ سيئاتهم ترجح على حسناتهم، ويكون ذلك سببًا في تعذيبهم في النار عذابًا عظيمًا.

فينبغي على العبد الَّذي يرجو رحمة الله أن يُعظِّم خوف الله في قلبه، وأن يحرص على البعد عن الذنوب، فإن ابتُلي بها حرص على البعد بها؛ بحيث يَستتر بها، غير متجرئ على محارم الله وغير مستهتر بما حرّم الله عز وجل.

السبب السابع في تكفير الذنوب: دعاء المؤمنين.

دعاء المؤمن للمؤمن ينفع الاثنين، فإنّ المؤمن إذا استغفر لأخيه المؤمن بظهر الغيب، قالت الملائكة: آمين، ولك مثله[1]، فتؤمِّن على دعائه، وتدعو له، فأنت -

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٧٣٢).

يا عبد الله - إذا جلستَ في جوف الليل على سجادك، ودعوتَ الله، واستغفرتَ لنفسك، واستغفرت لجارك، واستغفرت لإخوانك الذين تعلمهم، وتعلم لهم ذنوبًا، وقلتَ: اللهم، اغفر لجاري فلان، يقول الملك: آمين، ولك مثله، يا ربِّ، اغفر لأخي فلان، يقول الملك: آمين، ولك مثله.

ورُويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»[(١)]، من استغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ يعني: جملةً؛ فقال: اللهم، اغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ «**كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»، وهذا الحديث حسَّنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ معتمداً على الهيثمي جاعلاً العهدة عليه، لكن بعد أن طُبِعَ «مسند الشاميين» وجدنا أن إسناد الحديث لا يُحسّن مثله الشيخ الألباني بل يضعفه، وقد نبّهتُ عليه لأنه منتشر على ألسنة طلاب العلم على أنه حديث حسن، يُحتجّ به، لأنّ الشيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد حسَّنه.

ولكن لا شك أنّ استغفار المؤمن للمؤمنين والمؤمنات ينفعه وينفعهم.

يقول النبي ﷺ في مثالٍ لهذا: «**ما من ميّتٍ يصلي عليه أمّة من المسلمين يَبلغُون مائة كلهم يُشفعُّون أو يَشفَعون؛ إلا شُفِّعوا فيه**» رواه مسلم[(٢)].

«**يَشفَعون**» أي: يدعون له.

وقال ﷺ: «**ما من رجل مسلم يموتُ، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يُشرِكون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم الله فيه**» رواه مسلم[(٣)].

وهذا مثال لدعاء المؤمنين، وانتفاع العبد بدعائهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» برقم: (٢١٥٥)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» رقم (١٧٥٩٨)، وانظر كلام الألباني في «صحيح الجامع» رقم: (٦٠٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: الجنائز، رقم: (٩٤٧).

(٣) «صحيح مسلم» كتاب: الجنائز، برقم: (٩٤٨).

هنا قد يقول لنا قائل: النبي ﷺ ذكر أنه يصلي عليه أمّة من المسلمين يبلغون مائة، وفي الحديث الآخر قال: يقوم على جنازته أربعون، وكلاهما عند مسلم في «الصحيح»، فكيف نجمع بينهما؟

جمع بينهما العلماء بوجوه:

الأول: قال بعض العلماء: هذا من تخفيف الله عن الأمّة؛ بمعنى: أنّ الله جعل الفضل للمائة، ثم خفَّف عن هذه الأمّة فجعل الفضل للأربعين.

الثاني: قال بعض أهل العلم: إنّ الأربعين أقل الكمال، والمائة ومَا زاد أكثر الكمال، يعني أقلّ الكمال في هذا الفضل أن يصلي عليه أربعون، وأعلى الكمال أن يصلي عليه مائة فما فوق.

الثالث: قال بعض أهل العلم: هذا باعتبار اختلاف صفة المصلين، فإن كان المصلُّون موحِّدين، خُلَّص، لا يقع منهم الشرك الأصغر، ولا الخفي، بل توحيدهم خالص سالم من الشرك الأصغر والخفي؛ فإنه يكفي أن يَشفَع أربعون لقول النبي ﷺ: «**لا يُشرِكون بالله شيئًا**».

وإن كان المصلُّون من الموحّدين، لكن فيهم من فيه شركٌ أصغر، أو شركٌ خفيّ؛ يعني بعضهم يحلف بغير الله؛ يقول: والنبي، يقول: وحياة أمي، يقول: وحياة أولادي، يقول: والكعبة؛ فهذا شرك أصغر «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[1]، أو فيهم رياء خفيف يسير، فهؤلاء موحّدون لكن فيهم شيء من الشرك، الذي لا يَنقُض التوحيد؛ وإنما يُنقِصه، فهؤلاء ينفع منهم إذا صلى منهم مائة، فيكون المائة بالنسبة لصفة هؤلاء والأربعون بالنسبة لصفة هؤلاء.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: النذور والأيمان، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم: (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٠٤٢).

والشـاهد معنا هنا: أنّ دعـاء المؤمنين ينفع للمذنبين مـن المؤمنين، وقد قال الله عَزَّلَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمـد: ١٩]، ولو لَمْ يكن ذلك نافعًا لَـمَا أمر الله به.

ومـن أعظم ما ينفع، دعاء الولد لوالده؛ لا سـيّما الصالـح، فإنه ثبتَ أنّ الرجل تُرفَـع درجتـه في الجنة فيقول: أنّى لي هذا؟ كيف لي هذا؟ يعرف أنه ليس من أهل هذه الدرجة، فيقال: باستغفار ولدك لك(١).

ولا يزال الولد الصالح يستغفر لأبيه، حتى يُغفَر له، ثم تُرفَع درجتُه في الجنة.

والسبب الثامن من المكفرات: ما يُعمَل للميِّت من أعمال البر.

فإنّ أعمال البر تمحو السيئات - كما تقدّم معنا -، فإذا صحّ فعلها للميِّت فإنه يُرجى له أثرها كله بما في ذلك محوُ السيئة بها.

وأعمـال البـر التي تُعمَـل للميّت؛ منها مـا اتُّفِقَ على صحة عملهـا للميت في الجملـة علـى خلاف في التفاصيـل؛ كالصدقة والحج والعمرة والصـوم، فإنّ هذه الأعمال تُعمَل للميِّت وتنفعه؛ وقد دلّت على ذلك الأحاديث.

والمعلوم أنّ الصدقة تُطفئ الخطيئة، فإذا تُصدِّق عن الميِّت رُجِيَ له ثواب الصدقة وأن تُطفأ خطيئتُه بهذا، والمعلوم أنّ الحج مكفّر للذنوب، فإذا حُجَّ عن الميت رُجِيَ له أن يحصل له أثر الحج، ومِن أثر الحج أن تُكفَّر ذنوبه، والعمرة إلى العمرة كفارة

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦/ ٢٦٥) رقم: (١٠٦١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٩٨).

لـما بينهما؛ فـإذا اعتُمِرَ عن الميت رُجِيَ أن تُكفَّر ذنوبـه(١)، والصوم جُنَّة(٢) وكفارة؛ فـإذا صِيـمَ عن الميّت فيما هو واجب عليه، - فإنّ «**من مات وعليه صيام، صام عنه وليُّه**(٣)» - فإنه يرجى أن تُكفَّر بهذا ذنوبه.

وقـد ذهـب بعض أهل العلم من السـلف والخلـف إلى أنّ كل عمـل برٍّ يُهدى للميِّت ينفعه؛ بشرط: أن يكون مشروعًا لا مبتدعًا.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف، إلى أنّ هذا أمرٌ غيبيّ، فيُقتَصر فيـه علـى ما ورد فيه نصـوص دالة على النفع به وعلى وصولـه. وهذا الذي يظهر لـي - واللـه أعلم - أنه الأصوب من أقوال العلماء؛ لأنه لا دليل عندنا لا من قول الرسـول ﷺ ولا من فعله، ولا أثر عن صحابته رضي الله عنهم يصح الاسـتدلال به على أنّ الأعمال يصل ثوابها إلى الميِّت إلا ما نُصَّ عليه.

وعليه؛ فإن الذي يظهر لي - والله أعلم - أنه يُقتَصر على ما ورد، ومَا عداه من الأعمال فيُتوسَّـل به في الدعاء؛ فيقول العبد: اللهم إني أسـألك بصلاتي هذه أن تغفر لأبي مغفرة من عندك وأن ترحمه، أو يقول: اللهم إني أسألك بقراءتي سورة البقـرة أن تغفر لأبي وأن ترحمه؛ فإنّ التوسُّـل إلى الله في الدعاء بالعمل الصالح من التوسُّل المشروع النافع.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» أبواب العمرة، باب: وجوب العمرة وفضلها، رقم: (١٧٧٣)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحج، رقم: (١٣٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم: (٢٦١٦)، وأخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم: (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في«الإرواء» رقم: (٤١٣).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الصوم، باب: من مات وعليه صوم، رقم: (١٩٥٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الصيام، رقم: (١١٤٧).

السبب التاسع من المكفّرات: ما يحصل في القبر للمؤمن من الضغطة والفتنة والرَّوعة.

العبد إذا أُدخِل في قبره تَحصل له ضغطة لا ينجو منها أحد، ولو كان أحدٌ ينجو من ضغطة القبر لنجا منها سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

وفي القبر فتنة قال صلى الله عليه وسلم: «**فإنكم تُفتَنون في قبوركم**» الرجل الصالح إذا أُدخِل في قبره يجلس غير فزعٍ ولا مَشغوف، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقال: من هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، أتانا من عند الله، فصدّقناه، فيقال: وهل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يرى الله – أي في الدنيا –، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرِشوه من الجنة، وألبِسوه من الجنة، ويُفسَح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه من رَوح الجنة وريحانها.

وإذا كان الرجل على غير ذلك، فإنه يأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه، فيجلس فزِعًا مشغوفًا، فيقال: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه ،لا أدري، فيقولان: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقولان: محمد، فيقول: هاه هاه ،لا أدري، كنتُ أسمع الناس يقولون قولًا فقلتُه، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي؛ فأفرِشوه من النار وألبِسوه من النار ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه من حرّ جهنم وسمومها(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤٠/ ٣٢٧) رقم: (٢٤٢٨٣)، وصححه الألباني في«السلسلة الصحيحة» رقم: (١٦٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم: (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص: ١٥٦).

فهذه فتنة القبر، والروعة تحصل مع الفتنة لبعض من يُفتَن.

ولم أقف على دليلٍ خاصٍّ يدلّ على أنّ هذا السبب من المكفّرات؛ لا من الكتاب ولا من السنة، ولكن يظهر لي - والله أعلم - أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ومَن ذكر هذا من العلماء؛ إنما ذكروه من باب الإلحاق الأولويّ؛ لأنه دلّت الأدلة على أنّ الشدائد التي تصيب المؤمن في الدنيا تكفِّر سيئاته، والشدائد التي في القبر أعظم؛ فمن باب أولى أن تُكفَّر بها السيئات، والله أعلم بحقيقة الحال.

السبب العاشر من المكفرات: أهوال يوم القيامة وكُربها وشدائدها.

فإنّ يوم القيامة يوم عظيم، يومٌ فيه من الشدائد الشيء الكثير، يُحشَر فيه الناس حفاةً عراةً غُرلًا، على صعيد واحد، تقول أمّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الرجال والنساء يا رسول الله؟!» من حيائها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أمّنا زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا مات وهو عنها راضٍ، مات واستأذن نساءه في آخر حياته أن يُمرَّض في بيتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأَذِنَّ له، وكان آخرَ ما خالط ريقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدنيا ريقها الطاهر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها، زوج نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة، لا يحبّها إلا مؤمن، ولا يُبغِضها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، والله لا ينال من عرضها مؤمن، والله لا يَسبّها سبًّا يقدح في عرضها ودينها؛ فضلًا عن أن يُكفّرها من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، الحييَّة، الصدّيقة بنت الصدّيق، المباركة بنت المبارك - تقول: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فيقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عائشة، الأمر أشدّ من ذلك!**»(١)، الأمر أشدّ من ذلك؛ لا ينظر أحد إلى أحد ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾، [الحج: ٢]، الأم التي لا يمكن أن تذهل عن رضيعها؛ يوم القيامة تذهل عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها من الخوف والهلع، وترى الناس سكارى؛ يتمايلون

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم: (٦٥٢٧).

ومَا بهم سُكْر؛ ولكنّ عذاب الله شديد، رأَوه فأصبحوا يتمايلون من الخوف، تدنو الشمس على رؤوس الخلائق مقدار ميل، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حِقْوَيه؛ يعني: إلى وسطه، ومنهم - والعياذ بالله - من يُلجِمه العرق إلجامًا، شدائد عظيمة، حتى يُفرِّج الله عن الخلق؛ بأن يشفع محمدُ بن عبد الله ﷺ الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود؛ بأن يسجد بين يدي الله، متذلِّلًا، حامدًا، ذاكرًا، مثنيًا على ربه، ويفتح الله عليه من المحامد حتى يأذن الله له بالشفاعة، فيشفع فيُقضى بين الخلائق.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض أهل العلم، إلى أنّ أهوال يوم القيامة ومَا فيها من الكُرَب والشدائد تُمحَّص بها الذنوب، ومن ذلك المرور على الصراط، فإنّ الصراط يُنصَب على متن جهنم، وهو دَحَضٌ مَزَلَّةٌ، ولجهنم كلاليب تَخطِفُ الناس، ويَمرّ الناس على قدر أعمالهم على الصراط، إلى أن يمرّ آخرهم يحبو حبوًا(١).

قال العلماء: إنّ المرور على الصراط فيه تكفيرٌ للذنوب، وبحسب قَيدِ الذنب تَخِفُّ السرعة على الصراط.

وهذه المكفرات في الذنوب، وكما قلتُ في السبب التاسع، أقول في السبب العاشر؛ إني لَمْ أقف على دليل خاص، يدلّ على أنّ هذا مكفّرٌ للذنوب؛ لكن لعله من باب القياس الأولويّ؛ من جهة أنّ الأدلة دلّت على أنّ الشدائد في الدنيا تُكفَّر بها الذنوب، فكذلك في الآخرة، والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم: (٤٧١٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩٤).

هذه هي أجناس مكفرات الذنوب، والمؤمن إذا سَمِعَ هذا يتّسع رجاؤه، ويَعظُم رجاؤه بالله، وفي نفس الوقت يشتدّ خوفه من الله ويخشى أن يكون من أشقى خَلْقِ الله من غير المشركين فلا يُغفَر له.

المؤمن إذا سَمِعَ هذا، يرجو المغفرة والرحمة، ويخاف أن يكون مطرودًا من كلّ هذا السِّعة، فلا يجرؤ على محارم الله، بل يُعظّم المحرمات، ويبتعد عن انتهاكها، ويسعى لأن يكون من السالمين منها، فإذا وقع في الذنب خاف الله، فرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والموفّق؛ من استعمل الخوف قبل الوقوع في الذنب، والرجاء بعد الوقوع في الذنب.

والمخذول من قاده الرجاء إلى انتهاك محارم الله، وأصابه القنوط بعد الوقوع في الذنوب.

المؤمن الذي يُذنب رجاء المغفرة كمن يشرب السم رجاء الدواء بعد شربه، لا يوجد عاقل يأتي للسم فيتجرّعه ثم بعد أن يتجرّعه يقول: أشرب الدواء؛ لأنه قد يموت قبل أن يقدر على الدواء، وأنت - يا عبد الله - ما تدري متى تموت، قد تموت وأنت على ذنبك! والعبد يُبعَث يوم القيامة على ما مات عليه من مات ملبّيًا بُعِث ملبيًا، ومن مات مصلياً بُعِث مصليًا، ومن مات داعيًا بُعِثَ داعيًا، من مات زانيًا - والعياذ بالله - بُعِث على هذه الحال القبيحة، من مات كاذبًا بُعِث على هذه الحال القبيحة، من مات مغتابًا بُعِث على هذا الحال القبيحة، من مات سكرانًا بُعِث على هذا الحال الخبيثة.

ولذلك ذُكرَ عن بعض السلف أنَّهُ قال لتلاميذه واعظًا: (من يضمن لي أن يعيش إلـى غـدٍ آذن له في المعاصي)، يعني: الذي يقوم منكم فيقول: أنا أضمن أن أعيش إلى الغد، أنا آذن له بأن يفعل كل معصية، من الذي يستطيع أن يضمن هذا؟ واللهِ إنَّ الإنسان يكون قويًا قادرًا ليس فيه أي عَرَض فيسقط فجأة ميّتاً!!

فكم من سَليمٍ مات من غير علَّة وكم من سقيم عاشَ حينًا من الدَّهر.

بعض الناس يمرض ويزوره الناس، ويظنون أنه يموت ويصلون عليه، فيموتون قبلـه ويعـزِّي فيهم، وكفى بالمـوت واعظًا، فـإذا حدَّثَت النفس الإنسـان بالذنب، ورجّـاه الشـيطان المغفرة، وقال: ما شـاء الله،أنـت عندك صالحـات كثيرة، وأنت أحسن من غيرك، غيرك يفعل ويفعل ويفعل، وهذا ذنب يسير، يُهَوّن الذنب لكي يوقع العبد فيه، إذا جاءت النفس الضعيفة، وجاء الشـيطان، يُذكِّر الإنسـان نفسـه بأن الأجل مؤقَّت ولا يدري ما يكون، فلعل هذا آخر ما يكون، فكيف يعيش عمره على طاعة الله، ثم يُعرِّض نفسه لأن يُقبَض على معصية الله؟!

المؤمن لا يجرؤ على الذنب، لأنه يعلم أنّ للذنب شؤمًا، كما أنّ له مكفّرات، فقد يسبق الشؤم إليه فيَرِين على قلبه، فيصبح بعد ذلك لا يَقبَل حقّاً ولا يُنكِر باطلًا.

فلا يجرؤ على الذنوب ولا يجرؤ على محارم الله، لكن إذا غلبه الضعف فوقع في الذنب لا يقول: أنا لا خير فيّ، أنا بعدتُ عن الله، كيف أصلي الليل وأنا زنيتُ – والعيـاذ باللـه –؟ كيف أتنفّل وأنا قد كذبـتُ؟ لا يقنط من رحمة الله؛ بل يرجو مغفـرة اللـه، ويُصدِّق بموعود الله، ويَفعل ما طُلِبَ منه من المكفِّرات، ويسـأل الله أن يغفر له مغفرة واسعة من عنده.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأمَّا ما سألتَ عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض؛ فإنه يَختلف باختلاف الناس فيما يَقدرون عليه، ومَا يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصَّل لكل أحد).

يقول شيخ الإسلام مخاطبًا أبا القاسم السَّبتي: (**وأمَّا ما سألتَ عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض**)، فأفضل الأعمال هي الفرائض التي افترضها الله عَزَّ وَجَلَّ، على عباده، فخير ما تتقرّب به إلى ربك - أيها المسلم -: أن تقيم فريضة من فرائضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، ومَا تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه، ومَا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببتُه، كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينَّه ولئن استعاذني لأُعيذنّه**»، والحديث رواه البخاري في «الصحيح»[(١)].

والشاهد قول الله عَزَّ وَجَلَّ فيما حكاه عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومَا تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليّ مما افترضتُ عليه**»، فأحبُّ الأعمال إلى الله هي الفرائض، ولا يجوز للإنسان أن يشتغل بالنوافل عن الفرائض، بل الفرائض مقدَّمة، يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أُقيمَت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**» رواه مسلم في «الصحيح»[(٢)].

وبوَّب بلفظه البخاري في «الصحيح»: «**إذا أُقيمتْ الصلاة**» **فقد أصبحتْ فرضًا** «**فلا صلاة إلا المكتوبة**»[(٣)]؛ فلا يجوز الاشتغال بالنَّفل بعد إقامة الصلاة التي

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم: (٦٥٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب الأذان، قبل حديث رقم: (٦٦٣).

هي الفرض؛ فدلّ ذلك على أنه لا يجوز للعبد المسلم أن يشتغل بالنوافل عن الفرائض، فإذا تعارض عند العبد المسلم فعل فريضة مع فعل نافلة فإنه يجب عليه أن يشتغل بالفريضة.

فمن كان عليه دينٌ - مثلًا - وقد حلَّ وفاؤه وليس عنده مال، وكان بين أمرين: أن يَعمل ليُحصِّل المال ليَفي دَينه، أو يشتغل بطلب العلم المستحب، ولا يستطيع أن يجمع بينهما، فإنه إذ ذاك يجب عليه أن يعمل ليُحصِّل وفاءَ دَينه، وكذلك إذا تعارَض عند الإنسان ما يَتعلَّق بالنفقة الواجبة عليه والمستحبات؛ فإنه يجب عليه أن يقدِّم النفقة الواجبة عليه.

وقد قال العلماء جملة عظيمة: (مَن شغله الفرض عن النَّفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور).

الذي يَدخل المسجد، وقد أُقيمَت الصلاة، فلا يستطيع أن يصلي السنة الراتبة القَبليَّة؛ فدخل في الفرض فهو معذور، والذي يدخل وقد أُقيمَت الصلاة، فيشتغل بالنافلة ولا يدخل مع الإمام في الصلاة المفروضة فهو مغرور.

ولذلك قال العلماء: (إنّ الشيطان يسعى لأن يُشغل المسلم بدنياه عن دينه، فإذا لَمْ يستطع سعى لأن يشغله بالنوافل عن الفرائض).

ولذلك ذكر أهل العلم أنّ الشيطان قد يُرغِّب العبد في قيام الليل - وهو أفضل الصلوات المستحبات - إذا علم أنّ ذلك يجعله ينام عن صلاة الفجر، لأنّ الشيطان يَعلم أنّ ترك الفريضة إثمٌ وذنبٌ يَستحق به فاعلُه العقاب، أمّا ترك المستحَب فليس فيه ذنب ولا إثم؛ وإنما يفوت به الأجر، فيسعى الشيطان لأن يُشغِل الإنسان بمستحَب حتى يَشغَله عن الفرض.

ولذلك ينبغي على العبد المسلم دائمًا أن يَنظر في حاله مع الفرائض، فهي أجمع الأمور، ثم بعد ذلك تكون النوافل.

والأفضل للإنسان أن يُكثِر من النوافل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ فإنها مثقِّلة للميزان، محبوبة إلى الرحمن، جابرة لما يقع في الأعمال من نقصان. فالعبد إذا عمل فريضة فحصل فيها نقصٌ فإنها تُجبَر بالنوافل من جنسها؛ لِمَا جاء في الحديث: «**إنّ أوّل ما يُحاسَب عليه الناس يوم القيامة من أعمالهم: الصلاة**» قال: «**يقول ربنا** عَزَّ وَجَلَّ **لملائكته - وهو أعلم -: اُنظروا في صلاة عبدي؛ أتمّها أم نقصها؟ فإن كانت تامَّة كُتبَت له تامَّة، وإن كان انتَقص منها شيئًا؛ قال: اُنظروا هل لعبدي من تطوّع، فإن كان له تطوُّع قال: أتمُّوا لعبدي فريضته من تطوُّعه، ثم تؤخَذُ الأعمال على ذلك**»، رواه الأربعة، وصححه الألباني[(١)].

انظر - يا عبد الله - إلى هذا الحديث العظيم: «**إنّ أوّل ما يُحاسَب عليه الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة**»، فأوّل الأعمال الصلاة؛ لأنها أعلاها وأغلاها وأعظمها فرضًا، فالصلاة أوّل الأعمال بعد التوحيد، فيقول ربنا عَزَّ وَجَلَّ لملائكته - وهو أعلم -: اُنظروا في صلاة عبدي هل أتمّها أو نقصها؟ فإن كان قد أتمها كُتبت له تامة، وإن كان قد انتقص منها شيئًا قال الله: انظروا هل لعبدي من تطوّع؟ -يعني: من الصلوات، هل له تطوّع، من الصلوات؛ هل يصلي السنن الراتبة؟ هل يقوم الليل؟- فإن كان له تطوّع قال الله: أتمُّوا لعبدي فريضته من تطوّعه، ثم تؤخَذ بقية الأعمال على ذلك، وفي رواية: (ثم يُفعَل بسائر الأعمال المفروضة ذلك).

ولذلك؛ قال أهل العلم: (يُستحبُّ للإنسان أن يَجعل له من كلِّ جنس فريضة نافلة).

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي: (كل صلاة لا يتمها صاحبها..)، رقم: (٨٦٤)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الصلاة، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم: (٤١٣)، و«السنن» للنسائي، كتاب: الصلاة، باب: المحاسبة على الصلاة، رقم: (٤٦٥)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، رقم: (١٤٢٥)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

فالصلاة مثلًا يُستحَب له أن يَتنفّل من جنسها؛ كالسنن الرواتب، والصوم يُستحب أن يتنفّل من جنسه؛ كصوم يوم الاثنين والخميس، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، والزكاة يُستحب للإنسان أن يتنفّل من جنسها، كالصدقة، والحج يُستحب للإنسان أن يَتنفّل من جنسه، بأن يَحُجَّ نافلةً بعد الفريضة مرَّة أو أكثر من ذلك أخذًا من هذا الحديث؛ حتى إذا كان هناك نقصٌ في فريضته يُتَمُّ من نوافله.

وذكر أهل العلم أنّ الأفضل للعبد أن ألَّا يقتصر على نوع من الفضائل؛ بل يأتي من الفضائل بما يستطيع، فتكون له نوافل من الصلاة، ونوافلَ من الصيام، ونوافل في المال، ونوافل في الإحسان، إلى غير ذلك من الأعمال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يَختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه ومَا يناسِب أوقاتهم؛ فلا يمكن فيه جوابٌ جامعٌ مفصَّل لكل أحد)** يعني أنّ الإنسان إذا كان يريد اختيار أنواع من الفضائل يُفضِّلها على غيرها لضيق الوقت أو غير ذلك فإنّ هذا يختلف باختلاف الناس.

ومما لا شك فيه أنّ الأعمال الصالحة تتفاضَل، فقد سُئل رسول الله ﷺ، عن أفضل الأعمال في أحاديثَ متعدِّدة في «الصحيحين»؛ فأقرَّ السائلين وأجابهم عن سؤالهم؛ فدلّ ذلك على أنّ الأعمال الصالحة ليست على درجة واحدة في الفضل بل تتفاوت.

ومعرفة أفضل الأعمال من أنفع ما يكون للعبد؛ ولذلك قال العلماء: (ليس العاقل الذي يَعرف الخير من الشر؛ لكنّ العاقل الذي يَعرف خير الخيرَين، وشرَّ الشرَّين)، (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر): ليس المراد هنا نفي العقل؛ بل العاقل يعرف الخير من الشر؛ لكن أعقل منه مَن يعرف خير الخيرَين، لماذا؟ ليُقدِّم أعلاهما عند التزاحم، (ومن يعرف شر الشرين): ليرتكب أدناهما، ويدفع أعلاهما عند التزاحم، وهذا من الأهمية بمكان للمؤمن.

فمثلًا لو أنّ مؤمنًا ذهب يريد أن يُصلي الصلاة في المسجد، فوقع حادث لمسلم أمام عينيه، وهرب صاحب السيارة، هنا خَيْران:

الخير الأوّل: أن يُدرِك صلاة الجماعة ويصلي مع المسلمين.

والخير الثاني: أن يُنقذ حياة هذا المسلم، إذا كان لا يَعرف خير الخيرَين فإنه قد يَدَعُ هذا المسلم يموت؛ بحجّة أنّ الصلاة عمل عظيم فيُقدّمه، لكن إذا كان يَعرف خير الخيرَين، فإنه يَعلم أنّ اشتغاله بإنقاذ المسلم خيرٌ له من صلاة الجماعة؛ بل خيرٌ له من الصلاة في وقتها؛ لأنه يستطيع أن يَقضيَها.

فهذا السؤال الذي سأله السَّبتي رَحِمَهُ اللهُ في غاية علو الشأن.

فشيخ الإسلام يقول إنّ هذا الأمر يختلف لكنّ الميزان الذي يُنظَر إليه في معرفة الأفضل من الأعمال، يعود إلى خمسة أمور:

الميزان الأوّل: مواظبة النبي ﷺ، على العمل، أو حثُّه علي حثًّا مؤكَّدًا.

فإذا وجدنا النبي ﷺ مواظِبًا على عمل من الأعمال، عَلِمْنا أنه أفضل جِنْسِه، وإذا حَثَّ النبي ﷺ على عمل حثًّا مؤكَّدًا عَلِمْنا أنه أفضل جنسه.

فمثلًا صلاة الليل هي أفضل الصلوات المستحبات؛ لأنّ النبي ﷺ واظب عليها على كلِّ حال؛ في حال إقامته وفي حال سفره، في حال صحته وفي حال مرضه، وحَثَّ عليها ﷺ بقوله؛ فقال: «**وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل**»(١).

فالميزان الأوّل لتعرف الأفضل أن تنظر إلى حال النبي ﷺ مع الفعل، فما واظب عليه أو حث عليه حثًّا مؤكَّدًا فهو أفضل.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصيام، رقم: (١١٦٤).

الميزان الثاني: قدرة العبد على الاستمرار عليه.

فالعمل الذي تستطيع أن تداوم عليه أفضل من غيره؛ وإن كان غيره أفضل من حيث ذاته، فما داومتَ عليه واستطعتَ أن تداوم عليه أفضل مما هو أعلى منه، ولا تستطيع أن تداوم عليه.

أضربُ مثالًا: شخصٌ قال: أريدُ أن أجعل لي وردًا من الصلاة في الليل أحافظُ عليه؛ فكم ركعة أصلي؟ نقول له: انظر لِمَا تستطيع أن تداوم عليه، فإن كنتَ تستطيع أن تداوم على ثلاث ركعات، فالثلاث أفضل من إحدى عشرة بالنسبة لك، وإن كنت تستطيع أن تداوم على خمس، فالخمس أفضل من الإحدى عشرة بالنسبة لك، وهكذا، وإن كانت صلاة إحدى عشرة ركعة أفضل من حيث ذاتها.

ما الدليل على هذا الميزان؟ الدليل قول النبي ﷺ: «**وإنّ أحبّ الأعمال إلى الله ما دام؛ وإن قلّ**». متفق عليه[1].

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملًا أثبتوه) رواه مسلم في «الصحيح»[2].

فأحبُّ العمل إلى الله بعد الفرائض منك يا عبد الله: ما تُداوم عليه؛ وإن قلّ.

ولكن أنبه هنا إلى أنّ العبد إن اختار لورده الأقلّ لا يَمنَعُه ذلك من الزيادة إن وجد نشاطًا.

يعني لو أنّ إنسانًا ورده من قيام الليل هو خمس ركعات مثلاً وفي ليلة وجد نشاطاً أن يصلي إحدى عشرة ركعةً؛ فالأفضل أن يصلي إحدى عشرة ركعة، وهذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: اللباس، باب: الجلوس على الحصير ونحوه، رقم: (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٨٢).

إذا أردتَ أن تنظر إلى الأفضل من الصيام، وسألتني: ما الأفضل؟ أن أصوم الاثنين والخميس؛ أو أصوم ثلاثة أيام من كل شهر؟ وأنا لا أستطيع أن أجمع بينهما؟ نقول: ما الذي تستطيع أن تداوم عليه؟ هل هو الثلاثة أيام من كل شهر ولو مفرَّقة؟ أو الاثنين والخميس؟ فإن قلتَ: أستطيعُ أن أداوم على هذا وهذا ولا أستطيع أن أجمع؛ قلنا: الأفضل صيام الاثنين والخميس؛ لأنه الأكثر، ولأنّ النبي ﷺ كان يصوم الاثنين والخميس، فإن قلتَ: أنا أستطيع أن اداوم على صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وإن صمتُ الاثنين والخميس لا أستطيع المداومة عليها؟ قلنا: الأفضل أن تصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهكذا.

وهذا ميزانٌ عظيم، يغفل عنه كثير من الناس؛ لاسيَّما مع الحماسة للعمل الصالح.

بعض الناس قد يكون على معاصٍ، ثم يتوب؛ فيكون عنده حماس للعمل الصالح؛ فيبحث عن الأعلى عددًا، ثم لا يلبث أن ينقطع! فينبغي مراعاة هذا الأمر في اختيار الأعمال.

الميزان الثالث: مناسبتُه لوقته.

من الأعمال ما هو وظيفة الوقت، فالمناسِب للوقت أفضل، هذا من جهة وقت العمل.

يعني - مثلًا - إجابة المؤذِّن عند الأذان أفضل النوافل؛ أفضل من أن تقوم وتصلي، وأفضل من أن تقرأ القرآن، وأفضل من أن تصلي على النبي ﷺ؛ لأنّ هذه وظيفة الوقت.

ومن وجهٍ آخر؛ مناسبة العمل لوقت الإنسان، فاختر من الأعمال ما يتناسب مع وقتك؛ فإنه أدعى لإقبال قلبك.

يعني لو سألنا سائل: ما هو أفضل وقت أقرأ فيه القرآن؟ نقول: الأفضل يختلف، لكن ما هو أفضل وقت عندك تكون فيه فارغًا من الشغل فارغ الفِكر؟ إن قلتَ: بعد الفجر؛ نقول إذن: الأفضل بعد الفجر، تقول: في آخر الليل؛ نقول:الأفضل في آخر الليل، لماذا؟ لأنّ هذه أولًا أدعى لإقبال القلب؛ فتُقبِل على العمل بقلبك، والعمل إنما يَفضُل بإقبال العبد بقلبه على العمل.

ولذلك يصلي الناس في مسجد واحد ويتفاوتون في الأجر تفاوتًا عظيمًا مع أنهم في فرض واحد، وخلف إمام واحد؛ لكنهم يختلفون في قلوبهم؛ فهذا مقبِل على صلاته بقلبه من أوّلها إلى آخرها، وذاك لا يَستحضر إلا نصفها، وذاك لا يَستحضر إلا خمسها، وهكذا.

إذن الثالث: مناسبته لوقته، نقصد أمرين:

الأمر الأوّل: مناسبته لوقت العمل، بأن يكون هذا العمل وظيفة الوقت، فما كان وظيفة الوقت فهو أفضل.

إذا ذُكِر النبي ﷺ فإنّ الصلاة عليه في هذا الوقت، أفضل من قول: (لا إله إلا الله)، مع أنّ قول: (لا إله إلا الله) أفضل من الصلاة على النبي ﷺ في غير هذا الوقت؛ لكن إذا ذُكر النبي ﷺ فالصلاة عليه وظيفة الوقت؛ فتكون أفضل.

والأمر الثاني: وقت الإنسانِ نفسه، فإنه يختار لعمله أَفرَغ وقته؛ حتى يُقبل عليه بقلبه.

الميزان الرابع: تأثير العمل في القلب.

من المقطوع به أنّ للأعمال الصالحة آثارًا طيبة في القلوب، وتأثيرها عظيم، ويتفاوت فيه الناس.

ومن المعلوم أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا صلى الإنسان، فلابدّ أن تنهاه صلاته عن شيء من الفحشاء.

والتحقيق من أقوال أهل العلم: أنه لا يصلي مصلٍّ صلاة صحيحة إلا وتنهاه عن الفحشاء، ولكنّ الناس يتفاوتون في هذا الأثر، فمن الناس من تنهاه الصلاة عن الفحشاء حال اشتغاله بها تحبسه عن الفحشاء، فحال كونه مصليًا تنهاه صلاته عن الفحشاء، وهذا يحصل لكل مصلٍّ.

ومن الناس من تنهاه الصلاة عن الفحشاء، قبل الصلاة وبعد الصلاة، وهو سائر يستشعر أنه في صلاة؛ فتنهاه عن الفحشاء، وهو عائد يستشعر أنه كان يصلي فتنهاه عن الفحشاء، لكن قبل هذا وبعد هذا يحصل عنده خلل.

ومن الناس من تنهاه صلاته عن الفحشاء مطلقًا، وهذا بحسب أثر الصلاة في القلب.

ضربتُ هذا مثالًا لِمَا يقوله العلماء: إنّ للأعمال الصالحة آثارًا طيبة في القلوب وأنّ الناس يتفاوتون في هذا.

وكذلك يتفاوت الناس في نوع العمل الذي يؤثِّر فِي القلب، فمن الناس من يؤثّر في قلبه: التنفُّل بالصلاة، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر الدعاء، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر أن يقرأ القرآن بنفسه، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر: أن يستمع القرآن من غيره، فكلٌّ يكون الأفضل في حقّه - حالة تزاحم الأعمال، وأراد أن يختار الأفضل - ما كان أعظم أثرًا في قلبه.

لو قال قائل: ما هو الأفضل في آخر الليل؟ هل الأفضل أن أقرأ القرآن؟ أو أن أشتغل بالدعاء؟ نقول: من أنواع المفاضلة أن ننظر إلى الأكثر أثرًا في قلبك؛ فإن كانت قراءة القرآن يَنتُج منها انكسارٌ في قلبك، وخشوع وبكاء لله؛ فالقراءة أفضل، وإن كان الدعاء يَحصل به انكسارٌ لقلبك أكثر وخشوع فالدعاء أفضل،

وإن كان استماعك للقرآن من قارئ يجعل في قلبك من الخشوع أكثر من قراءتك؛ فالاستماع هنا أفضل، والكلام هنا **عند التزاحم**؛ إذا أراد الإنسان أن يختار الأفضل.

الميزان الخامس: القدرة والعجز.

فالذي تستطيعه هو الأفضل في حقك، والذي تعجز عنه ليس بفاضل في حقك، وإن كان فاضلًا من حيث الأصل.

ولذلك يقول العلماء: (إذا علمتَ أنّ عبدًا يعمل عملًا فاضلًا هو الذي يَقدِر عليه ولا يَقدِر على ما هو أعلى منه فلا تأمره بالأفضل؛ لأنّ الأفضل في حَقّهِ هو ما يقدر عليه).

الذي يستطيع أن يصوم ثلاثة أيام ولا يستطيع غيرها، لا تأتي إليه وتقول: الأفضل أن تصوم يومًا وتفطر يومًا؛ لأمرين:

الأمر الأول: أنه من الناحية الشرعية: ما يقدر عليه العبد فهو الأفضل في حقه، وهذا من رحمة الله؛ لأنه إذا فعل ما يقدر عليه، كتب الله له أجر ما يقدر عليه وأجر ما يَعجز عنه؛ إذا كان صادق النية.

والأمر الثاني: لأنك لو أمرتَه بالأفضل، زهّدتَه فيما يَعمل، ولا يستطيع أن يعمل ما تقول إنه الأفضل.

مثلاً تقول له: والله فعلك حسن، تصوم ثلاثة أيام، لكن الأحسن أن تصوم يومًا وتفطر يومًا، تحثه وتقول: هناك عباد من عباد الله يصومون يومًا ويفطرون يوماً سبقوك إلى الجنة! لأنه لا يستطيع أن يصوم يومًا ويفطر يومًا فيزهد في الثلاثة أيام، وقد يتركها، ولا يستطيع أ ن ينتقل إلى الأفضل، وهذا من الفقه العظيم.

إذن الأمـر الخامس في معرفة الأفضـل: القدرة والعجز؛ بحيث تعلم أيها العبد المبـارَك أنّ مـا تَقْـدِرُ عليـه من الأعمـال أفضل في حقـكَ مما تعجز عنـه؛ وإن كان المعجوز عنه أفضل من حيث الأصل.

فهذه الموازين الخمسة لمعرفة أفضل الأعمال:

الأول : مواظبة النبي ﷺ للعمل ، وحثه عليه حثاً مؤكداً.

الثاني : القدرة على المداومة عليها، فإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ، وكان أحب العمل الى النبي ﷺ ما داوم عليه صاحبه.

الثالث : مناسبته للوقت، وقلنا إن الوقت يقصد به أمران:

١- وقت الفعل.

٢- ووقت الفاعل.

الرابع : أثره في القلب، لأن للعمل أثراً في القلب ، ويتفاوت الناس في هذا، فما كان أعظم أثراً للقلب كان أفضلَ بالنسبة للإنسان.

الخامس: القدرة والعجز؛ فما كان قادراً عليه الإنسان فهو أفضل مما يعجز عنه، سـواء كان العجـز حالياً ، أو فيما يأتي من الزمـان، ويُلحظ هنا أن العجز قد يكون حِسـياً بأن يكون الإنسـان عاجزاً عن العمل فعلاً إما لسـبب عائد إليه، أو لسـبب عائـدٍ إلـى خارج، وقد يكـون معنوياً؛ بحيث لا يجد الإنسـان أنه فُتـح له في هذا الأمر ، فيرى أنه عاجزٌ عنه لأنه لم يفتح عليه فيه.

هذه موازين معرفة الأفضل من الأعمال بالنسـبة لكل إنسـان، فإذا عرف العبد هذا؛ فإنه يكون عارفًا - إن شاء الله - بالأفضل في حقِّه، وإن كان العالم لا يستطيع أن يقولَ إنّ الأفضل في حق الناس جميعًا هو كذا؛ لاختلافهم فيما ذكرناه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لكنّ مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره، أنّ ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغَلَ به العبد نفسه في الجملة).**

تكاد تتفق كلمة السلف – إن لَمْ تتفق، ولا أعرف خلافًا بينهم في هذا – على أنّ أفضل الأعمال بعد الفرائض المتعيِّنة على كل فرد ثلاثة:

١. الجهاد في سبيل الله.

٢. والعلم.

٣. وذِكر.

أمّا الجهاد في سبيل الله؛ فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «دلَّني على عمل يَعدِل الجهاد» يعدل: أي يساوي قال النبي ﷺ: «**لا أجده**» أي لا أجد عملًا يعدل الجهاد؛ يعني بعد الفرائض، ثم قال: «**تستطيعُ إذا خَرَجَ المجاهد أن تَدخل مسجدك، فتقوم ولا تَفتُر، وتصوم ولا تُفطِر؟**» قال: الرجل: من يستطيع ذلك؟! متفق عليه[1].

إذن هذا الحديث يدلّ دلالةً بيّنةً على أنّ الجهاد أفضل الأعمال بعد المفروضات، وقد جاء ذلك عن بعض السلف؛ قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما من عمل أفضل من الغزو بعد حجة الإسلام)؛ يعني: بعد الفرائض.

وأمَّا العلم؛ فقد قال النبي ﷺ: «فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم». رواه الترمذي، وصححه الألباني[2].

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، رقم: (٢٧٨٥)، ولم أقف عليه في «صحيح مسلم».

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: (٢٦٨٥)، وصححه الألباني فيه.

«**فضل العالِم على العابد**» العالِم: هو كثير العلم، العابد: كثير العبادة بلا علم، «**كفضل النبي على أدناكم**» أي على أدنى الصحابة أو على أدنى الأمة، ولا شك أنّ فضل النبي ﷺ، على أعلى الصحابة فضل عظيم؛ فكيف بفضله على أدنى الصحابة؟! هذا فضل العلماء، وفضلهم عظيم.

وإنك لتعجب أيّما عجب من أناس يَنتسبون إلى الفضل ويَدّعون العلم يَقدحون في العلماء الربّانيين ويَطعنون في العلماء الربّانيين، ويَتنقَّصون فضلهم، والنبي ﷺ، يقول فيهم هذا الفضل العظيم!

ومما أعجبني من كلام مشايخي وصية أوصاني بها أحد مشايخي، فقال: (يا سليمان! لا ترضَ لنفسك أن تكون أقل درجة من الحيوان) قلتُ: كيف؟ قال: (إياك أن تتنقّص العلماء الربّانيين المشهود لهم بالسنة والتّوحيد؛ بل ليكن شأنك دائمًا أن تَذكر فضلهم، وأن تستغفر لهم؛ فإنّ النبي ﷺ قال: «**وإنّ العالم ليَستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء**»، وفي الحديث الآخر: «**إنّ الله وملائكته وأهلَ السماوات وأهلَ الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليُصلُّون على معلّم الناس الخير**»[1]، هذا من جهة فضل العالِم.

ومن جهة فضل العلم؛ قال النبي ﷺ: «**فَضْلُ العلم خير من فَضْلِ العبادة**» رواه الحاكم وصححه، والطبراني، وصححه الألباني[2]، فدلّ ذلك على أنّ الزيادة في العلم خير من الزيادة في العبادة.

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) «المستدرك» للحاكم (١/ ٩٣)، و«المعجم الأوسط» للطبراني، رقم: (٣٩٦٠)، وانظر «صحيح الجامع» للألباني رقم: (٤٢١٤).

وقد قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما من عمل أفضل من طلب العلم؛ لمن صحتْ نيّته).

وأمّا ذكر الله، فتأتي النصوص في تفضيله في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (لأن أذكر الله من غدوة حتى تَطلُع الشمس، أحبُّ إليّ من أن أَحمِل على الجهاد في سبيل الله من غدوةٍ حتى تطلع الشمس)[1]، فهنا ذكرتُ لكم نصًّا يدلّ على تفضيل واحدٍ من هذا الثلاثة، ولفظًا عن السلف يدلّ على تفضيل واحدٍ من هذه الثلاثة.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ أفضل الأعمال: الصلاة، والجهاد، والعلم، بإجماع الأمّة، فالصلاة المفروضة أفضل المفروضات، والعلم، والجهاد.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التحقيق: أنّ المراتب ثلاثة:

أوّلها: ذكر الله والجهاد معًا؛ فهذا فيه جَمْعٌ بين الذِّكر والجهاد، وهذا أفضل المراتب.

وثانيها: ذكر الله بلا جهاد؛ وهذا ثاني المراتب فضلًا.

وثالثها: الجهاد بدون ذكر الله؛ وهذا ثالث المراتب).

ووجه تقديم الذِّكر على الجهاد: أنّ الجهاد وسيلة إلى ذكر الله، وإنما يُجاهَد لِيُقام ذكر الله، فيكون المقصودُ أعظمَ من الوسيلة.

وبما أنّ الجهاد من باب الوسائل، والذكر من باب المقاصد؛ فإننا نستطيع أن نقول: إنّ أفضل الأعمال بعد الفرائض التي هي من باب الوسائل: الجهاد في سبيل الله، وإنّ أفضل الأعمال بعد الفرائض مما هو مِن باب المقاصد: الذكر.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» برقم (١٧٣)، وابن المبارك في «الزهد» برقم: (١١٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم: (٣٠٠٧١).

ثـم من المعلوم أنّ المقاصد أفضل مِن الوسـائل؛ ولذلـك ذهب أكثر العلماء من السلف والخلف إلى أنّ الأفضل: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وقال هنا شيخ الإسلام ابن تيمية: (**كالإجماع**)؛ بمعنى أنّ القائلين به كثرة كاثرة جدًّا؛ حتى أشبَه الإجماع.

ونحـن قلنـا إنّ أفضـل الأعمال بعد الفرائض المتعينة عند السـلف – بما يُشبِه الاتفاق إن لَمْ يكن اتفاقًا – ثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والعلم، وذكر الله، وشيخ الإسلام: يُدخِل العِلم في ذكر الله، فبقي عملان: ذكر الله والجهاد.

ويـرى رَحِمَهُ اللَّهُ: أنّ ذكـر اللـه أفضل مِـن الجهاد؛ ولذلـك قال هـذه الجملة التي معنـا: (**لكـن مما هو كالإجمـاع**) لماذا قـال: (**كالإجماع**) ولم يقـل: بإجماع؟ لأنّ مِـن السـلف من يقدّم الجهـاد – كما قدّمنا قبل قليل – لكنّ أكثر السـلف يقدّمون ذكر الله؛ ولذلك قال: (**كالإجماع**)؛ يعني أنّ القائلِين به هم الأكثر كثْرَة كاثِرة مِن مقدّمي غيره عليه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره**): العلماء بالله: هم الذين يخافون الله ويخشَونه، والعلماء بأمر الله: هم الفقهاء الذين يَعرفون الحلال والحرام. فشيخ الإسلام يقول: (**كالإجماع بين العلماء بالله وأمره**) العلماء الذين يخافون الله ويخشَونه، ويَفقهون؛ دينه فيعرفون الحلال والحرام.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**أنّ ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما أشغل العبد به نفسه في الجملة**).

ملازمـة العبـد ذكـر اللـه وكثـرة جريان اللسـان بذكـر اللـه: أفضل مـا تقرّب بـه العبـد إلـى اللـه بعـد الفرائض عنـد أكثـر السـلف الصالـح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لقـول الله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، [العنكبـوت: ٤٥] قيـل فـي معناها: (ذكر الله العباد أكبر من ذكرهـم لـه؛ فإنه مـا ذكر أحدٌ ربه في ملأ إلا ذكره في مـلأ خير منه، ولا ذكر أحدٌ ربه في نفسه إلا ذكره الله في نفسه).

إذن ذكـر الله العبادَ أكبر من ذكرهم له؛ فكيف تملّ من ذكر الله؟! كيف تملّ من ذكـر اللـه وأنت كلما ذكـرتَ الله ذكرَكَ الله، مجرد استشـعار هذا مـاذا يعمل في القلب؟ كلّما ذكرتَ الله ذكرك الله! وبنوع ذِكْرِك يذكرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقـال بعض أهل العلـم: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ معناه: إنّ ذكـر الله أكبر من كل شـيء؛ يعنـي: بعـد الفرائض، ولا مانـع من الأمريـن؛ فهذا اختلاف تنـوُّع وليس اختلاف تضاد؛ ذكر الله العبادَ أكبر من ذكرهم له، وذكر العباد لربهم أكبر من كل شيء من الأعمال إلا المفروضات.

قيل لسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أيّ العمل أفضل؟ قال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله) رواه الطبري عنه[(١)].

فجريان اللسـان بذكر الله مع تواطؤ القلب على هذا، واسـتحضار عظمة الله، أفضـل الأعمـال التي يتقرّب بها العبد إلـى الله بعد الفرائـض، وفي نفس الوقت هـي أخف الأعمال، أنت جالـس، ما الذي يمنعك أن تقول: سـبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، سـبحان الله وبحمده سـبحان الله العظيم، سـبحان الله وبحمده سبحان الله؟! ما الذي يمنعك؟ لا حائل يحول بينك وبين ذلك، ولا تحتاج لأن تقوم، ولا تحتاج لأن تتوضأ، ما تحتاج إلى شيء، من أسهل ما يكون.

وهـذا إذا تأمّلنـاه، يبيِّن لنا عِظم رحمة الله بهذه الأمّـة، وأنه لا يَهلَك على الله إلا هالِك.

فالذنوب يغفرها، وجعل مكفرات تكفّرها وتمحوها، والحسنات جعل الفرائض مسـتطاعات، والنوافـل جعل أفضلها أيسـرها وأسـهلها للعبد، فلا إلـه إلا الله ما أعظم رحمة الله بهذه الأمة!

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٨/ ٤١٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلى ذلك دلّ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي رواه مسلم: «سَبَقَ المفرِّدون، قالوا: يا رسول الله! ومن المفرِّدون؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[١]).

هذا الحديث في «صحيح مسلم»، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبق المفرِّدون**»، والمفرِّدون: قال بعض أهل العلم: هم الذين ذهب أقرانهم وبقُوا، والعادة أنّ الإنسان إذا ذهب أقرانه تتهذّب نفسه، كلّما فقد أحدًا من أقرانه كلّما خاف الموت وخاف الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى هذا المعنى يكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يقول: إنّ الذكر يُهذِّب النفس؛ كما يهذِّبها موت الأقران.

وقيل: إنّ المفرّدين: هم الذين انقطعوا لعبادة الله، فيكون المراد: أنّ الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، كأنهم اعتزلوا الناس؛ لكثرة ذكرهم، فتجدهم قليلي الحديث مع الناس، يشتغلون بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**سبق المفرِّدون**، قالوا: يا رسول الله، من المفرِّدون؟» من تعني بالمفرِّدين؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**» أي الذاكرات الله، وهذا دليل على فضيلة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنّ العبد بإكثاره من ذكر الله يَسبِق غيره، وأنك يا عبد الله في الدنيا في سباق؛ فسابِق ومسبُوق، وأنّ من أعظم ما يُعينك على السَّبْقِ: أن تُكثر من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورِق، ومن أن تلقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناكم»؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «ذكر الله»).

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٧٦).

هذا الحديث العظيم رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، ورواه الإمام مالك في «الموطأ» من قول أبي الدرداء رضي الله عنه،[١] قال ابن عبد البر: وهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالاجتهاد، بل الروايات الأخرى تدلّ على أنه مرفوع.

وبحثتُ عنه في أبي داود بلفظه ومعناه فلم أجده، وقد قال شيخ الإسلام هنا (**فيما رواه أبو داود**) فإما أن يكون ذلك سَبْقَ ذهنٍ؛ لأنّ أكثر كتابة شيخ الإسلام من حفظه، وقد تعقّبتُه في كثير مما يَكتب فوجدتُه أنه يأتي بالأشياء في ألفاظها حتى في كلام السلف، لكن لعله سَبَقَ ذهنه هنا فقال: (**فيما رواه أبو داود**)، ويمكن أن يقال: لعله في نسخة لَمْ تبلغنا، لكنّ الأول أقرب، والله أعلم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم**»؟ أي: عند ربكم سبحانه وتعالى «**وأرفعها في درجاتكم؟ وخير لكم من إعطاء الذهب والورِق؟**» يعني خير لكم من النفقة في سبيل الله؛ أي النفقة غير المفروضة، «**ومن أن تلقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم**» وفي رواية: «**من أن تلقوا عدوكم غدًا فتضربوا أعناقهم؟ ويضربوا أعناقكم**» قالوا: بلى، يا رسول الله،قال: «**ذكر الله**»؛ وهذا يدلّ على أنّ ذكر الله أفضل النوافل.

فإن قال قائل: إنّ ظاهر الحديث يدلّ على أنّ ذكر الله أفضل مطلقًا، نقول: دلّ الحديث الذي قدّمناه على أنّ أفضل الأعمال هو ما افترضه الله على العباد، فيكون هذا في تفضيل الذِّكر على النوافل.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد (٣٣/ ٣٦) رقم: (٢١٧٠٢)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٧)، و «السنن» لابن ماجه كتاب: الأدب، باب فضل الذكر، رقم: (٣٧٩٠)، و«الموطأ» للإمام كالك، كتاب: القرآن، باب: ما جاء في ذكر الله، رقم: (٢٤)، وانظر «صحيح الترمذي» للألباني.

ولـو قال قائل: إنّ ذكر الله منه ما هو مسـتحب، ومنه مـا هو واجب، نقول: إنّ ذكر الله من حيث هو ليس أفضل الفرائض، فأفضل الفرائض الصلاة.

ولذلك أحسن ما يُحمَل عليه الحديث أنّ أفضل النوافل: ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والدلائل القرآنية، والإيمانية، بَصرًا، وخبرًا، ونظرًا على ذلك كثيرة).

أي: الأدلة من الكتاب والسـنة؛ لأنّ الدلائل القرآنية: هي الكتاب والسـنة؛ لأنّ القرآن ورد فيه أمرُنا باتّباع السـنة، ولذلك لـمّا ذكر بعض السلف أمرًا فقيل له: إنّ هـذا ليس في كتاب الله، قـال: بلى هو في كتاب الله ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشـر: ٧] كأنه يقول: أنا أقول: قال رسـول الله ﷺ كذا، وربنا قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ إذن معنى هذا: خذوا قول الرسول ﷺ هذا.

ولذلك فالتحقيق: أنّ السنة مثل القرآن؛ «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**»(١).

فإذا قلنا: الدلائل القرآنية؛ فإنها عند المحققين تدخل فيها الآيات والأحاديث، وإذا قلنا : الدلائل القرآنية والخبرية، تصبح الدلائل القرآنية: الآيات، والخبرية: السنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والدلائل القرآنية والإيمانية بَصرًا وخبرًا): لعله يريد بالخبر: السنة، والإيمانيـة بصرًا: أي ما يسـميه العلماء بالدلائل الوُجدانيـة، التي يجدها العبد في نفسه؛ بمعنى: ما يراه الإنسان بعينه وبصره ،ومَا يجده في نفسه من أثر الذكر، يدل على فضيلة الذكر.

---

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، رقم: (٤٦٠٤)، والترمذي في «الجامع» أبواب: العلم، باب: ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، وابن ماجه في «السنن»، أبواب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: تعظيم حديث رسول ﷺ، رقم: (١٢)، وصححه الألباني فيها.

إذن ندلِّل على فضيلة الذكر بأربعة أمور:

١- بقول الله.

٢- وقول الرسول ﷺ.

٣- ومَا نـراه بأعيننا من أثر الذكر، فإن الإنسـان يرى فـي الوقائع كيف أنّ ذكر الله يؤثّر تأثيرًا عظيمًا.

٤- ومَا نحسُّه في قلوبنا من أثر الذكر.

كل هـذا يدلّ على فضيلة الذكر، وهذا معنى قول الشـيخ: **(والدلائل القرآنية)** أي: الآيـات، **(والإيمانيـة)** أي: الوجدانيـة التـي يجدهـا أهل الإيمان فـي قلوبهم، **(بصرًا)** أي: ما يرونه بأعينهم من أثر الذكر، **(وخبرًا)** أي: في السنة.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأقلُّ ذلـك أن يلازِم العبـد الأذكار المأثورة عن معلّم الخير، وإمام المتقين ﷺ) .**

يعني أنّ أقلّ الذكر الذي يكون به الإنسـان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات: أن يـلازِم الأذكار المأثـورة عن النبي ﷺ؛ الذي هو معلِّم الخير، والخير يُنسَـب إلى تعليمِه.

والمعلـوم أنّ مـا ورد عـن النبي ﷺ من الأذكار ذكرٌ عظيم شـريف، فلماذا قال شيخ الإسلام هنا: **(وأقلّ ذلك)**؟ لماذا وصف ذلك بالقلّة؟

نقول: إنّ المقصودَ هنا ليس التقليلَ من شـأن المذكور؛ وإنما المقصودُ بيان أقلّ ما يكـون الإنسـان به من الذاكرين اللـه كثيرًا والذاكرات؛ لأنّ ذكـر الله أعمُّ من ذكر اللسـان، فهو يشمل ذكر اللسـان والقلب، ومَا يكون من الأعمال متعلِّقًا باللسان؛ كالتعليـم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأكمل الذِّكر أن يَحرص الإنسـان على كلِّ هذا.

وأقلّ الذكر الذي يكون به الإنسان من الذاكرين الله والذاكرات: أن يحافظ على الأذكار المأثورة عن النبي ﷺ.

والمقطوع به أنّ معلِّم الخير هو النبي ﷺ، وقد ثبت في الحديث أنّ الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى الحوت وحتى النملة في جحرها لَيُصلُّون على معلِّم الناس الخير[1]، والمعلِّمون كُثر، وإذا أردنا أن نعرف الميزان فلننظر إلى ما يُعلِّمه الإنسان، ونسبته إلى ما عَلَّمه النبي ﷺ، فإن كانت نسبة تعليمه إلى تعليم النبي ﷺ موافَقة؛ فهو معلِّم للخير، وإن كانت نسبة تعليمه لتعليم النبي ﷺ نِسبةَ تداخل؛ فهذا فيه تعليم للخير، وإن كانت النسبة مبايَنة؛ فهذا معلِّمُ شرٍّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإمام المتقين)** فالنبي ﷺ إمام المتقين وسيدهم، ولن يسبقه أحد لا بنصح ولا باجتهاد في العبادة.

والله الذي لا إله إلا هو، إذا رأيتَ شخصًا ينصحك بغير ما ورد في السنة، فاعلم أنه لَمْ ينصحك بخير، فإنّ النبي ﷺ لا يَسبِقه أحدٌ في النصح، وإنما النُّصْحُ ما ورد في سنة النبي ﷺ.

ولن يسبقَهُ أحدٌ في اجتهاد في عبادة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**أما إني أتقاكم لله وأخشاكم لله**» فلن يَسبقه أحد ﷺ في عبادة لا في ذكر ولا في غير ذكر.

فمن لزم سنته ﷺ، قولًا وفعلًا فقد استقام وعرف الطريق الأقوم.

ولذلك عندما جاء أولئك الثلاثة النفر إلى بيوت أزواج النبي ﷺ فسألوا عن عبادته، فلمّا أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها، فقال أحدهم: فأمّا أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: وأمّا أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثالث: فأمّا أنا فأقوم فلا أرقد، فلمّا

(١) تقدم تخريجه.

لقيهـم النبي ﷺ قال: «**أنتـم الذين تقولون كذا وكذا؟**» قالوا: نعم يا رسـول الله، قال: «**أما إني أتقاكم لله وأخشاكم لله، أما إني أصوم وأُفطِر، وأقوم وأَرْقُد، وأتزوج النساء، فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني**»، رواه البخاري في «الصحيح»[(١)].

وهذا حكم عامٌ «**من رَغِبَ عن سنتي فليس مني**»، فالموفّق من عباد الله من لَزِمَ المأثور عن النبي ﷺ.

والمأثور عن النبي ﷺ من الأذكار نوعان: مقيَّدٌ، ومطلق.

مقيَّد: بمعنى أنه مضاف إلى وقت أو سبب.

ومطلق: وهو الذي لَمْ يُضَفْ إلى شيء من ذلك.

وبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بالأذكار المقيّدة بالزمن.

قـال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (كالأذكار المؤقَّتـة فـي أوّل النهار وآخـره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كالأذكار المؤقَّتة في أوّل النهار وآخره) وهذه كثيرة وتسمّى أذكار الصباح والمساء، ويُسنُّ للمسلم أن يحرص على حفظها وملازَمَتِهَا.

وهنا أنبه إلى شـيء وهو: أنه ليس شـرطًا أن يحفظها كلهـا دَفعة واحدة، أو أن يأتيَ بها كلها دَفعة واحدة، بل يحفظ ما استطاع؛ يحفظ ذكرًا واحدًا مثلًا من أذكار الصباح وأذكار المساء، ويأتي به، فإذا أتقنه حَفِظَ الذكر الثاني، وهكذا.

لماذا أنبه على هذا! لأن بعض المسـلمين يترك أذكار الصباح والمسـاء كلها، وإذا قلت له: لماذا؟ يقول: لم أسـتطع أن أحفضها، فنقول: لا يشـترط أن تحفضها كلها، ائت بما تحفظ ثم احفظ وأت بما تزيد؛ وهكذا.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، رقم: (٥٠٦٣).

ومن ذلك مثلًا قراءة آية الكرسيّ، فلو أنّ الإنسان قرأ آية الكرسي عند الصباح وعند المساء، فقد جاء بذكر من أذكار الصباح والمساء(١).

كذلك أن يقول الإنسان: (سبحان الله وبحمده) مائة مرة في الصباح والمساء؛ فهذا ذكر من أذكار الصباح والمساء(٢).

ووقت هذه الأذكار: وقت الصباح ووقت المساء.

ووقت الصباح مختلف فيه، والصحيح: أنه يبدأ من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ويمتدّ إلى وقت الضحى.

ووقت المساء: يبدأ قُبيل العصر إلى غروب الشمس، ويمتد بعد الغروب شيئًا.

وأذكار الصباح والمساء، منها ما دلّ الدليل على أنه يقال قبل انفتاق النور، أو بعد الإظلام؛ فهذه تكون مخصَّصة في أوَّل وقت الفجر، وفي آخر وقت المساء عند الغروب، ومَا لَمْ يَرِدْ فالإنسان مُخيَّرٌ فيه.

وبعضُ أهل العِلم يرَون أنّ الأفضل أن يفرِّقها لتكون وظيفة الوقت، وهذا في الحقيقة طيِّب إن لَمْ يؤدِّ إلى تضييعها، فإن كان يؤدي إلى تضييعها فليسردها المسلم في وقتٍ واحدٍ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعند أخذ المضجع)** أي: إذا أراد الإنسان أن ينام؛ كقراءة آية الكرسي(٣)، وقراءة سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الكافرون:١](٤)، وقول: «**بسم**

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٢٠١)، رقم: (٥٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم: (٦٦٢).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح»، كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٦٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوكالة، باب: إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا...، رقم: (٢٣١١).

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع»، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم: (٣٤٠٣)، وصححه الألباني فيه.

الله وضعتُ جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسئ شيطاني، وفكَّ رهاني، واجعلني في النديِّ الأعلى»(١)، وقول: «**باسمك اللهم نموت ونحيا**»(٢)، وغير ذلك مما ورد عن النبي ﷺ.

وأقول كما قلتُ أوّلًا: لا يُشترَط أن يُؤتى بها كلِّها، احفَظ واحدًا، وحافظ عليه، ثم زد عليه ولا تترك القليل؛ من أجل أنك لا تستطيع الكثير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعند الاستيقاظ من المنام)** كأن يقول الإنسان: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»(٣).

وكلُّ هذا ثابت عن النبي ﷺ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأدبار الصلوات)** أي: الأذكار عَقِبَ الصلوات؛ كقول: «**أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام...**»(٤)، إلى آخر الأذكار التي هي عَقِبَ الصلوات.

وهنا أذكر فائدة ذكرها بعض أهل العلم؛ وهي: **(أنّ كلَّ دعاء قُيِّد في السنة بدُبر الصلاة؛ فهو فيها)** يعني: في نفس الصلاة، **(وكلُّ ذكر قُيِّد في السنة؛ فهو تاليها)** أي: بعد الفراغ من الصلاة.

ومبنى هذا: الاستقراء، فإنّا استقرأنا حال النبي ﷺ فوجدنا دعاءه في الصلاة، ولم يثبت عنه دعاء بعد الصلاة على وجه يصح لا تأويل فيه، ووجدنا ذكر النبي ﷺ بعد الصلاة.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: النوم، باب: ما يقال عند النوم، رقم: (٥٠٥٤)، وصححه الألباني فيه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، رقم: (٦٣١٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٧١١).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، رقم: (٦٣١٢).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في «الصحيح» كتاب: المساجد، رقم: (٥٩١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والأذكار المقيَّدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك، وقد صُنّفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة).**

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والأذكار المقيَّدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب)** أي: الأذكار المقيَّدة بأحوال؛ مثل ما يقال عند الأكل «**بسم الله**»[(١)]، ولم يرد قول (بسم الله الرحمن الرحيم) عند الأكل، وإنما يقول «**بسم الله**» فهذا ذكر عند الأكل.

وعند الفراغ مثلًا يقول: «**اللهم أطعمتَ وأسقيتَ وأغنيتَ وأقنيتَ وهديتَ وأحييتَ؛ فلك الحمد على ما أعطيتَ**» هذا ورد عن النبي ﷺ بإسناد حسن[(٢)].

والشرب مثل الأكل؛ أن يقول «**بسم الله**».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(واللباس)** إذا استجدّ ثوبًا أن يقول: «**اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، ورزقتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنِع له**»[(٣)]، وإذا تعرّى من ثيابه فإنه عند التعرِّي يقول: «**بسم الله**»؛ ففي ذلك سترٌ له من عيون الجن والشياطين[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الأطعمة، باب: التسمية على الطعام، رقم: (٥٣٧٦)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الأشربة، رقم: (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» كتاب: الأطعمة، باب: ما يقول إذا رفعت مائدته، رقم: (٦٨٧١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧١).

(٣) أخرجه أبوداود في «السنن» كتاب: اللباس، رقم: (٤٠٢٠)، والترمذي في «الجامع»، أبواب: اللباس، باب: ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً، رقم: (١٧٦٧)، وصححه الألباني فيها.

(٤) أخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب: الطهارة وسننها، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، رقم: (٢٩٧)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٥٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والجماع) يقول عنده: «**بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا**»[١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ودخول المنزل) إذا دخل الإنسان المنزل فإنه ورد في ذلك أحاديث، ضعّفها بعض أهل العلم، وحسّنها بعض أهل العلم[٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمسجد) وإذا دخل المسجد يُسلِّم على النبي ﷺ يقول: «**بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك**».

وعند الخروج يقول: «**بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك**»[٣].

قال العلماء: المناسبة: أنّ الإنسان إذا دخل المسجد يَدخل مكان عبادة؛ فناسَب أن يسأل الرحمة؛ لأنه «**لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:**«**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[٤].

وإذا خرج فإنه مقبِل على الرزق فيسأل الله من فضله، وكلُّ هذا جاء عن النبي ﷺ بأسانيد صالحة.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم: (١٤١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: النكاح، رقم: (١٤٣٤).

(٢) من ذلك قوله ﷺ: «**إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله**» أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا دخل بيته، رقم: (٥٠٩٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» بنحوه مُختصراً، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٣).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت، رقم: (٥٧٣)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، رقم: (٢٨٢٦).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والخـلاء)** وعنـد دخول الخلاء يقـول: «**اللهم إنـي أعوذ بك من الخُبُث والخبائث**»[١].

وعند الخروج من الخلاء يقول: «**غفرانك**»[٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعند المطر)** فعند المطر يقول: «**اللهم صيِّباً نافعاً**»[٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والرعد إلى غير ذلك)** وعند الرعد يقول: «**سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**»[٤]. إلى غير ذلك من الأحوال.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد صُنِّفت له الكتب المسـمّاه بعمل اليـوم والليلة)** كعمل اليوم والليلة للنسائي، وابن السنيّ، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم ملازمة الذكر مطلقًا، وأفضله: لا إله إلا الله).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(ثم ملازمة الذكر مطلقًا)** هذا الذكر المطلَق الذي لَمْ يُقيَّد بزمن أو بسبب، وأفضله على الإطلاق: قراءة القرآن.

قـراءة كلام الله هي أفضـل الذكر، وكان النبي ﷺ، يداوم علـى قراءته، فأفضل ما يذكر به العبد ربه أن يُرتّل كلامه، وأن يقرأ كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم ما ذكره شيخ الإسلام هنا.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوضوء، باب: ما يقول عند الخلاء، رقم: (١٤٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحيض، رقم: (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الطهارة، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء، رقم: (٣٠)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الطهارة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٩٨٢٤)، وابن ماجه في «السنن» أبواب الطهارة وسننها، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٣٠٠)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الاستسقاء، باب: ما يقال إذا مطرت، رقم: (١٠٣٢).

(٤) أخرجه الإمام مالك في «لموطأ» كتاب: الكلام، باب القول إذا سمعت الرعد، رقم: (٢٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٧٤٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الكلم الطيب» (ص: ١٣٥) موقوفاً على ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(وأفضله: لا إله إلا الله)** أي: أفضله بعد قراءة القرآن قول: لا إله إلا الله، من حيث هو ذكر؛ وذلك لقول النبي ﷺ: «**خير ما قلتُ أنا والنبيون قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**» رواه الترمذي، وحسّنه الألباني(١).

وهذه الخيريَّة لأنّ في هذه الكلمة العظيمة توحيد رب العالمين، ففي هذه الكلمة العظيمة إثباتُ العبادةِ لله وحده، ونفيُ العبادةِ عما سواه، ولذلك كان لها هذا الفضل العظيم.

وقد قال النبي ﷺ: «**أفضل الذِّكر: لا إله إلا الله**» رواه الترمذي، وابن ماجه، وحسّنه الألباني(٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(وقد تَعرِض أحوال يكون بقيَّة الذِّكر مثل: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أفضل منه).**

الذكر المطلَق أفضلُهُ قراءة القرآن، ثم قول: لا إله إلا الله، وهذا أمرٌ يسير على العبد أن يكرِّرَهُ وأن يقول: لا إله إلا الله، على الوجه المشروع، لا على وجه بدعيّ.

لكنّ القاعدة عند أهل العلم: (أنّ الفاضِل والمفضول قد يَتعاوران بسبب اختلاف الأحوال)، ومعنى يَتعاوران: يكون المفضول فاضلًا والفاضِل مفضولًا.

يقول بعض أهل العلم: المفضول تَعرِض له أحوالٌ يكون أفضل بسبب مصلحة ظهرتْ في ذلك؛ إما عائدة إلى الإنسان نفسه أو عائدة إلى غيره.

---

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٥٨٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٠٣).

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الأدب، باب فضل الحامدين، رقم: (٣٨٠٠)، وانظر «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٩٧).

فعندما نقول: أفضل الذكر (لا إله إلا الله) ؛ إذن قول (سبحان الله) مفضول بالنسبة للا إله إلا الله، لكن قد تَعرِض للإنسان حال يكون قول (سبحان الله) أفضل في حقِّه؛ كأن يكون - مثلًا - نزل منخَفَضًا فيكون قول (سبحان الله) هنا أفضل من قول (لا إله إلا الله)؛ لِمَا عَرَضَ من الحال.

فمعنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قد تَعرِض للمكلَّف أحوال يكون قول (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) أنفع في ذلك الحال وأصلح في ذلك الحال؛ فتكون أفضل.

وهذه الكلمات فضلهن عظيم، فكونهن مفضولات بالنسبة لـ(لا إله إلا الله) لا يعني أنه لا فضل لهن، بل فضلهن عظيم ومقامهن كريم، وقد قال النبي ﷺ: «**لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ أحبَّ إليّ مما طلعت عليه الشمس**»، رواه مسلم[1].

وهذا يُنبّهنا إلى شيء - وقد ذكرناه سابقًا ونكرِّره - وهو: أنّ الجمع بين الفضائل ما أمكن أحسن، فهنا النبي ﷺ جمع بين قول (لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر)، لكن قد يَعرِض حالٌ يكون المفضول فاضلًا؛ كما قلنا لو نزل منخفضاً أو نحو ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا حول ولا قوة إلا بالله)**: هذه جملة عظيمة، وإن كانت مفضولة بالنسبة للا إله إلا الله، وقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**» متفق عليه[2].

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم: (٤٢٠٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٧٠٤).

ومعنى (لا حـول ولا قوة إلا بالله): أنه لا يُتحوَّل مـن حال إلى حال إلا بعَون الله، ولا قدرة على هذا إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا قول أكثر العلماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) أي: لا قدرة على التمسُّك بالطاعة وترك المعصية إلا بعَون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا نوع من الأوّل؛ لا تحوّل من حال إلى حال إلا بإعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا قوة وقدرة على ذلك إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمثلًا عند خروج الإنسان من بيته هل الأفضل أن يقول (لا إله إلا الله) أو يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)؟ الأفضل أن يقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) في ضمن الذِّكر الذي يقوله إذا خرج من بيته؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا خرج الرَّجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال: حَسبُك، هُديتَ وكُفيتَ ووُقيتَ، وتنحّى عنه الشيطان**» رواه الترمذي، وصححه الألباني[1].

ومن ذلك أيضًا قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) إذا قال المؤذِّن: (حيَّ على الصلاة)، أي: لو كان عندنا رجلان يسمعان المؤذِّن، فقال المؤذِّن: (حيَّ على الصلاة) ، فقال أحدهما: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وقال الآخر: (لا إله إلا الله)، كان الأوّل أفضل؛ لأنّ قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) هنا أفضل، وهذا من باب تزاحم الذِّكر المقيَّد مع الذكر المطلق، من باب تزاحم الذكر المقيَّد - الذي هو مقيَّد مع الأذان - بالذِّكر المطلَق وهو قول: (لا إله إلا الله).

وقد يتعارض الفاضل والمفضول باعتبار حال القلب، فقد يكون عَرَضَ للإنسان ضَعْفٌ في دينه، أو نزل به شيء أَضْعَفَه، فيكون محتاجاً لأن يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) يتقوّى بها؛فيكون قولها هنا أفضل؛ من أجل هذه الحاجة.

---

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته، رقم: (٣٤٢٦)، وصححه الألباني فيه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم يُعلَم أنّ كلَّ ما تكلم به اللسان وتصوّره القلب مما يُقرِّب إلى الله؛ من تعلُّم عِلم وتعليمه وأمر بمعروف ونهي عن منكر؛ فهو من ذكر الله).**

هذا الذي أشرتُ إليه سابقًا؛ أنّ ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ليس مقصورًا على الأذكار التي تقال باللسان مما هو مشهور على أنه ذكر؛ بل يدخل في ذلك كل ما يتعلّق باللسان مما يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ مِن تعلُّم العلم وتعليمه، ومن أمر بمعروف ونهي عن منكر؛ فهو من ذكر الله.

فأنت إذا علَّمتَ فأنتَ ذاكر لله، وإذا تعلَّمتَ فأنت مستمع لذكر الله، وإذا أمرتَ بالمعروف فأنت ذاكر لله، وإذا نهيتَ عن منكر فأنت ذاكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا كمال الذِّكر؛ أن يحرص الإنسان أن يقول بلسانه كل ما يُقرِّب إلى الله مما ثبت شرعًا، سواء في باب التعلُّم، أو في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو في باب الذِّكر اللسانيّ المعلوم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يَتفقّه أو يُفقِّه فيه الفقه الذي سمَّاه الله ورسوله فقهًا؛ فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض أو جلس مجلسًا يتفقّه)**: أي: يَتعلّم الفقه، **(يُفقِّه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهًا؛ فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله)**؛ لحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضل العلم خير من فضل العبادة**»[1].

(١) تقدم تخريجه.

وقـد تقدّم معنا، وقلنا: إنّ النبي ﷺ فضّـل العلم من جهة ذاته، وفضّل العالِم فقـال: «**فضـل العلم خير من فضل العبادة**»، وقال ﷺ: «**فضـل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**»[١].

وفـي الحديـث الآخـر: «**فضـل العالِم علـى العابـد كفضـل القمر على سـائر الكواكب**»[١].

فأفضـل النوافـل: ذِكْـرُ الله - كما تقـدّم معنـا -، وأفضل الذِّكر عنـد كثير من العلماء: العلم؛ تعلُّمًا وتعليمًا.

وقـد جـاء عـن أبي هريـرة وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما، أنهما قالا: (بابٌ مـن العِلم نَتعلّمه أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوُّع)[٢].

وقال سفيان الثوري: (ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحَّت النية)[٣].

وقال وكيع: (لولا أنّ الحديث عندي أفضل من التسبيح ما حدَّثتُ)[٤].

وقال بِشْرُ بن الحارث: (لا أَعلَم على وجه الأرض عملًا أفضل من طلب العلم والحديث؛ لمن اتقى الله وحسُنت نيته)[٥].

فطلب العلم هو خير النوافل عند كثير من العلماء.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: العلم، باب: الحث على طبل العلم، رقم: (٣٦٤١)، والترمذي في «الجامع» أبواب: العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: (٢٦٨٢) وابن ماجه في «السنن»، كتاب الإيمان، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: (٢٢٣)، وصححه الألباني فيها.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (١١٥)؛ وأورده بدر الدين ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» (ص: ٩).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (١١٩).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٨٢).

(٥) المصدر السابق.

ولذلك - مثلًا - لو أنّ شخصًا قال لنا: إنه تعارض عندي أن أَذْكُر أذكار الصباح مـع درس بعد الفجر؛ فأيهما أقدّم؟ نقول: عند كثير من أهل العلم: تقدِّم الدرس؛ لأنّ طلبً العلـم أفضـل، مع أنـه لا ينبغي القـول بالتعارض إلا عنـد عدم إمكان الجمع، فإذا أمكن الجمع فافعلِ الفضائل، لكن عند التزاحم فإنه يُقدَّم عند كثير من أهل العلم: طلب العلم.

قـال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعلى ذلـك إذا تدبّرت لَـمْ تجد بـين الأوّلين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف).**

لأنّ الاختلاف بين السلف في أفضل الأعمال:

إمّـا أنه من بـاب الاختلاف باعتبار الأحوال؛ مثلًا: جـاء عن بعضهم أنّ أفضل العمل التواضع، هذا في الحقيقة محمول على الحال؛ إذا احتيج إلى التواضع.

أو يكـون هذا الاختـلاف راجعًا إلى الاتفاق؛ لأنّ الذي قال: (الأفضل العلم)، والـذي قال: (الأفضل الذِّكر) ليس بينهما اختلاف؛ لأنّ العلم من الذكر، والذي قال: (الأفضل الجهاد)؛ مقصوده الجهاد مع الذكر، كما تقدّم تقريره عن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فلا يكون في الحقيقة هناك اختلاف حقيقي في أكثر كلام السلف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومَا اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله تعالى، وليكثر من ذلك، ومن الدعاء؛ فإنه مفتاح كل خير).**

ما أعظم هذه الجملة! الإنسان قد تَشتبه عليه الأمور في أمور دنياه، ومَا يتزاحم من أمور دِينه من جنس واحد.

لاحظوا أنّا نقول: من أمور دنياه، قد يشتبه على الإنسان الأمر، هل يتزوج هذه المرأة المعيَّنة أو لا يتزوجها؟ هل يتزوّج الآن أو لا يتزوج؛ هل يشـتري هذه السيارة أو لا يشتريها؟ لتزاحم أمور عنده، أو نحو ذلك من أمور الدنيا، وقد يحصل عنده اشتباه بين أمور دينه عند التزاحم من جنس واحد.

طبعـاً مـا طُلب من الإنسـان عينًا؛ هذا لا يقع فيه تزاحم ولا يقع فيه اشـتباه، لا يأتي إنسان يقول: أستخير هل أصلي في البيت أو أصلي في المسجد؟ من حيث الأصل.

لكـن قـد يُبتلى الإنسـان ببلية - نعوذ بالله من البـلاء - فيحتاج إلى هذا؛ مثلاً يكون في بلد يتسـلّط فيه الشُّـرَط على من يصلي صلاة الفجر في المسجد، ويمكن أن يؤخَـذ ويُسـجن أيامًـا ،أو نحو ذلـك، وهو متـردِّد يقول: ممكن أخـرج لا أجد أحـدًا، ويمكـن أخرج وأجد مـن يؤذيني، فـي هذا الحال تأتي مسـألة الاسـتخارة ليَعـرِف الأصلـح؛ لأنـه هنا يجوز لـه أن يصلي في بيتـه إذا غلب على ظنـه أنه إذا خرج إلى المسـجد يـؤذَى أذى بالغًا؛ كأن يُسـجَن أيامًا فلا يصلي هـذا الأيام كلَّها في المسـجد! فإنه يجوز له أن يصلي الفجر في بيته ولا إشـكال فيه، لكن إذا تردَّد الإنسـان هـل يوجد أحـد أو لا يوجد؟ هل يحصـل أذى أو لا يحصـل؟ يأتي هنا موضوع الاستخارة.

كذلك مثلًا إذا أراد الإنسـان أن يختار عملًا فاضلًا من الأعمال الفاضلة، ولم يَتبيّن له؛ فهنا أيضًا تأتي الاستخارة.

ولذلك ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هنا لـمّا ذكر أفضل الأعمال، وأنها تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأزمان، فقد يَشتبه الأمر على الإنسان فيستخير، ويطلب خِيَرَة الأمور.

أمّـا الأفعـال الواجبة من حيـث هي، والأفعـال المحرمة من حيـث هي؛ فليس فيها اسـتخارة، لا يأتي إنسـان يقول: أسـتخير الله أعفي لحيتي أو لا أعفي لحيتي؟ ليس هنا اسـتخارة؛ لأنّ الخيرة قد بانت بأمر الله عَزَّوَجَلَّ: «**أعفوا اللحى**»[1]، «**وفِّروا اللحى**»[2]، «**ارخوا اللحى**»[3] كلُّها أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: اللباس باب تقليم الأظفار، رقم: (٥٨٩٣).

(٢) المصدر السابق، رقم: (٥٨٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٦٠).

مثال ذلك: إنسان تقول له زوجته: احلق لحيتك، ونبيه ﷺ يقول له: إعف؛ فيقول: أستخيرُ أطيع الرسول ﷺ أو أطيع زوجتي؟! هنا لا تأتي الاستخارة لأنّ الخِيَرَة بيِّنة واضحة، وإنما الاستخارة طلب خير الأمرين عند الاشتباه.

فمن اشتبه عليه ما هو أصلح له من أمور دنياه أو من أفضل الأعمال الصالحة التي هي النوافل؛ فلْيطلُب معرفة الخير له منها بالاستخارة.

والاستخارة مشروعة، وقد كان النبي ﷺ، يُعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّمهم السورة من القرآن.

يقول ﷺ: «**إذا همّ أحدكم بالأمر**» والهم: هو الميل مع تردُّد، فإذا مال الإنسان في أمر من أمور دنياه مع تردُّد «**فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تَعلم أنّ هذا الأمر - ويسمِّيه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاقدره لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تَعلم أنّ هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به**» رواه البخاري في الصحيح[١].

وظاهر الحديث أنّ الدعاء يكون بعد الصلاة، وبعض أهل العلم قال: دعاء الاستخارة يكون في الصلاة، لأنّ القاعدة العامة أنّ الدعاء في الصلاة خير منه بعدها؛ يعني خير منه في خارجها.

لكن النص هنا ظاهر في الترتيب؛ قال: «**ثم**»، فالظاهر - والله أعلم - أنّ دعاء الاستخارة يكون بعد الفراغ من الصلاة.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾، رقم: (٧٣٩٠).

وقد ذكر أهل العلم أنّ الإنسان إذا استخار تتبيّن له الخيرة بأمور:

منها: أن يَتيسّر الأمر، ويَسهل بعد أن كان صعبًا، تزول العوائق وتتيسّر الأمور؛ فهذا دليل على أنّ الخير فيه.

ومنها: أن ينشرح الصدر، مثلًا لو كان الإنسان متردِّدًا بين أمرين، واستخار فيهما، فرأى صدره منشرحًا لأحدهما دون الآخر، فإنّ هذا علامة على الخير.

وقد يقع للإنسان أن يرى رؤية صالحة، يتبيّن له بها الخير، لكنّ هذا ليس بلازم، لأنّ بعض الناس يسألنا، ويقول: أنا استخرتُ مائة مرة ولم أرَ رؤيا؟! ليس بلازم: أن ترى رؤيا، بل قد يكون ذلك - كما قلنا - بتيسُّر الأمر، يعني مثلًا قد تستخير في نكاح امرأة أنت متردِّد في نكاحها؛ لقلة ذات يدك أو نحو ذلك، فإذا بك لما أصبحتَ يتصل بك رجل ويقول: مهرك عليّ إن تزوجتَ، فهذه علامة الخير في الأمر؛ لأنه تيسّر وسَهُلَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وليُكثر من ذلك، ومن الدعاء**) أي: ليُكثر من طلب معرفة خير الأمرين بالاستخارة، ولا يملّ ذلك، وليس المقصود الوسوسة؛ بحيث يكرِّر الإنسان الاستخارة في الأمر الواحد مرارًا كثيرة، وإنما المقصود أن يُكثر منها في أموره، وألّا يدعها؛ بل كلّما دعتْ الحاجة إليها استخار، فإنّ هذا من دَأَبِ الصالحين، ومَا ندم أبدًا من طلب الخير من ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإنه مفتاح كل خير**) على العبد أن يكثر عند الاشتباه من الدعاء؛ فإنه مفتاح كل خير، لا شك أنه لا خير للعبد إلا بعَون الله، فيدعو العبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسأله العَون والهداية إلى الخير والثبات عليه.

والدعاء شأنه عظيم، الدعاء هو العبادة، فقد جعله الله عز وجل مكان العبادة، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر:٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، [البقرة:١٨٦].

وقال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» رواه الأربعة، وقال ابن حجر: سنده جيّد، وصححه الألباني(١).

وقال ﷺ: «**ليس شيء أكرمَ على الله من الدعاء**» رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الحاكم، والألباني(٢).

فالدعاء منزلته عند ربنا سبحانه وتعالى عظيمة، وعند المؤمنين، ولذلك يُكثر العبد من الدعاء، ولا يملّ هذا، وإذا اشتبه عليك الأمر فاسأل الله متجرِّدًا: (اللهم اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك)، والمؤمن المتجرِّد يسأل الله ذلك.

كان هناك رجل يخالف السنة، فحُدِّث في هذا، وبُيِّنتْ له الأدلة فأبى، فقيل له قل: (اللهم اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك)، فأبى! وهذا -والعياذ بالله- من طاعة الشيطان، لأنّ الشيطان لا يريد للإنسان أن يعرف الخير أبدًا.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٧٩)، و «الجامع» للترمذي، أبواب: تفسير القرآن، باب: وسورة المؤمن، رقم: (٣٢٤٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: التفسير، باب: سورة غافر، رقم: (١١٤٠٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، رقم: (٣٨٢٨)، وانظر «صحيح أبي داود الأم».

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، رقم: (٣٣٧٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، رقم: (٣٨٢٩)، و«المستدرك» للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/ ٤٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» و«صحيح ابن ماجه».

فينبغي للإنسان إذا كانت عنده أمور مشتبهة لَمْ تتبيَّن له؛ أن يسأل الله أن يُبيِّنها له، وإذا اشتبه عليه أمران أيهما أحسن؛ أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُبيِّن له الأحسن والأفضل، وهكذا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يعجل فيقول: قد دعوتُ فلم يُستجَبْ لي)**.

الدعاء عبادة؛ فلا ينبغي للعبد أن يملّ العبادة.

بل الدعاء - كما قال العلماء - يحتاج إلى صبر؛ فينبغي على المسلم أن يداوم على الدعاء ولا يملّ؛ لأنّ الدعاء ليس مجرد سُؤال، الدعاء عبادة، فأنت تعبد الله بالدعاء؛ فكيف تملّ عبادة الله؟! عبادة وفيها سُؤال، وقد وُعدتَ الإجابة ما لَمْ تَعجَل، ولله حكمة، قد يكون الله أراد أن يَرفع منزلتك وأن يزيد حسناتك بالدعاء فتتأخر الإجابة؛ فتُكثر من الدعاء؛ فتجتمع لك الفضيلتان: الأجور الكثيرة، وإجابة الدعوة، فلا تعجل.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يستجاب لأحدكم ما لَمْ يعجل**» كيف يعجل؟ «**يقول: دعوتُ فلم يُستجَب لي**» والحديث في «الصحيحين»[1]، فينبغي للإنسان أن يتنبّه لهذا الأمر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وليتحرَّ الأوقات الفاضلة: كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك)**.

من آداب الدعاء وأسباب الإجابة: الحرص على الدعاء في أوقاتٍ فاضلة.

الله كريم، ويُرجى أن يُجيب دعوة داعيه في أيِّ وقت؛ لكن هنالك أوقات يَعظُم فيها الرجاء، ويزداد الأمل في أن يُجابَ الدعاء؛ كآخر الليل؛ لِمَا ورد أنّ

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل، رقم: (٦٣٤٠)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٧٣٥).

ربَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يَستغفرني فأغفر له**»؟ متفق عليه(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وأدبار الصلوات)** والمقصود بأدبار الصلوات في الدعاء :أي في آخر الصلوات، بدليل فعل النبي ﷺ، فإنه كان يدعو في آخر الصلاة، ويأمر بالدعاء في آخر الصلاة، جاء في الحديث: أنّ النبي ﷺ سُئل: أيّ الدعاء أسمَعْ؟ **قال**: «**جوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبات**» رواه الترمذي وحسّنه، وحسّنه الألباني(٢).

وكذلك **(عند الأذان، ووقت نزول المطر)**؛ يقول النبي ﷺ: «**ثنتان لا تردّان، أو قلّما تُرَدَّان: الدعاء عند النداء، وعند البأس**» يعني عند التحام القتال، رواه أبو داود وصححه الألباني(٣).

وفي زيادة عند أبي داود «**ووقت المطر**»؛ لكنّ الألباني ضعّفها من طريق أبي داود، وحسنها من طرق أخرى(٤).

وفي «صحيح الجامع» ذكر الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ: «**ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، ووقت المطر**» وقال: حسن(٥)، فوقت المطر من الأوقات التي ترجى فيها الإجابة.

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التهجد، باب: الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم: (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٥٨).

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٤٩٩) وحسنه الألباني فيه.

(٣) «السنن» لأبي داود، كتاب: الجهاد، باب: الدعاء عند اللقاء، رقم: (٢٥٤٠)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم».

(٤) قال الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود الأم» عند رقم (٢٢٩٠): (قلت: حديث صحيح دون الزيادة، وقد صححه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، والذهبي، وكذا ابن الجارود، وأما الزيادة فهي حسنة).

(٥) «صحيح الجامع» للألباني، رقم: (٣٠٧٨).

وهناك آداب أُخَر لمن أراد أن يجاب دعاؤه:

من تلك الآداب ما هو متعلّق بحال الإنسان : كالحرص على دعاء الله في حال الرخاء فإنّ من أكثر الدعاء في حال الرخاء، رُجِيَ أن يستجاب له في حال الشدّة، يقول النبي ﷺ: «**مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرَب؛ فليُكثِرِ الدعاء في الرخاء**» رواه الترمذي، والحاكم وصحّحه، وحسّنه الألباني(١).

ومن آداب الدعاء: أن تَحرِصَ على جوامع الكَلِم، جوامع الكلام: الذي يَجمَع أهمّ الخير وأن تدَعَ ما سوى ذلك، (فإنّ النبي ﷺ، كان يَستحِبُّ الجوامع من الدعاء، ويَدَعُ ما سوى ذلك) رواه أبو داود ،وابن ماجه، والحاكم، وصحَّحه الألباني(٢).

وقال النبي ﷺ لأمّنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا : «**عليكِ بالكوامل والجوامع**»(٣).

وفي رواية: «**عليكِ بجُمَل الدعاء وجوامعه؛ قولي: اللهم إني أسألك من الخير كلِّه، عاجله وآجله، ما علمتُ منه ومَا لَمْ أَعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه، عاجله وآجله، مَا علمتُ منه ومَا لَمْ أَعلم، وأسألك الجنة ومَا قَرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار ومَا قَرَّب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمدٌ ﷺ، وأعوذ بك مما تعوّذ منه محمدٌ ﷺ، ومَا قَضيتَ لي من قَضاءٍ فاجعل عاقبتَه رُشْدًا**» رواه الحاكم، وصحَّحه الألباني(٤).

---

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٢)، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٧٢٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة»رقم: (٥٩٣).

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٢)، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٥٣٩)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» رقم: (١٣٣٢).

(٣) أخرجه أحمد في«المسند» برقم (٢٥١٣٨) وقال الشيخ الأرناؤوط: (إسناده صحيح).

(٤) «المستدرك» للحاكم (١/ ٥٢١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٤٢).

وانظر يا عبد الله كيف جاءت الجوامع، وقد ذكرتُ هذا الحديث لأبيِّن المراد بالجوامع، فإنّ النبي ﷺ قال لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قولي: اللهم إني أسألك من الخير كلِّه عاجله وآجله ما عَلِمتُ منه، ومَا لَمْ أعلم**»، لم يقل: قولي: اللهم إني أسألك الخير كله؛ لأن الخير كله لا يُجمع لإنسان، فـ(من) هنا تبعيضية، ولكن: «**أسألك من الخير كلِّه، عاجله**» يعني في أمور دنياي، «**وآجله**»: يعني في أمور الآخرة، «**ما عَلِمتُ منه ومَا لَمْ أعلم**»، فأحاط هذا السؤال بكل خير يليق بالسائل عَلِمَه أو لَمْ يَعلَمْه، ولو كان المراد سؤال كل الخير لقال: أسألك الخير كله؛ لأن الفعل يتعدى بنفسه.

«**وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله**» :وهنا لاحظ أنّ الاستعاذة من الشرِّ كله؛ لأنّ الإنسان يطلب السلامة من الشر كلِّه؛ ولذا قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الشرِّ كلِّه عاجله وآجله ما عَلِمتُ منه ومَا لَمْ أعلم**».

«**وأسألك الجنة ومَا قَرَّب إليها من قول أو عمل**» جَمَعَ طلب الخير، «**وأعوذ بك من النار ومَا قرّب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد ﷺ، وأعوذ بك مما تعوّذ منه محمد ﷺ، ومَا قضيتَ لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا**».

يعني من جوامع الكلم - يا عبد الله - أنك إذا دعوتَ تقول: مثلاً: (اللهم إني أسألك العافية)، والعافية تعني السلامة من كلِّ شرٍّ؛ عاجل أو آجل؛ ولذلك أَمَرَ النبي ﷺ عمّه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دعا أن يسأل الله العافية[(١)].

وفمِن أدب الدعاء أن تحرص على جوامع الكلم، أمّا التفصيل فهو نوع من الاعتداء كما سيأتي.

ومن آداب الدعاء: أنّ الإنسان يبدأ الدعاء بالثناء على الله، ويصلي فيه على النبي ﷺ، يقول النبي ﷺ: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد**

(١) رواه الترمذي في «الجامع»، أبواب الدعوات، بابٌ، رقم: (٣٥١٤) وصححه الألباني فيه.

لله»[١]، فإذا جعلتَ في دعائك الثناء على الله، - كتحميد الله - فقد جعلتَ في دعائكَ أفضل الدعاء، وتكون قد جمعتَ بين نَوعيِ الدعاء.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «إنّ الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يَصعَد منه شيءٌ، حتى تصلي على نبيّك ﷺ» رواه الترمذيّ، وحسّنه الألباني[٢].

أيضًا من آداب الدعاء: أن تَعزِمَ، وألا تعلّق بالمشيئة؛ لا تقل: اللهم اغفر لي إن شئتَ، اللهم ارحم فلانًا إن شئت.

وليس من أدب الدعاء إذا دعا لك أحد، أن تقول: إن شاء الله، وإنما قل: آمين، فإذا قال أحدهم: جزاك الله خيرًا؛ فقل: آمين، إذا قال: غفر الله لك؛ فقل: آمين، فإنّ من آداب الدعاء أن يُجزَم فيه.

يقول النبي ﷺ: «**لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئتَ، فإنه لا مُستَكرِهَ له، وليعزِمِ المسألة**» رواه البخاري، وهو عند مسلم بمعناه.[٣]

وفي رواية: «**إذا دعا أحدكم فليَعزِمِ المسألة، ولا يقولنّ: اللهم إن شئتَ فأعطني، فإنه لا مستَكرِهِ له**» والحديث في «الصحيحين»[٤].

ومن آداب الدعاء: عدم الاعتداء فيه.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣) و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الأدب، باب فضل الحامدين، رقم: (٣٨٠٠)، وانظر «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٩٧).

(٢) «الجامع للترمذي» أبواب: الوتر، باب: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ رقم: (٤٨٦)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٠٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم: (٧٤٧٧)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: ليعزم المسألة فإنه لا مُكرِهَ له، رقم: (٦٣٣٨)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٨).

وشرُّ الاعتداء: أن يعلِّق العبد قلبه بغير الله؛ فيُشرِّك في قلبه؛ فيَجعل دعاءه لله ولغير الله؛ وهذا شركٌ أكبر، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

ومن الاعتداء: الابتداعُ في الدعاء؛ بأن يدعو الإنسان على هيئةٍ مبتدَعة، أو أن يأتي بأمور مبتدَعة في الدعاء.

ومن الاعتداء في الدعاء، ما يقع فيه بعض الأئمة، من كونهم يُعجبُهم الكلام فيُفصِّلون، فيأتي أحدهم فيقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من دُوده، وأعوذ بك من كذا، وكذا، ثم يأتي عند ذكر الجنة يقول: وأسألك الجنة ومَا فيها من كذا ومَا فيها من كذا، وأعوذ بك من النار، ومَا فيها من السلاسل والأغلال، ومَا فيها من كذا، ومَا فيها من كذا، كلُّ هذا من الاعتداء، وقد قال النبي ﷺ: «**سيكون قومٌ يَعتدُون في الدعاء**». رواه أبو داود، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني(١).

وجاء عن ابنٍ لسعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: (سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمها، وبهجتها، وكذا، وكذا..) أي: التفصيل في النعيم (وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها، وكذا، وكذا) أي: التفصيل في العذاب، فقال: يا بنيّ! إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**سيكون قومٌ يَعتدون في الدعاء**»؛ فإياك أن تكون منهم، إن أُعطِيتَ الجنة أُعطيتَها ومَا فيها، وإن أُعذْتَ من النار أُعذْتَ منها ومَا فيها) رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني(٢).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، رقم: (٣٨٦٤)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم».

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٠)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

كذلك جاء عن عبد الله بن مغفّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض على يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بنيّ، سل الله الجنة وتعوّذ به من النار، فإني سمعتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنه سيكون في هذا الأمّة قومٌ يَعتدون في الطَّهور والدُّعاء**» رواه ابو داود، وصحَّحه الألباني(١).

ومن آداب الدعاء: عدم التكلُّف في اختيار كلماته، فبعض الناس إذا دعا يتكلَّف السجع في الدعاء تكلُّفًا؛ وهذا ليس من أدب الدعاء، لكن لا بأس أن تكون رؤوس الكلمات متوافقة من غير تكلُّفٍ؛ فإنّ هذا ورد في دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فما يطيب في السمع من غير تكلُّف لا بأس به، لكنّ السجع المتكلَّف بحيث يتكلَّف الإنسان أن يأتي بنهايات تتّفق مع بعضها في الدعاء؛ فهذا ليس من آداب الدعاء.

وقد قالت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (واجتنِب السجعَ في الدعاء؛ فإنّي عهدتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه يَكرهون ذلك) رواه ابن حبّان، وقال الألباني: صحيح لغيره(٢).

أيضًا من آداب الدعاء: أن تكرِّر الدعاء ثلاثًا؛ فإنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كان إذا دعا دعا ثلاثًا)؛ كما في «صحيح مسلم»(٣) والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا تكلم، تكلَّم ثلاثًا، وكان إذا دعا، دعا ثلاثًا.

و من آداب الدعاء: أن تَحرِصَ - يا عبد الله - على الحلال، في مأكلك ومشربك وملبسك، تَحرِصَ على أن تكون مكتسِبًا للحلال ومنفِقًا للحلال، فإنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الطهارة، باب: الإسراف في الماء، رقم: (٩٦)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

(٢) «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» لابن بلبان، رقم: (٩٧٨)، وانظر: «التعليق على الإحسان» للألباني عند الموضع السابق.

(٣) «صحيح مسلم» كتاب: الجهاد والسير، رقم: (١٧٩٤).

ذكر «**الرجل أشعث أغبر**» يعني أنّ حالتَه متغيِّرة؛ وهذا يُرجى أن يُجاب دعاؤه «**يُطيل السفر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطعمه حرام، ومَشربه حرام، ومَلبسه حرام، فأنّى يُستجاب لذلك!**»[(١)].

يعني هذا الرجل وُجِدَت فيه أسباب إجابة الدعاء؛ فهو مسافر، أشعث، أغبر، يَرفع يديه، ولكن وُجِدَ فيه المانع؛ وهو أنّ مَطعمه حرام، ومَشربه حرام، ومَلبسه حرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟!

ومن آداب الدعاء: رفع اليدين في الدعاء؛ للحديث المتقدّم معنا قبل قليل؛ ولقول النبي ﷺ: «**إنّ ربكم تبارك وتعالى حييٌّ كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يَردَّهما صِفرًا**» رواه أبو داود، والترمذيّ، وصحَّحه الألباني[(٢)].

وقد قال العلماء: إنّ الدعاء من جهة رفع اليدين فيه ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: يكون رفع اليدين فيه بدعة غير مشروعة؛ وذلك في كلّ موضع دعا فيه النبي ﷺ ولم يرفع يديه، مثل الدعاء في الخطبة لغير الاستسقاء، فإنّ رفع اليدين إذ ذاك بدعة، لأنّ النبي ﷺ دعا ولم يَرفع.

ومثل الدعاء عند الطواف بالكعبة؛ فإنّ رفع اليدين حال الطواف بالكعبة بدعة، ومثل رفع اليدين في المسعى عند الدعاء؛ فإنّ رفع اليدين إذ ذاك بدعة؛ لأنّ النبي ﷺ، دعا في هذا المواطن ولم يَرفع.

الحال الثانية: يكون رفع اليدين سنة فوق كونه سببًا من أسباب الإجابة؛ وذلك في كلِّ موطنٍ دعا فيه النبي ﷺ ورفع يديه، مثل: الدعاء إذا صعد الإنسان على

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الزكاة، رقم: (١٠١٥).

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٨)، و«الجامع» للترمذي كتاب: الدعوات، رقم: (٣٥٥٦)، وصححه الألباني فيهما.

الصفا وعلى المروة، ومثل الدعاء بعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى، ومثل الدعاء حال الاستسقاء في الخطبة؛ فهنا رَفْعُ اليدين سنة.

الحالة الثالثة: أن يكون رفع اليدين مستحبّاً لكونه سببًا من أسباب إجابة الدعاء؛ وذلك في كلِّ موطنٍ لَمْ يُنقَل عن النبي ﷺ حالٌ في الدعاء.

مثل الدعاء بين الأذان والإقامة؛ بين النبي ﷺ أنّ الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردُّ[١]؛ لكن لَمْ يُنقَل لنا أنّ النبي ﷺ دعا؛ فهنا يكون رفع اليدين مستحبّاً؛ لهذا الحديث الذي معنا، والحديث الآخر «**يمدُّ يديه إلى السماء**»[٢]، وهذا الحديث «**إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا**»[٣].

وهذا الشأن في تقسيم أنواع الدعاء بالنسبة لرفع اليدين.

ومن أعظم آداب الدعاء: ألَّا تجرِّب الله سبحانه وتعالى؛ بل تتيقّن الإجابة، وتُقبِل بقلبك، فإنّ النبي ﷺ قال: «**ادعوا الله وأنتم موقنون الإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ**» رواه الترمذيّ، وحسّنه الألباني[٤].

بعض الناس مساكين يقول: ادعُ يا أخي إن لَمْ ينفعك لا يضرُّك! وهذا القول لا يصلح في الدعاء، بل نحن نجزم أنّ الدعاء إذا فُعِل على الوجه المشروع ينفع، وأنّ الإجابة حاصلة، إمّا بإجابة نفس الدعاء أو بادّخار خير أو بصرف شر.

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة، رقم: (٥٢١)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الصلاة، باب: ما جاء في أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة، رقم: (٢١٢)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

(٢) تقدّم: آنِفاً.

(٣) تقدّم: آنِفاً.

(٤) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٤٧٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٩٤).

ومـن آداب الدعاء: أن تقبـل بقلبك؛ بعض الناس يدعوا وربمـا يتكلم ثم يعود للدعاء؛ ثم يتكلم ثم يعود للدعاء من غير إقبال قلب!

ومسـألة عدم إقبال القلب هذه آفة عندنا في هذا العصر، حتى الصلاة أصبحنا نصلـي في غالب الحـال وقلوبنا غير مقبلـة، كم واحد منا في صلـوات اليوم التي مرّت قريبة كبّر مع الإمام ثم خشع إلى أن سلّم الإمام؟ الواحد منا يكبّر ليعيش في الدنيا ويَسبح في أحلام الخيال حتى يُسلّم، حتى كثُر فينا الوسواس وكثر فينا الخلل في الصلاة، بل إنَّ بعضَنَا قد لا يُدرك هل صلى الإمام أربعًا أو صلى واحدة! بعضنا أصبح يصلي مع الإمام كأنه آلة بحسـب صـوت الإمام إذا قال الإمام: (الله أكبر) جلـس، وإذا أخطـأ الإمام مرة وقـال: (الله أكبر) عند القيام مـن الركوع، يجلس، لأنه لا يشعر بصلاته، وإنما أصبح يتبع الصوت!

وهـذا في الحقيقة خلل عظيم، يحتاج منا إلى وقفة، أن نقف مع حالنا مع ربّنا، لماذا أصبحت قلوبنا لا تُقبِل على العبادة كما ينبغي؟ لابد أن نعالجها.

كذلـك فـي الذكر أصبح كثيرون منا لا يُقبِلون بقلوبهـم وهم يذكرون الله، تجد أنّ الواحد منا تسمع منه صفيرًا فقط ؛ أستغفر الله أستغفر الله، يمشي كأنه ما قال شيئًا.

حتى الدعاء ونحن نسـأل الله حاجتنا، أصبح الواحد منا يدعو، وربما لا يُدرك مـا يدعو، ندعـو في الطواف كأنّا فقـط لإنهاء الوقت وتمضية الوقـت! ربما ينقلب الدعاء على الواحد منا وهو لا يَشعر! لأنّ القلوب غير مقبلة.

وهذا الأمر يحتاج إلى علاج، ويحتاج إلى مصابرة، والجنة غالية، الجنة لا تنال بأدنى سـبب، الجنـة تنال بفضل الله ورحمته، وسـبب نيل فضل اللـه ورحمته أن نُقبِل على الله، ونجتهد، ونصبر، ونصابر.

ينبغي أن نجالِد أنفسنا، ونجاهدها، إذا كبّرتُ (الله أكبر) أُحضِر نفسي، وإذا خرجتْ أعدتُها، وأصبر على هذا، وأنا في خير عظيم، وهكذا في الذكر و الدعاء.

هذه بعض آداب الدعاء، التي من لزمها رُجِيَ أن تكون الإجابة قريبةً له، وإن كان الأمر - كما ذكرنا سابقًا - أنّ الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

ثم شرع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أرجح المكاسب، فقال: (وأمَّا أرجح المكاسب: فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به).

قال: (**وأرجح المكاسب**) أي: أفضلُ المكاسب في الرزق وخيرُها، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: سبب حصولها.

ومن وجه ثالث: سبب بركتها.

ومن وجه رابع: سبب القناعة بها.

لأنّ الإنسان في الرزق يحتاج أن يعرف هذه الأمور، يحتاج أن يعرف أفضل المكاسب وخيرها، ويحتاج أن يعرف سبب حصولها الشرعي، ويحتاج أن يعرف سبب بركتها، ويحتاج أن يعرف سبب القناعة بها؛ لأنّ الرزق لن تَسعد به، ولن تهنأ به، إلا إن حصل من طريق حلال، وبارك الله فيه، وقنّعك به، ومن حُرِمَ واحدًا من هذا الثلاثة، فقد حُرِمَ الخير في الرزق.

فالمؤمن الموفَّق يحرص على أن يعرف أفضل المكاسب، وسبب حصولها، وأن يعرف سبب بركتها؛ كيف يبارك الله فيها وأن يعرف سبب القناعة بها، وهذا هو السؤال الذي سأله أبو القاسم السَّبتي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله.

ولذلك ستجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية بَدَأَ الكلام في أرجح المكاسب عن أمرٍ من لَمْ يدرك ما ذكرناه يستغرب؛ ويقول: الكلام عن الكسب وأفضل المكاسب! وشيخ الإسلام هنا يقول: **(فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به)** هذا سبب الخير في الرزق؛ أن تتوكل على الله ﷻ.

والتوكل على الله: يعني تفويض الأمر إلى الله ﷻ، والاعتماد عليه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[الطلاق: ٣] ، فمن توكل على الله وسلّم أمره إلى الله فإنّ الله حافظه في أموره كلِّها ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر: ٣٨] أي: قل حسبي الله مما سواه، فإليه أفزَع في أموري كلها، فالله هو الكافي، وبيده الضَّر والنَّفع، لا بيد غيره.

فإذا جَمَعَ طالب الرزق بين تقوى الله والتوكل عليه، فقد حصّل الخير﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾،[الطلاق: ٢-٣] الذي يتوكل على الله، فيَبذُل الأسباب مفوّضًا أمره إلى الله، معتمِدًا على ربِّه، عالمًا أنّ الأسباب إنما هي من رحمة الله بالعباد، وإلا فالأمر كلُّه بيد الله، إن شاء أمضى الأسباب، وإن شاء عطَّلها.

ولذلك ذكر بعض أهل العلم أنّ من حِكَم سِحْرِ النبي ﷺ حيث سُحِرَ في أمور دنياه، أمّا دينه فلم يَنَلْهُ شيء، مع كونه ﷺ كان محافِظًا على الأذكار، قالوا: من حِكَم ذلك أن يعلم العباد أنّ الأمر كلّه بيد الله، وأنّ الأسباب إنما جعلها الله رحمة للعباد؛ فتُفعَل ولا يُتعلَّق بها، وإنما يُتوكَّل على الله، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من كلِّ ضيق في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، ويبارَك له فيه، ويُقنَّع به.

ولذلك طالب الرزق ينبغي أن يجمع: تقوى الله، والتوكل على الله، والثقة بكفايته، أي يفوّض المسلم أمره لله عَزَّوَجَلَّ فيما يُقدِم عليه من طلب الرزق؛ ثقةً بالله واعتمادًا على الله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦] الله عَزَّوَجَلَّ كافٍ عبده، وفي قراءة حمزة والكسائي ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ﴾، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكفي عباده في إزالة الشر وإنالة الخير.

بعض الناس يقول: أنا سأذهب إلى السوق، وأنا وواثق بنفسي واثق بقدراتي! بعض الناس يأتي يقول: المشكلة عندي أنه ليس عندي مال، وإلا فأنا واثق بقدراتي على الكسب وهذا خطأ! الموفَّق يثق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويفعل الأسباب ولا يكون مترددًا في أموره إذا قدَّم الأسباب الصحيحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**التوكل على الله، والثقة به، وحُسن الظنّ به**)، عند دخول العبد في أمر يطلب الكسب منه، فإنه ينبغي أن يكون قلبه ممتلئًا بحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنّ الله رزّاق كريم، فمن توكل على الله وفوّض أمره إليه واثقاً بكفاية الله محسناً الظن بالله مكثراً دعاء الله مكثراً من طاعة الله؛ فإنه ييسر له الرزق، ويبارك له فيه، الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، بعض الناس يدخل في تجارة، ويقول: سأحاول، وأنا أعرف حظي، يعني يدخل التجارة وهو مليء بالإحباط، وأنه سيخسر، يقول: على كلِّ حال محاولة، وإلا فأنا عارف حظي! نقول: هذا خطأ، الموفّق يدخل فيما يدخل فيه من عمل يطلب به الرزق، وقلبه ممتلئ حسن ظن بالله.

يقول النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**» رواه البخاري ومسلم[1].

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ . . . ، رقم: (٧٤٠٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٥).

وفي رواية لمسلم: «**إنّ الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**»[١]، وبين حسن الظن والدعاء ارتباط وثيق.

فمن حسن الظن بالله أن تدعو الله، فإذا أردتَ - يا عبد الله - أن تُيسَّر أمورك في طلب الرزق، فعليك أن تتسلّح بتقوى الله والتوكل على الله والثقة بكفاية الله وحسن الظن بالله، والإكثار من الدعاء، فهذا هو مفتاح التوفيق في طلب الرزق، وهذا ما ينبِّه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه).

هذا بيان لما تقدّم؛ وهو أنه ينبغي للعبد المسلم أن يُحسِنَ ظنه بالله إذا أراد الرزق، ويتوكل عليه، ويثق بكفايته، ويُقدّم التقوى، ويُكثر من الطاعة، الطاعة سبب للرزق، فليكثر طالب الرزق من الطاعة، فإنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الكافر إذا عمل حسنة أُطعِم بها طُعمة في الدنيا**» يُرزَق بها رزقًا في الدنيا، «**وأمّا المؤمن فإنّ الله يدّخر له حسناته في الآخرة ويُعقِبه رزقًا في الدنيا على طاعته**» رواه مسلم في «الصحيح»[٢].

وأمّا المؤمن فإنّ الله يدّخر له حسناته في الآخرة، أي: لا تذهب في الدنيا مثل الكافر، ويُعقبه رزقًا على طاعته، فمن أسباب الرزق أن يُكثر الإنسان من طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٥).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، رقم: (٢٨٠٨).

جاء في «الصحيحين»: أن نفراً من صحابة رسول الله ﷺ كانوا في سرية ناحية البحر، خرجوا في طاعة، وكان زادهم قليلاً فنفد زادهم بعدما اشتركوا فيه، فألقى البحر حوتاً عجيباً كبيراً على الساحل، وأخذوا يأكلون منه شهراً.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال - سبحانه - فيما يأثُر عنه نبيه ﷺ: «كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم»[(١)]).

وهذا الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رواه مسلم في «الصحيح» وفيه أمر العبد بسؤال الله حاجته، أي: فليتوكل على الله، حتى يَستغني بسؤال الله عَزَّوَجَلَّ، عن سُؤال الخَلق، حتى السؤال المباح، فإن هذا مِن حُسن التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفيما رواه الترمذي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى شسع نعله إذا انقطع؛ فإنه إن لَمْ ييسِّره لَمْ يتيسَّر»، وقد قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢]).

قال رسول الله ﷺ: «**ليسأل أحدكم ربَّه حاجته كلها**» يعني حتى في أمور دنياه «**حتى شسع نعله إذا انقطع**»، الشسع: هو شراك النعل، «**فإنه إن لَمْ ييسِّره لَمْ يتيسَّر**» صحَّحه بهذا اللفظ السُّيوطي[(٢)]، ورواه دون قوله «**فإنه إن لَمْ ييسِّره لَمْ يتيسَّر**» والترمذيّ[(٣)]، والظاهر، والله أعلم أنه ضعيف الإسناد.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).

(٢) «الجامع الصغير» رقم: (٧٥٤٤).

(٣) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ليسأل الحاجة مهما صغرت، رقم: (٣٦٠٤) و«صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» كتاب الرقائق، باب الأدعية، (٣/١٤٨) رقم: (٨٦٦) وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني، رقم: (١٣٦٢).

أمَّا زيادة «فإن لَمْ ييسِّـره لَمْ يتيسَّر» ليست من قول النبي ﷺ؛ وإنما من قول أمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد روى ذلك أبو يعلى عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بإسناد جيّد[1].

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقـد قـال اللـه – تعالـى – فـي كتابـه: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْـلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]).

للعلماء في المراد بالفضل هنا قولان:

القـول الأول: أنّ الفضـل هـو الطاعة؛ يعني واسـألوا الله الطاعـة؛ أي: العَون عليها.

والقـول الثاني: أنّ المقصود بالفضل هنـا: الرزق. وهذا من اختلاف التنوّع؛ فلا مانع من إرادة الأمرين؛ ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْـلِهِۦٓ﴾ أي: سـلوا الله الطاعة، والإعانة عليها، وسلوا الله الرزق، فهذا يسمّى عند أهل العلم باختلاف التنوّع.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِـرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الجمعة: ١٠] وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات).

معنى ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: اطلبوا الرزق الحلال من الله، على أحد الأقوال في تفسير الآية.

ولذلـك من فقه الإمام البخاري – وهو من كبار فقهاء الأمّة – وفقهه يظهر في تراجمـه أنه بوّب فقـال: (باب الخروج في التجارة؛ وقـول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنتَشِـرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، ففَهِـم مـن هذه الآية: الإذن فـي الخروج في التجارة والسفر، وهذا من فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) «مسند أبي يعلى الموصلي» رقم: (٣٥٦٠).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهـذه – وإن كان في الجمعة – فهـو قائم في جميع الصلوات)** أي: أنّ الحكمة فيه موجودة في جميع الصلوات.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا – والله أعلم – أَمَرَ النبي ﷺ، الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من فضلك»[(١)]).**

لأنّ الإنسـان إذا دخل المسـجد، فهو يَدخـل للعبادة التي يُرجى أن تكون سـببًا لرحمة الله؛ فيدخل الإنسان الجنة؛ لأنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسـول الله؟ قـال: «**ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته**»[(٢)]، فإذا دخل الإنسـان المسـجد فإنـه يدخل ليعبد الله؛ رجاء رحمة الله، فناسَـب أن يسـأل الرحمة، وإذا خرج فإنه يخرج للدنيا وطلب الرزق؛ فناسَب أن يسأل الله من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قال الخليل ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، وهـذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب، فالاسـتعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم).**

وهذا أمرٌ واجب؛ أنه يجب على الإنسـان أن يستعين بالله في أموره كلها، وأن يَتبـرَّأ مـن حوله في الأمور كلها، ولا يجوز أن يعتقد الإنسـان طرفـة عين أنه قادر علـى تحصيل خير لنفسـه دون عون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهـذا معنى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هذا أمر، والأمـر يقتضي الإيجـاب)** أنه يجب على العبد أن يسـتعين بالله فـي أموره كلِّها؛ معتقدًا أنّ الخير كله بيد الله، وأنه لا يحصل له خير إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمره.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» بنحوه مُختصراً، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٣).
(٢) تقدَّم تخريجه.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارَك له فيه، ولا يأخذه بإشرافٍ وهلع).

ينبغـي عليه أن يأخذه بسـخاوة نفس؛ لأنّ النبي ﷺ قـال: «**إنّ هذا المال خَضِرَةٌ حلوة؛ فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورِك له فيه، ومَن أخذه بإشرافِ نفسٍ لَمْ يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع**» رواه البخاري[(١)].

فمن أخذه بطريق حلال وكان سـمحًا في طلبه، صادقًا فيه مُبيِّناً؛ بورِك له فيه، ومن أخذه بطمعٍ أغواه حتى كتَمَ وغشَّ؛ لَمْ يبارَك له فيه.

فسبب البركة في الرزق: أن يكون الإنسان صادقًا مُبيِّنًا، وأن يكون سخيَّ النفس.

وسـبب مَحْـقِ البركة في الرزق: أن يكذب الإنسـان، أو لا يُبـيِّن، أو يَغُش، أو يَتّخذ الأسباب المحرَّمة.

قال شـيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يُحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء).

انظروا إلى هذا الجملة من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومقصوده: أنه ينبغي أن يكون الإنسان مقتصدًا في طلب الدنيا.

وأقلّ درجات الاقتصاد: ألا تُشغله عن الأعمال الصالحةِ الواجبةِ عليه.

نسـمع أنّ بعض إخواننا الذين يعملـون في التجارة يجمعون الصلوات الخمس أو الأربـع؛ الظهـر والعصر والمغرب وقت العشـاء؛ قبل أن يناموا ولا سـيَّما بعض إخواننا في أوروبا؛ لأنّ الحركة مستـمرة، والانشـغال بالصـلاة في وقتها - عندهم - تُضيِّع الفُرَص، وهذا لا شك أنه حرام.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، رقم: (١٤٧٢)، و«صحيح مسلم» كتاب: الزكاة، رقم: (١٠٣٥).

أقلّ درجات الاقتصاد: ألا تُشغِل التجارة أو طلب الرزق المرءَ عن الأعمال الصالحة الواجبة عليه، فيَجعل طلبه الدنيا، كدخول الإنسان الحمَّام لقضاء الحاجة، فإنّ الإنسان إذا دخل الحمَّام الذي تُقضى فيه الحاجة لا يبقى فيه فوق حاجته، بل فَوْرَ أن يَفرَغ من حاجته يَخرج، فكذلك ينبغي أن يكون شأن الإنسان مع طلب الرِّزق.

الإنسان في بناء بيت الخلاء لا يهتم به ويَجعل فيه أشياء زائدة، وإنما يهتم بإصلاحه ولا يبقى فيه فوق الحاجة، فكذلك ينبغي للإنسان أن يكون في طلب الرزق؛ لا ينبغي أن يَتوسّع فيما لا يحتاج إليه، ولا يَبقى في طلب الرزق فوق الحاجة.

جاء في بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: **(يجعله كالحمار يركبه وقت الحاجة)**، أي: الإنسان في الأصل يركب على البعير ويركب على الحصان والفرس، ويركب على الحمار عند الحاجة، والناس لا تفضّل الركوب على الحمار، وإنما تركبه وقت الحاجة، فإذا انتهت الحاجة نزل الإنسان عنه، فيقول: هكذا ينبغي أن يجعل المسلم طلبه للدنيا؛ مقتصِدًا في هذا الطلب، فيكون بمنزلة من يدخل الخلاء ،أو يبني الخلاء، وبمنزلة من يركب الحمار.

والعامّة عندهم دعوةٌ بمعنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ يقولون: (اللهم اجعل المال في جيبي ولا تجعله في قلبي) لا تجعله في قلبي: يُشغلني عن ديني، ارزقني ما يُغنيني ولا تشغلني به.

وأقل درجات الإقتصاد: الاقتصاد الواجب وهو: ألَّا يُشغِل طلب الرزق الإنسان عن الواجبات عليه، بل يكون حريصًا على أداء ما وَجَبَ عليه شرعًا.

وكمال الاقتصاد: ألا يُشغِل الإنسان نفسه بطلب الرزق فيما لا حاجة له.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همّه؛ شتَّت الله عليه شَمْله، وفرّق عليه ضَيعتَه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح والآخرة أكبر همّه؛ جَمَعَ الله عليه شَمْلَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»).

هذا حديث عظيم، ولفظ الترمذيُّ كما في «السنن»: «**من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَمْله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شَمْلَه، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له**» رواه الترمذيُّ، وصحَّحه الألباني، والوادعيُّ[1]، رحم الله الجميع.

«**من كانت الآخرة همَّه ونيَّته**» كما جاء في بعض الروايات، وطُلبَتَه، وهي المقدَّمة؛ كافأه الله عَزَّ وَجَلَّ، بأن يجعل غناه في قلبه، فيكون قنوعًا، مهما جاءه من الرزق يفرح به ويقول: الحمد لله قد رُزقتُ خيرًا كثيرًا، ولا يتطلّع إلى ما في يد غيره، لأنّ من أعظم أسباب شقاء الإنسان أن يتطلّع إلى ما في يد غيره، بعضهم عنده سيارته توصله إلى المسجد سالمًا طيّبًا، ولما تمرّ بجواره سيارة أفضل من سيارة يضرب بيده على سيارته ويقول: هذه السيارات! تذهب السيارة وتبقى الحسرة في القلب.

فمن كانت الآخرة همّه يجعل الله غناه في قلبه، فمهما حصَّل يَقنَع، ويرى أنه قد أوتيَ خيرًا كثيرًا.

«**وجُمِعَ له شَمْله**» فلا يتشّتت قلبه؛ ولذلك بمجرد أن يضعوا له الفراش ينام.

«**وأتته الدنيا وهي راغمة**» ما كُتِبَ للإنسان من الدنيا سيأتيه سواء كان صالحًا أو لَمْ يكن، لكنّ الصالح يسعد بما يأتيه، ويسلم بين يدي ربه.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم: (٢٤٦٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٤٩)، و «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» للوادعي (١/ ٣٩).

«**ومـن كانت الدنيا همّـه**»: وطُلبَته، وغايته، والمقدَّمة عنده: جعل الله فقره بين عينيـه، بخلاف من كانـت الآخرة همّه، من كانت الآخرة همـه جعل الله غناه في قلبـه، أمّـا من كانـت الدنيا همه جعل الله فقـره بين عينيه، فكلّمـا نظر لن يرى إلا فقـره، وبالتالي لن يَقنَـع بما يُرزَق، ولن يهنأ بما يُرزَق، ويكـون متطلّعًا إلى ما ليس في يديه غير مستمتع بما في يده! وهذا غاية الشقاء؛ أن يكون عند الإنسان شَيء لا يستمتع به، ويطلب شيئاً لا يقدر عليه.

«**وفـرّق عليـه شـمله**» فكَثُـرتْ الهموم فـي قلبه، ولذلـك يأتي يريـد أن ينام لا يستطيع النوم.

بعـض الخلفاء قـال لابنه: يا بنيّ! قد كَبِرتْ سـنّي وأريد أن أتنـازل عن الخلافة لـك، فالولـد ذكـي فَهِمَ أنه يَختبره؛ فقـال: متّع الله بك يا أبـي، لا خير في الخلافة إن تركتَهـا، لا أرضـى بها أبدًا، فبعد فترة دعاه أبـوه وقال: ما حملك على أن قلت مـا قلـتَ؟ - وأبوه ذكي فهـم أنّ الولد فهم أنه يختبـره -، فقال: رأيتُـك إذا هَجَعَ النُّوام أضأتَ السـراج وطلبـتَ الخادم ليَدهِنَ لك ظهرك وأخـذتَ تُديم النظر في أمر الخلافة حتى يلوح الفجر، فعلمتُ أنّ من يفعل هذا لا يترك هذا؛ أي لـمّا رأيت هـذا الحرص منـك عرفتُ أنك لن تتنـازل عنها؛ لأنّ قلبك معلّق بهـا، الناس تنام وأنـت تأمـر الخادم فيأتي يدهن ظهرك بالزيت حتى تسـتعين علـى أن تبقى وتديم النظر في أمر الخلافة.

بعض الناس تكون عنده الأموال الكثيرة ولا ينام، يُشقِيه ما عنده، ومن رزقه الله الرزق، وقد جعل الآخرة همّه؛ يجمع الله له خيرين: خير الدنيا وخير الآخرة.

كلامنا لا يعني أنّ الغنى مذموم على الإطلاق، أو أنّ الأغنياء هكذا على الإطلاق؛ ولكنّ الكلام عمّن أفرد الدنيا، ولم يُقبِل على الآخرة، وإلا كم من غني يَكفَل من طلاب العلم الكثير، ويتصدّق بالكثير، ويبذل في الدعوة الكثير.

أعرف أحد الأغنياء أنفق مرةً واحدةً ما يساوي مائة مليون دولار في الدعوة في سبيل الله؛ مرة واحدة، تبرّع بأرض في قلب العاصمة للدعوة في سبيل الله قيمتها مائة مليون دولار، يوجد أناس موفّقون في مثل هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال بعض السلف: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أحوَج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مرّ على نصيبك من الدنيا، فانتظمه انتظامًا).

جاء عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحابيّ الجليل -وهو المراد ببعض السلف هنا- أنه قال لرجل: (إني موصيك بأمرين، إن حفظتهما حُفِظْتَ: أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثِر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا؛ حتى ينتظِمَه لك انتظامًا؛ فتزولُ به معك أينما زِلْتَ) رواه الطبراني، وابن أبي شيبة، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح[1].

فمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أوصى هذا الرَّجل بهذه الوصية العظيمة، في قوله: (إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا) فلم يُشرَع في دين الإسلام ما يُسمّى بالدرْوَشة، الإسلام جاء لعمارة الدنيا والآخرة، وجعل عمارة الدنيا طريقًا لعمارة الآخرة، فلم يأمر الإسلام بإهمال الدنيا بالكلية؛ وأن يتدَرْوَش الإنسان، ويَدَعَ طلب الرزق ونصيبه

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة، باب: كلام معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رقم: (٣٤٦٩٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني، ذكر مشاهد معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسِنّه، ووفاته، ومن أخباره، (٢٠/ ٣٥)، رقم: (٤٩)، وانظر كلام الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٤٠١).

من الدنيا، ولم يجعل للإنسان أن يُطلِق يده في الدنيا كما يشاء، فالحلال ما حلّ في الجيب، ويُقدَّم ما في الدنيا على ما في الآخرة!

المسلم لا يُهمِل الدنيا، ولكنه عند نظره للدنيا يبدأ بنظره في الآخرة، فإن كان أمر الدنيا لا يعارِض إصلاح الأمر في الآخرة، ولا يُفسِد القلب فإنه يُقدِم عليه، وإن كان يعارِض إصلاح أمره في الآخرة فإنه يُقدِّم عمارة الآخرة على عمارة الدنيا، وهكذا كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم -.

ولذلك قال معاذ رضي الله عنه: (وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثِر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا)، وهنا سؤال: لو آثرتَ نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا هل تَفسُد دنياك؟

الجواب: لا، بل من عمل بما أمره الله به؛ صَلُحَ له أمر دنياه وأمر آخرته؛ ولذلك قال: (حتى ينتظِمَه لك انتظامًا)، بمعنى: أنك إذا أقبلتَ على الله، فإنّ أمر الدنيا سيَصلُح لك.

ولذلك تَعجَب من أناس يَنتسبون إلى العلم، يَزعمون أنهم يريدون الإصلاح، وأنهم من دعاة الإصلاح، وإذا نظرتَ إلى كلامهم وجدتَ أنهم يَنظرون إلى عمارة الدنيا، ولا يُبالُون بعمارة الآخرة، فيزعم بعضهم اليوم أنّ الحكم بالديمقراطية أفضلُ من الحكم بالشرع بدون رضى الشعب، وأنّ التطلُّع إلى قيادة الشعوب إلى حياة كريمة، إنما يكون بإصلاح أمور الدنيا، مع أنّ ما يُدعى إليه من أمور الدنيا لا يُصلِحها، والتجربة والبرهان يَدُلَّان على ذلك.

ولا يُصلِح حال الدنيا إلا ما جاء في كتاب الله، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالواجب على المُصلِح أن يَدعوَ إلى إصلاح الدنيا؛ بالعودة إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالدعوة للتمسُّك بالأصول الشرعية التي كان عليها سلف الأمّة رضي الله عنهم، ففي ذلك إصلاح المسلمين، وعزُّهم، وصلاح الدنيا.

وإنّ الدعـوة ينبغـي أن تكون لأفراد الناس؛ بالحرص على إصلاح البيوت؛ بأن تقام على دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا صَلُح ذلك فإنّ الظنّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يُصلِح للعباد أمر البلاد.

أمّا أن يُترَك الناس على فساد، ولا يُدعَون إلى توحيد، ولا إلى سنة، ولا إلى صلاة ،ولا إلى بِـرّ، ولا إلى إصلاح حال؛ ويقال إنّ هنـاك دعوة للإصلاح فهذا غلطٌ بيِّن.

ولذلـك؛ ينبغي على المسـلمين جميعًا أن يَتنبّهوا إلى هـذه القضية الكليّة: الخيرُ كلُّه في الاقبال على مالك الخير كلِّه؛ وهو ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. [الذاريات: ٥٦-٥٨]).

اللـه عَزَّ وَجَلَّ خلـق الجن والإنـس لعبادته، وجعل لهم فـي ذلـك إرادةً واختيارًا، وأخبرهـم أنّ حكمـة خلقهـم إنمـا هـي عبادتـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنّ المـراد مـن وجودهـم فـي الدنيـا أن يعبـدوا الله، فـإذا عبدوا اللـه رزقهم اللـه وأطعمهـم، وآمنهم من خـوف، وهـذا مفهـومٌ من الآيـات؛ لأنّ اللـه عَزَّ وَجَلَّ قـال:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، لَـمْ يُـرد اللـه عَزَّ وَجَلَّ منّـا أن نرزقه أو نَـرزق أحـداً مـن عباده؛ بل ولا أن نُنشِـئ الرِّزق، فالذي يُنشـئ الـرزق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحـن نطلبـه، ثـم قـال اللـه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، إذن - يا عبد الله - إن عبدتَ الله رَزَقك الرزاق ذو القوة المتين.

وهذه قاعدة إيمانية عظيمة: أنّ الرزق والخير في الدنيا يتحقق بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأمّا تَعَيُّنُ مكسَب على مكسَب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك؛ فهذا يختلف باختلاف الناس).**

المكاسِب كلُّها الأصل فيها أنها حلال؛ إلا ما دلّ الدليل على تحريمه، الأصل في البيوع والمعاملات الحلّ إلا أن يدلّ الدليل على التحريم، فالأصل أنه يجوز للإنسان أن يبيع ما شاء كيف شاء، إلا ما منعه الشارع؛ كبيع الحصاة مثلًا، وبيع الغَرر، والرِّبا.

وأفضل المكاسِب أن يكتسب الإنسان بعمل يده؛ يقول النبي ﷺ: «**ما أكل أحدٌ طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيَّ الله داود** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **كان يأكل من عمل يده**» رواه البخاريُّ في «الصحيح»[(١)].

فما أكل أحدٌ طعامًا قط، أطيب ولا أحسن من طعام يأكله من عمل يده، وقد كان نبيُّ الله داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قَدْ ألانَ الله له الحديد، فكان يصنع منه ما شاء للناس، ويعمل بيده ويَكتسِب من عمل يده، فأفضل المكاسب ما كان من عمل اليد.

وتلحَظ أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: **(فأمّا تَعَيُّنُ مكسَب على مكسَب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة)** وهذه كلها من عمل اليد، فأفضل العمل هو ما كان من عمل اليد.

وأمّا تفضيل عمل على عمل من أعمال اليد؛ فهذا لَمْ يرد به نصٌّ، ويَختلف باختلاف أحوال الناس، وبحسب ما يتقنُهُ الإنسان، وكلٌّ جعل الله له قدرة في أمر من الأمور، فكما يقول الفقهاء: كلُّ إنسان فقيه نفسه، كل واحد يَعرف ما يُحسنه ويُتقنه من الأعمال الطيبة.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل عمله بيده، رقم: (٢٠٧٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا أعلم في ذلك شيئًا عامًّا، لكن إذا عنَّ للإنسان جهة فليستخر الله -تعالى- فيها الاستخارة المتلقاة عن معلِّم الخير ﷺ؛ فإنّ فيها من البركة ما لا يُحاط به، ثم ما يتيسّر له، فلا يتكلّف غيره؛ إلا أن يكون منه كراهةً شرعية).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لكن إذا عنَّ للإنسان جهة)** أي: من أعمال المكاسِب **(فليستخر الله)**، وقد قال السلف: ينبغي على الإنسان أن يستخير الله في أمور دنياه، فإذا أراد أمرًا من أمور الدنيا وعنَّ له فليصلٍّ صلاة الاستخارة - كما تقدّم معنا - وليستخر الله في ذلك الأمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم ما يتيسّر له)** من الأعمال، بعد الاستخارة فليُقدِم عليه، إلا أن يظهر فيه كراهةٌ شرعيةٌ، ولا ينبغي الإنسان إذا تيسّر له شيء حلال أن يُعرِض عنه إلا إلى أحسن منه، وإلا فليقبَل رزق الله ولا يُعرِض عنه، وهذا غاية ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأمر الثالث.

ثم يشرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأمر الرابع فيما يتعلّق بالكتب النافعة في العلوم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأمّا ما تَعتمِد عليه من الكتب في العلوم؛ فهذا باب واسع، وهو أيضًا يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسّر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسّر له في بلد آخر).**

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم)** الشرعية **(فهذا باب واسع)**؛ لكثرة ما كتبه علماء الإسلام في العلوم الشرعية؛ وهو يختلف.

وكما يقول العلماء: انتقاء الكتاب مهارة ينبغي العناية بها، فلا ينبغي للإنسان أن يقرأ الكتب كيفما اتّفق؛ بل ينبغي أن يختار الكتاب المناسب في العلم الذي يريد أن يدرسه.

وهذا له أمورٌ تُحدِّده:

منها: ثناء العلماء على الكتاب.

ومنها: الثقة في مؤلّفه.

ومنها: خدمة هذا الكتاب.

ومنها: النفع العائد على الطالب من هذا الكتاب.

الأمر الأول : لا بد أن ينظر طالب العلم إلى ثناء العلماء على الكتاب، فإنّ أهل العلم هم أهل الخبرة بالكتب.

الأمر الثاني : لابد أن ينظر إلى سلامة مؤلِّفه؛ مهما كان الفن، فإنه لا يَكتب أحدٌ كتابًا إلا ويَخدِم ما في قلبه؛ حتى في النَّحو تجد العقيدة؛ ولذلك المعتزلة لـمّا ألَّفوا في النحو والبلاغة ملؤوا كتبهم بما يشهد لعقيدة المعتزلة.

كتاب الخصائص لابن جِني - وهو من الكتب المعتمدَة في اللغة - مليء بالأمثلة التي تؤكِّد عقيدة المعتزلة، ومليء بالعبارات التي تتّفق مع عقيدة المعتزلة، فإياك أن تقول: هذا الكتاب في فنّ كذا لا علاقة للعقيدة به! العقيدة ملازمة للإنسان، ومَا من مؤلِّف يؤلِّف إلا وهو يخدم عقيدته، فلابد من معرفة هذا.

والأمر الثالث : خدمة هذا الكتاب، كون العلماء شرحوه، وكونه يمكن أن ينتقل الإنسان منه إلى كتاب أعلى منه فتكون سلسلة، هذا من الأهمية بمكان.

الأمر الرابع : مقدار إنتفاع الطالب به، و مقدار نفعه به، وهذا الذي أشار إليه شيخ الإسلام في قوله: (**فقد يتيسّر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسّر له في بلد آخر**) ومَا يتعلق بالمذهب وطريق العلم.

فمثلًا؛ إذا أردنا أن نختار متنًا في الفقه؛ فإنّا إذا نظرنا إلى الثلاثة الأمور المتقدمة نقول يختار طالب العلم مثلًا «زاد المستقنع»؛ لأنّ العلماء أثنَوا عليه، ولسلامة

صاحبه، ولأنه مخدوم، فإنّ الطالب بعد أن يفرغ منه ينتقل إلى «الشرح المختصر على زاد المستقنع» للشيخ صالح الفوزان، فيفهم الكتاب فهمًا جيِّدًا، ثم ينتقل إلى كنز الفقه «الشرح الممتع» للفقيه الممتع، الإمام الشيخ محمد بن صالح العثيمين؛ بحيث يعرف الترجيح في المسائل، ثم ينتقل إلى «المغني» لابن قدامة، ويُبحر كما يشاء في علم الفقه.

ولكن ينبغي أيضًا النظر إلى النفع المتعدي القادم؛ ولذلك إذا كنتَ من بلد ينتشر فيه المذهب الحنفي، فالأحسن أن تختار متنًا في الفقه الحنفيّ؛ لأنك إن أجدتَه وعدتَ إلى البلاد، فإنّ الناس يثقون بعلمك؛ لأنك تأتيهم بالكتب التي عهدوا، وبالمصطلحات التي عهدوا، وإذا وثق الناس في أصل علمك، فإنك تستطيع أن توصِل إليهم الخير إن شاء الله عز وجلّ، فتجعل ذلك مفتاحًا لتنشر فقه الدليل والسنة.

إذا كنت من بلد ينتشر فيه المذهب المالكي فحَسَنٌ أن تختار متنًا في المذهب المالكي، وكذلك بالنسبة للمذهب الشافعي.

ومن أنفع الأمور أن تقرأ المتن على متمكِّن من الفنّ يستطيع أن يشرح لك الكتاب، ثم تعيد القراءة عليه بنقد الكتاب، ثم بعد ذلك تنتقل إلى ما بعده من الكتب، وهكذا في سائر الفنون والعلوم الشرعية.

لكنّ الشأنَ كلَّ الشأنِ هو فيما يوصي به شيخ الإسلام رحمه الله حيث يقول: (لكنّ جماع الخير أن يستعين بالله - سبحانه - في تلقّي العِلم الموروث عن النبي ﷺ، فإنه هو الذي يستحق أن يُسمّى علمًا، ومَا سواه إمّا أن يكون علمًا فلا يكون نافعًا، وإمّا أن لا يكون علمًا وإن سُمِّي به، ولئن كان علمًا نافعًا فلابد أن يكون في ميراث محمّدٍ ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه، ولتكن همّته فهم مقاصد الرسول

ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أنّ هذا مراد رسوله ﷺ فلا يَعدِل عنه فيما بينه وبين الله - تعالى - ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لكـنّ جمـاع الخيـر)** - لطالـب العلم - **(أن يسـتعين باللـه)** أوّل علامـات التوفيق: أن يبـرأ طالب العلم من حوله وقوته، ويقـول معتقدًا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، لا ينطلق طالب العلم في طلبه للعلم معتمدًا على قدراته - كما يقول أهل الدنيا - أو معتمدًا على ذكائه؛ بل ينطلق وهو يعلم أنه ضعيفٌ إلا بإعانة الله، عاجزٌ إلا بحول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستعين بالله، ويُعلِّق قلبه به.

وكم من إنسـان سـلك طريق العِلم، أو طريق الدعوة معتمِدًا على مهارته فلم يُوفَّق، بل قد يصل الأمر إلى أن يتزندق، نعرف من آحاد الناس من كان مقبلًا على العلم الشـرعي، وألّف على طريقة السـلف، فغرّته نفسـه وقدراته؛ فانحرف حتى مات على الزندقة.

فطالـب العلـم ينبغي أن يحذر حذرًا شـديدًا من العُجب بنفسـه، ومن الغرور بذكائـه، بل يُذكِّر نفسـه دائمًا بأنه عبدٌ ضعيف، وأنه لن يكـون له خير إلا إذا أعانه الله، فيستعين به.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فـي تلقّي العِلم المـوروثِ عن النبـي ﷺ)** يا طالـب العِلم اقْصُر نفسـك فـي طلب العِلم علـى طلب العِلم الموروثِ عن النبـي ﷺ، أو مَا دلّ عليه العِلمُ الموروثُ عن النبي ﷺ.

لأنّ العلم النافع نوعان:

الأول: علمٌ هو الذي جاء في الكتاب والسنة، وهو المسمّى بالعلم الشرعي.

الثاني: علمٌ أرشـد إليه الكتاب والسـنة، وهذا هو العلم الدنيويُّ النافع، الذي لا يعارِض شيئًا من الشرع؛ كعلم الطب والهندسة ونحو ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه هو الذي يستحق أن يُسمّى علمًا)** العلم الذي أجمع المسلمون على أنه علم: هو ما جاء في كتاب الله، وفي سنة النبي ﷺ، لا يوجَد أحدٌ يقول: هذا ليس بعلم؛ بل هو العلم المقطوع به أنه علم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَا سواه)**: أي: من الأمور التي تُنسَب إلى الدِّين أو تتعلّق به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إما أن يكون علمًا فلا يكون نافعًا)** إمَّا أنه علم وله أصول، لكنه لا يَنفع؛ ما دامَ أنه خارج عن الكتاب والسنة؛ مثل ما يسمّى بعلم المنطق؛ وهو علم، وله أصول، لكن لا يحتاجه ذكي، ولا ينتفع به غبي، فإن كان الإنسان ذكيًا فإنه لا يحتاجُه في فَهم العِلم، فإنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - أعلم الأمّة بالإجماع، ما احتاجوا إلى هذا المنطق، ولا يَستفيد منه غبيّ؛ لأنه لا يفهمه، ولو دخل فيه سيَغرَق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإمَّا ألَّا يكون علمًا وإن سُمِّي به)** فليس من العلوم مثل ما يسمُّونه الآن بعلم (ما وراء الطبيعة) أو علم(الغيبيات)؛ وهو الكِهانة التي تعتمد على الكذب والدَّجل، التي تَعتمد على أخذ شيء صحيح، يُبنى عليه مائة شيء كاذب، هذه الكهانة في هذا الزمان أسمَوها علمًا، ويأتون بأشخاص يقولون: الدكتور فلان عالِم، وخاصة عند نهاية العام يأتون به يسألونه؛ ماذا تتوقع للعام القادم؟ ويأتون بأشياء معروفة لها أسباب متكرِّرة، يقول: سيضرب أمريكا إعصار، في السنة يضربها عشرة أو عشرون؛ هذا معروف، يقولون: سيحصل كذا ويحصل كذا، ويكذبون الكذبات، ويقولون علم، علم الغيبيات، علم ما وراء الطبيعة! وهذا أسوأ من الجهل، ومضادٌّ لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولئن كان علمًا نافعًا)** لئن كان ما سوى العِلم الموروث عن النبي ﷺ علمًا نافعًا مما يُنسَب إلى الدِّين؛ فإنّ في ميراثِ النبي ﷺ ما هو خيرٌ منه، فالاشتغال به اشتغالٌ بالمفضول وترْكٌ للفاضل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولتكن همّته فَهم مقاصد الرسول ﷺ)**: ليكن قصدُك وعزمُك وهمّتُك أن تَعرف مراد الرسول ﷺ، لأنّ المتّبع حقّاً هو الذي عِلمَ الموروث كما أراده النبي ﷺ.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الصحابة كانوا يَنظرون إلى مَقصِد الرسول ﷺ في الاتّباع، فليس الاتّباعُ أن تَعمَل بالنّص مُغْفِلًا حِكْمتَه، وإنّما الاتّباع أن تَعمل بالنص مُعمِلًا حكمته.

فمثلًا جاء في «سنن ابن داود»: (أنّ ناقة البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دخلتْ حائط قومٍ فأفسدته، فقضى النبي ﷺ أنّ على أهل الحائط حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل)[1]، ناقةٌ للبراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دخلتْ بستانًا -الحائط هو: البستان- فأفسدته ولم تكن بساتين المدينة مسوَّرة في زمن النبي ﷺ، فرفع أصحاب البستان الأمر إلى النبي ﷺ ليحكم، بِمَ حكم النبي ﷺ؟ حكم (أنّ على أهل الحائط حفظها بالنهار) فمسؤولية الحفظ في النهار على أهل الحائط، فلو دخلتِ الدابة في النهار البستان وأفسدته، فلا ضمان على صاحبها؛ لأنّ الحفظ على أهل البساتين، وحفظ المواشي بالليل على أهلها فلو أنّ الماشية دخلت البساتين في الليل فأفسدته فإنّ أصحابها يضمنون.

---

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: البيوع، باب: المواشي تفسد زرع القوم، رقم: (٣٥٧٠)، وصححه الالباني في «إرواء الغليل» رقم: (١٥٢٧).

قال العلماء: ما مقصود النبي ﷺ من هذا الحُكم؟

قالوا: (المقصود رفع الحرج عن الناس؛ بالحكم بما يوافق العادة)، العادة أنّ أهل البساتين متى يعملون فيها؟ يعملون في النهار؛ فقضى عليهم أنّ عليهم الحفظ بالنهار، لأنه لو لَمْ يقضِ النبي ﷺ بذلك لوقع الناس في حرج؛ يبقى صاحب البستان فيه في النهار للحراثة، ويبقى في الليل للحراسة، فيبقى في بستانه طوال يومه وليلته؛ وهذا حرجٌ شديد وأيضًا أهل المواشي يمسكون مواشيهم بالليل؛ خوفًا عليها من الذئاب، ويمسكونها في النهار لأنّ عليهم حفظها، وهذا أيضًا فيه مشقة شديدة.

لو فرضنا أنّ في بلد من البلدان تغيّر الحال، مثلاً بلد أصابه حرٌّ شديد، فأصبح أصحاب البساتين يعملون في البساتين في الليل، لا يستطيعون العمل في النهار، وأصحاب المواشي يُمسكون المواشي في النهار؛ خوفًا عليها من حرارة الشمس الشديدة، فإنّ المتَّبِع حقًا يقول: إنّ على أهل الحائط حفظها بالليل، وعلى أهل المواشي حفظها بالنهار، لماذا؟ لأنّ هذا مقصود الرسول ﷺ؛ وهو أن يُيسِّر على الناس.

ولو جاء إنسان وقال: لا، أنا أتمسّك بالنص؛ على أهل الحائط أن يحفظوها في النهار ولو عملوا في الليل، وعلى أهل المواشي أن يحفظوها بالليل ولو أمسكوها في النهار، قلنا: أنت مخالف لمراد الرسول ﷺ.

إذن؛ أريد بهذا المثال أن أقول: إنّ طالب العلم ينبغي عليه أن يعرف مراد الرسول ﷺ، ويتّبع بناء على فَهم مراده ﷺ.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فـإذا اطمـأنّ قلبه)** - أي قلـب طالب العلم - **(أنّ هـذا هو مراد الرسول فلا يَعدِل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس)** أي يعمل، فإنّ فائدة العلـم العمل، والنبـي ﷺ يقول: «**مررتُ ليلة أُسـريَ بي بأقوامٍ تُقرَض شـفاههم بمقاريـض من نار، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريـل؟ قال: خطباءُ أمّتك، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون القرآن، ولا يعملون به**»(١).

فالـذي ينبغي لطالب العلم إذا علم الموروث عن النبي ﷺ وعلم مقصوده منه أن يعمل به، سواء فيما يتعلّق بحقوق الله، أو ما يتعلّق بحقوق الآدميين.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وليجتهد أن يعتصم في كل بـاب من أبواب العلم بأصلٍ مأثورٍ عن النبي ﷺ)**.

ليكـن هـمُّ طالب العلم أن يَعـرف الأصل الوارد عن الرسـول ﷺ فيما يَتعلّم، إذا كان يتعلّـم الفقـه فينبغي أن يتعلّم الأصل في الباب الذي دلّ عليه الدليل، فإذا جـاء إلـى باب الآنية، ينبغـي أن يعرف الأصل في باب الآنية بحسـب ما دلّ عليه الدليـل، فيعـرف أنّ الدليل دلّ علـى أنّ الأصل في الأواني الطهارة فيتمسّـك به، فكلّما دَرَسَ نظر إلى هذا الأصل، فما وافق الأصل فحَسَـن، وما خالف الأصل؛ إن دلّ عليـه دليلٌ خاص فحَسَـن، وإلا ردَّه إلى الأصل، وهكذا يكون علمه متينًا، قائمًا على قول الله وقول رسوله ﷺ.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٩/ ٢٤٢)، برقم: (١٢٢١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٩١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليَدْعُ بما رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا - أنّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[(١)]).

طالب العلم إذا تعلّم:

إمّا أن تكون المسألة اتفاقية: ومَا أجمَعتْ عليه الأمّة فهو حق.

وإمّا أن تكون خلافية: فإن كانت المسألة خلافية من حيث الواقع؛ فلينظر هل سبق هذا الاختلاف اتفاق؟ فإن سبق هذا الاختلاف اتفاق، فإنه يتمسّك بما اتفق عليه صدر الأمّة؛ فإنه الحق المقطوع به.

فإذا جئنا إلى العقيدة، نجد أنّ السلف قد اتَّفقوا على مسائلها، ووقع الاختلاف بعدهم، فهنا لا اشتباهَ ولا توقّفَ ولا احتمالَ؛ بل الحقُّ اليقينيُّ: ما كان عليه سلف الأمّة، ما اتَّفق عليه الصدر الأوّل، والباطل المقطوع به: ما خالف هذا.

وإن لَمْ يسبق هذا الاختلاف اتفاق؛ فلينظر هل هناك قول دلّ عليه الدليل النقليّ دون غيره؟ فإن وَجَدَ قولًا دلّ عليه الدليل النقليّ: فإنه يتمسك به ويَدَعُ ما سوى ذلك، وهذا معنى قول الفقهاء: (لا اجتهاد مع النص)، وهو قول الإمام الشافعي: (أَجمَعَ الناس على أنّ من استبانتْ له سنة رسول الله ﷺ لَمْ يكن له أن يَدَعَها لقول أحدٍ من الناس كائنًا من كان).

---

(١) «صحيح مسلم»، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٧٠).

وإن كانت المسالة خلافية، ولم يسبقها اتفاق، ولم يظهر دليل يقوِّي أحد الأقوال على غيره قوة ظاهرة؛ بل اشتبهت الأقوال على طالب العلم؛ فليسأل الله الهداية، ويسأله أن يلهمه الحق فيما اختُلف فيه.

ولذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس، فليَدْعُ بما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **: أنّ رسول الله** ﷺ **كان يقول إذا قام يصلي من الليل)** وهذا من أدعية الاستفتاح التي كان يستفتح بها النبي ﷺ في صلاة الليل: «**اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[1].

فيسأل طالب العلم ربه أن يهديه لما اختُلف فيه من الحق، وأن يثبّته عليه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإنّ الله – تعالى – قد قال فيما رواه عنه رسوله** ﷺ: **«يا عبادي! كلُّكم ضال إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم»[2]).**

وتقدّم أنّ هذا في «صحيح مسلم»، «**فاستهدوني**»: اطلبوا هدايتي «**أهدكم**»، والهداية من الله كانت بالبيان فالله قد هدانا إلى الحقِّ ببيان الأدلة، ومن استعصم بالدليل فقد تمسّك بسواء السبيل وعرف طريق الهداية، وقد تَشتبِه الأدلة على طالب العلم فيسأل الله أن يهديَه إلى الحقِّ مما اختَلَفَ فيه أهل العِلم.

(١) تقدَّم في الصفحة السابقة.

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأمّا وصْف الكتب والمصنِّفين؛ فقد سُمِع منّا في أثناء المذاكرة ما يسَّره الله – سبحانه –).**

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعلم الناس بالكتب والمؤلِّفين، إذا قرأتَ كلامه تتعجّب مما يورده من المصنَّفات والكتب ومَا يذكره عن أحوال مؤلِّفيها؛ وذلك لأنّ الله رزقه سَعةً في العلم، وقد كان في دروسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ – وكثيرٌ منها جُمِعَ منه أجزاء في مجموع الفتاوى وفي غيره – يذكر الكتب، ويبيِّن النافع منها والضار، وأحوال المصنِّفين لها، ولذلك قال هنا: **(وأمّا وصْف الكتب والمصنِّفين؛ فقد سُمِع منّا في أثناء المذاكرة)** أي: في أثناء الدروس **(ما يسَّره الله سبحانه)**.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَا في الكتب المصنَّفة المبوَّبة كتابٌ أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاريّ).**

هذا الكتاب أصحُّ كتاب على وجه الأرض أُلِّف، وهو أنفع كتاب كتبه آدميٌّ وألَّفه، ولا يُعرَف أنفع منه، وذلك لأنّ كاتبه فقيهٌ من فقهاء الأمّة، مُحدِّث متقنٌ، حافظٌ للأحاديث، اشترَط في كتابه أعلى شروطِ الصّحة على الإطلاق، ومَا كَتَبَ حديثًا حتى صلّى ركعتَين، وقد أَجمَعتِ الأمّة على صحّة ما في هذا الكتاب العظيم، وهو كتاب نافعٌ في كلِّ أبواب العلم، فإنّ البخاريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله على كتب العلم، وترجَم له تراجم فقهيّة نافعة.

في العقيدة يجد طالب العلم في هذا الكتاب العظيم النفع الكثير؛ ولذلك أحد الإخوة قال: أهلنا في البلد لا يرضَون أن نقرأ لهم كتب العقائد! قلتُ له: اقرأ عليهم «صحيح البخاري»؛ كلُّ المسلمين يُسلّمون لصحيح البخاري، وليكن همّك أولًا أن تُسمِعهم الأحاديث فيما يتعلّق بالعقيدة والأصول الكليّة، ثم بعد

ذلك أَسمِعهم شروحًا للعلماء ليست لك، منتقاة؛ تكون قد علّمتهم العقيدة.

فليس تعليم العقيدة خاصّاً بالكتب المؤلَّفة باسم العقيدة، بل كتب السنة الصحيحة الثابتة فيها خيرٌ كثيرٌ، وتعليمٌ للعقيدة.

أيضاً في الفقه؛ من أنفع الكتب لطالب العلم في الفقه هذا الكتاب العظيم كتاب الإمام البخاري، وكذا في السيرة، وفي الفضائل، وفي الرغائب، في جميع ما يُحتاج إليه في العلم؛ يُنتَفع بهذا الكتاب.

لكنه عملٌ لبشر، ومَا كان لبشريٍّ أن يُحيط بالحقِّ كلِّه؛ إلا رسول الله ﷺ، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أعلى الأمّة وأعلم الأمّة بعد رسول الله ﷺ فاتته أحاديث كثيرة، وكذا عمر رضي الله عنه، وغيرهما من صحابة رسول الله ﷺ، ولهذا نبّه شيخ الإسلام رحمه الله على هذه القضية.

فقال رحمه الله: (لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم، ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحّر في أبواب العلم؛ إذ لابد من معرفة أحاديث أُخَر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يَختصُّ بعلمها بعض العلماء).

أي: أنّ طالب العلم الذي يريد أن يتبحَّر في العلم، لا يَقصُر نفسه على شيخ واحد ولو كان البخاريّ، ولو كان بعلم البخاريّ، ولكنه يأخذ من شيخه ما يُتقنه، ويضيف إلى علم شيخه علم الأشياخ الأثبات، بطريقة مرتّبة صحيحة.

أحيانًا يحصل تزاحمٌ للدروس؛ تكون في وقت واحد، فيحتار طالب العلم، مثلًا قد يكون درس الشيخ عبد المحسن البدر ودرس الشيخ صالح السحيمي، في وقت واحد، وهناك طريقة كان يفعلها طلاب العلم في المسجد النبوي أيام كان

يُدرِّس في هذا المسجد أعلام كبار؛ كالشيخ ابن باز - رحمه الله رحمةً واسعة وأعلى درجته في الجنة - والشيخ الأمين - إمام الدنيا في وقته في التفسير، الفقيه الأصولي، السلفي حقّاً وصدقاً، صاحب أضواء البيان - والشيخ الألباني، والشيخ عبد الرحمن الأفريقي، وعدد كبير من العلماء، وكانت دروسهم تقريبًا في وقت واحد، فكان بعض طلاب العلم يَقتَسمون الدروس، أربعة أو خمسة عند الشيخ فلان، وثلاثة عند الشيخ فلان وهكذا، ثم بعد العشاء يَجتمعون: يقولون لبعضهم: ماذا سجلتم من فوائد عند الشيخ ابن باز؟، يقولون: استفدنا كذا وكذا؛ فيقَيِّدوه، ماذا استفدتم من الشيخ الأمين من فوائده؟ يقولون: كذا وكذا؛ فقيَّد الجميع، فلا يَخرجون من المسجد إلا وقد علَّقوا فوائد الجميع.

وهذا أحسن من التسجيل، لأنّ فيه مدارسة بين طلاب العلم.

يا طالب العلم، والله ما وجدتُ أبرَك للعلم من أن تنفع به غيرك، إن أردتَ أن يُبارَك لك في العلم، وأن يَثبُت وأن تنتفع به فابذله ولا تبخل به، والله تجد بركة عجيبة وتجد ثباتًا عجيبًا.

إذا كان البخل مذمومًا، فبخل طالب العلم بالعلم أذمّ، فإن حصّلت فائدة فابذُلها؛ يُبارَك لك فيها، وتنتفع بها، وتَثبُتُ إن شاء الله عز وجل.

وأيضاً طريقة المدارسة بين طلاب العلم مثبّتةٌ للعلم، وأحيانًا تغيب عنك المسألة فتتذكرها بكلام أخيك، يقع بينكما بعض المراجعة في المسألة؛ فتتذكّر المسألة بتلك المراجعة، وهذا من أنفع ما يكون.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أَوعَبَت الأمّة في كل فنٍّ من كل فنون العلم إيعابًا، فمن نوّر الله قلبه هداه بما يَبلُغه من ذلك، ومن أعماه لَمْ تزده كثرة الكتب إلا حَيرَة وضلالًا؛ كما قال النبي ﷺ لأبي لبيد الانصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَو لَيست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تُغني عنهم»؟!(١)).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد أَوعَبَت الأمّة في كل فنٍّ من كل فنون العلم إيعابًا)** أي: كتب علماء الإسلام في فنون العلوم النافعة كتباً كثيرة، وهي موجودة ومشتهرة، ولكنّ الشأن كل الشأن: ما أثر هذه الكتب على الإنسان؟

ليس الشأن أن تعرف الكتب، بل وليس الشأن أن تحفظ الكتب، ولكنّ الشأن: ما أثر هذه الكتب عليك؟

وهذا الأثر لا يكون خيرًا وبركة إلا بعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك نبّه شيخ الإسلام إلى هذا القضية العظيمة؛ وهي: أنّ **(من نوّر الله قلبه هداه بما يَبلُغه من ذلك)** ما يَبْلغه من كتب أهل العلم الأثبات يهديه الله به إن نوّر قلبه، ومن أعماه لَمْ تزده كثرة الكتب، إلا حَيرَة وضلالًا وغواية.

الآن في وسائل الاتصال الحديثة، في الشبكة العنكبوتية؛ يأتي أشخاص وقد وضعوا خلفهم كتبًا كثيرة، ويأتي يأخذ الواحد منهم كتابًا من الكتب ويقرأ ثم لا تجد همَّهُ إلا أن يَنقُضَ أصول السنة، كل ما يُقرِّره يَنقُضَ أصول السنة التي أجمع عليها أهل السنة، والله ما زادته الكتب إلا حَيرَة وضلالًا.

وإنك تجد أن بعض الدكاترة العوامّ خيرٌ منهم، فالعاميّ تجده على عقيدة طيبة، وتجد بعض الدكاترة مساكين ما زادتهم الدكتوراه إلا جهلًا وضلالًا فاضحًا!

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: العلم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في ذهاب العلم، رقم: (٢٦٥٣)، وصححه الألباني في تخريج «اقتضاء العلم العمل» (٨٩).

كثيـرٌ من النـاس قرؤوا كتبًا فأصبحوا طُبولًا، الطبـل كبيرٌ حجمه، عالٍ صوته، لكن لا شـيء تحت جلده، لو شَـققتَ الجلد ما وجدتَ إلا هواء فارغًا، وبعض من يُنصَّبون اليوم لو شققتَ جلده ما وجدتَ إلا هواء فاسدًا.

فالعبرة بهداية الله للعبد، أن يهديه وينوّر قلبه.

واللـه زرتُ أحد البلـدان فركبتُ مع سـائق أجرة، وإذا به عاميّ يتكلّم بالسـنة والتوحيد ما شـاء الله تبارك الله! ثم دخلتُ المسـجد لأصليَ الجمعة، وإذا بشـيخ معمَّم يخطب، لو كان لي سلطة لأنزلتُه من على المنبر، فمثله لا يجوز له أن يتكلم في الدين.

فالعبـرة بهداية الله، فلذلـك الموفّق من عباد الله من يلجأ إلى الله دائمًا (اللهم اهدني، اللهم نوّر قلبي)، ويلزم الطرق الصحيحة في هذا الباب.

ولذلـك **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كمـا قال النبي** ﷺ **لأبي لَبيد**) وهذا كما في أكثر النُّسـخ، وفي بعض النُّسـخ (**لابن لَبيد**) وهو الصـواب، أنه ابن لَبيد، وليس أبا لبيد كما في أكثر النُّسخ، وهذا هو الموافِق لما ورد في الحديث.

جـاء أنّ النبـي ﷺ قـال: «**هـذا أوانٌ يُختَلَـس العِلـم**» أي اقتـرب الوقت الذي يُختَلـس فيـه العلم ويُرفَع فيه العلم، قال: «**هذا أوانٌ يُختَلس العِلم من الناس حتى لا يَقـدِروا منـه على شـيء**»، والمقصود اقتـراب هذا الزمان، ولا شـك أنه في آخر الزمـان يُرفَع العِلم بمـوت العلماء، حتى يتّخذ الناس رؤوسًـا جُهّالًا، فيُفتُون بغير عِلم ولا سُنَّة ولا هدىً؛ فيكونون ضُلَّالًا، ويُضلُّون الناس بهذا.

قال ﷺ: «**هذا أوانٌ يُختَلس العِلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شـيء**»، قـال زياد بـن لبيد الأنصـاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيـف يُختَلس منّا وقـد قرأنا القـرآن؟ فوالله لَنَقـرأَنَّه ولَنُقرِئَنَّه نساءنا وأبناءنا.

ابـن لبيد قال: كيـف يُختَلس العِلم ونحن - بحمد اللـه - قرأنا القرآن، ووالله لن نُفرِّط؛ سـنقرأه ونُقرئه حتى النسـاء وحتى الأطفال، فقـال النبي ﷺ: «**ثكلتك أمّـك يا زياد! إن كنتُ لأعدُّك مـن فقهاء أهل المدينة - لأنه أنصاري - هذه التوراة والإنجيـل عنـد اليهود والنصـارى فماذا تغني عنهـم**»؟! ما أغنتْ عنهم شـيئًا، لـمّا لَـمْ يحفظهـا الله فَبُدِّلـت وغُيِّرت، ولم يحفـظ الله عليهم دينهـم فحرَّفوا وبدّلوا وأصبحوا مشـركين، وهذا الحديث رواه الترمذي وقال: حسـن غريب، وصحَّحه الألباني[١].

والمقصود، أنّ التوراة والانجيل، لماذا لم تنفعهم؟ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنها لَمْ تُحفَظ لهم؛ فحرّفوها.

الأمر الثاني: أنهم مع تحريفهم لها لَمْ يَعملوا بها، فما لَمْ يُحرَّف منها لَمْ يعملوا به، ولذلك جاء عند ابن ماجه: «**أوليس هذه اليهود والنصارى يَقرؤون التوراة والإنجيل ولا يَعملون بشيء مما فيهما**»؟![٢].

إذن كيف يُختَلس العلم من الأمّة؟

في ثلاثة أمور - يجب أن ننتبه لها حتى نحذرها -:

الأمر الأوّل: موت العلماء، بحيث لا يَخلِف العالمَ عالِمٌ، وإلا فالعلماء يموتون من زمن النبي ﷺ؛ لكنهم يورّثون العِلم، ويَخلف العالِم عالِمٌ لكن إذا زهدنا في العلماء لا نتعلّم منهم، يموت العالِم ولا يأتي أحدٌ بعده؛ هنا يُختَلس منا العلم.

(١) تقدَّم آنفاً.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «السنن» أبـواب: الفـتن، باب: ذهـاب القرآن والعـلم، رقم: (٤٠٤٨)، وصححه الألباني فيه.

فينبغـي أن نحـرص على علم علمائنا، إذا جلسـت مع العالـم احرص على أن تأخذ منه الدُّرر، لا تُشغل نفسك بما لا خير فيه، تسأل الشيخ هذا السؤال، وتذهب للشـيخ الثاني تسـأله نفس السـؤال، وتذهب للشيخ الثالث تسـأله نفس السؤال، بعد سـنة تأتي من بلدك من بعيد تزور الشـيخ تسـأله نفس السـؤال! علمتَ يا هذا فاعمل، اسـتخرِج الدُّرر من المشـايخ والعلماء، حتى إذا مـات العالم خَلَفَه عالم، على الأقلّ يكون عندنا مجموعة يُشكّلون عالمًا من العلماء.

الأمر الثاني: الانصراف عما في الكتاب والسنة وطلب الهداية بغيرهما، وهذا – نعوذ بالله – كثر في زماننا.

كثيرٌ ممن يزعمون أنهم مستقيمون، لا يَلتمسون الهدى في آية أو سنة، وإنما هم أتباعٌ للشيخ، إن اهتدى اهتدَوا وإن ضلَّ ضلُّوا، فأعرَضوا عن سبيل الهداية وهو ما في الكتاب والسنة، واتّخذوا رجالًا يَتْبعونهم، ولذلك تجد جماعات لا يَسمحون بقراءة الكتب التي فيها (قال الله، قال رسوله ﷺ)، وإنما كتب فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، وتجد جماعات لا تهتدي بآيات من القرآن أو أحاديث من السنة وإنما أصول الشيخ تُحفَظ.

حتى قال لي أحدهم – وهومن كبارهم – صلى بنا أحدهم، فلمّا فرغ قلتُ له: لماذا لَمْ تعمل كذا؟ السُّنَّة كذا.

قال: ألم يقل الشيخ: نجتمع على ما اتّفقنا عليه ويَعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه؟ هذا الدليل والحجة! فيقول هذا الشـيخ الـذي يحدّثني: قلتُ له: بلى، ولكن هذا لا يخالف كلام الشيخ.

سـبحان اللـه! نترك أن نهتدي بكتاب الله وسـنة النبي ﷺ إلـى أصول يضعها رجال، لا نعرضها على الكتاب والسنة!

فهـذا الأمر الثاني من أسـباب اختلاس العلم وانـدراس العلم: أن نُعرِض عما فـي الكتاب والسـنة إلى الاهتـداء بغير ما ورد في الكتاب والسـنة، فيظهر الجهل المركّب، علماء بلا علم، - يُسمَّون علماء - ، فيدلُّون الناس على الجهل، وينتقدون العلم للأسف، ويُصدِّرون فتاوى في نقض فتاوى العلماء.

الأمر الثالث: عدم العمل بالعلم، وهذا من آفات الزمان، نُكثِر الحُجج على أنفسنا ولا نعمل، نتعلّم ولا نعمل، والنبي ﷺ يقول: «**مررتُ ليلة أُسريَ بي بأقوام تُقرَض شفاههم بمقاريض من نار، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمّتكَ الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون القرآن ولا يعملون به**»[1]، إذن لا نزال بخير ما بقي العلم فينا، ويبقى العلم فينا ما أقبلنا على علمائنا، واهتدينا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وأعلَيناهما فوق كل شيء، وحَكَمْنَا على كل شيء بهما، ومَا عملنا بالعلم، فلنحرص على هذا الأمر العظيم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويُلهمنا رُشْدنا، ويقينا شر أنفسنا، وألَّا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهّاب، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين).**

وبهذا نكون قد فرغنا من شرح «الوصية الصغرى»، شرحًا أرجو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون نافعًا لشارحه، نافعًا لقارئِه، وأن يكون سببًا لفَهم كلام هذا العالِم الناصح للأمّة.

رحمه الله رحمة واسعة، وصلى الله على نبينا

محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) تقدَّم تخريجه.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
• المقدمة	٥
• ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية	٧
• مولده و نشأته	٨
• صفاته الخَلقية والخُلقية والعلمية	٩
• شيوخه وتلاميذه	١١
• جهاده وابتلاؤه	١٣
• مؤلفاته	١٤
• وفاته وثناء العلماء عليه	١٥
• ترجمة الشيخ سليمان الرحيلي	١٩
• شرح الوصية الصغرى	٢٥
• سبب تأليف الرسالة وما تضمنته	٢٥
• بيان شيخ الإسلام كون وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه أنفع ما يكون للمسلم	٢٧
• وجوه أهمية وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه	٣٤
• أسباب تكفير الذنوب	٤٥
• شروط التوبة خمسة	٤٦
• الفرق بين التوبة والاستغفار	٥٠

الـمـوضـــوع	رقم الصفحة
• الكفارات زواجر قبل الوقوع جوابر بعد الوقوع................	٥٤
• مسألة: هل الدم الواجب في واجبات الحج بدل عن الواجب أو أثر لترك الواجب؟................................	٥٦
• هل الكبائر تُكَفَّر بالصالحات أو لا بُدَّ فيها من توبة	٦٠
• أنواع التشبه بالكفار	٧٠
• الفرق بين الإطلاق والتعيين في التكفير	٧٣
• البدعة أحب إلى إبليس من المعصية	٧٩
• مما يعين العبد على الصبر عند البلاء أمور	٨٠
• التفضيل لا يقتضي النقص	٨٦
• أسباب قطع الرحم: دنيوية ودينية	٩٢
• بيان شيخ الإسلام بأن وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه تفسير لوصية الله تعالى	١٠١
• حقيقة التقوى	١٠٣
• الفرق بين الإيمان عند أهل السنة وعند المرجئة بأنواعها......	١٠٩
• مكفرات الذنوب العشرة	١٢٠
• حديثان ظاهرهما التعارض	١٢٦
• الميزان في معرفة الأفضل من الأعمال	١٤٢
• أفضل الأعمال بعد الفرائض ثلاثة	١٤٩
• كلام لابن القيم في المراتب الثلاثة	١٥١
• معنى المفردون	١٥٤

الموضوع	رقم الصفحة
• الأذكار نوعان: مطلق ومقيد	١٥٩
• متى يبدأ وقت أذكار الصباح والمساء	١٦٠
• المقصود بقوله: (أدبار الصلوات)........	١٦١
• أفضل الذكر المطلق	١٦٤
• متى يكون المفضول فاضلاً ؟	١٦٥
• سبب الإختلاف بين السلف في أفضل الأعمال	١٧٠
• الأفعال التي ليس فيها استخارة........	١٧١
• متى يكون دعاء الاستخارة	١٧٢
• كيف تتبين الخيرة إذا استخار الإنسان	١٧٣
• آداب الدعاء	١٧٥
• حكم قول إن شاء الله في الدعاء	١٧٩
• من الاعتداء في الدعاء	١٨٠
• رفع اليدين في الدعاء على ثلاثة أحوال	١٨٢
• أقل درجات الاقتصاد الواجب	١٩٢
• أفضل المكاسب	١٩٩
• انتقاء الكتاب يقدم على أمور منها	٢٠٠
• من طرق تدريس العوام العقيدة «صحيح البخاري»	٢١٠
• من طرق تحصيل العلم إذا تزاحمت الدروس	٢١١
• كيف يختلس العلم من الأمة	٢١٤

تمّ بحمد الله

مطبعة النظائر
هاتف: ٢٤٧٤٤٧٤٠ - فاكس: ٢٤٧١٦٩٩٣
www.nazaer.com

قال الإمام أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي المغربي الشافعي النحوي

رحمه الله يرثي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

عثا في عرضِهِ قومٌ سلاط ❖❖❖ لهم مِنْ نثرِ جوهرِهِ التقاطُ

تقيُّ الدينِ أحمدُ خيرُ حَبْرٍ ❖❖❖ خُروقُ المعضلاتِ بِهِ تُخاطُ

توفي وهْوَ محبوسٌ فريدٌ ❖❖❖ وليسَ لهُ إلى الدنيا انبساطُ

ولو حضروهُ حينَ قضى لألفَوا ❖❖❖ ملائكةَ النعيمِ به أحاطوا

قضى نحباً وليسَ لهُ قرينٌ ❖❖❖ ولا لنظيرِهِ لُفَّ القِماطُ

فريداً في ندى كفٍّ وعلمٍ ❖❖❖ وحلُّ المشكلاتِ به يُناطُ

وكانَ إلى التُقى يدعو البرايا ❖❖❖ وينهى فرقةً فسقوا ولاطوا

وكانَ يخافُ إبليسٌ سطاهُ ❖❖❖ بوعظٍ للقلوبِ هوَ السياطُ

فيا للهِ ماذا ضمَّ لَحْدٌ ❖❖❖ ويا للهِ ما غطَّى البساطُ

هُمُ حسدوهُ لمَّا لم ينالوا ❖❖❖ مناقبَهُ فقد مكروا وشاطوا

وكانوا عن طرائقِهِ كسالى ❖❖❖ ولكنْ في أذاهُ لهم نشاطُ

وحبسُ الدرِّ في الأصدافِ فخرٌ ❖❖❖ وعندَ الشيخِ بالسجنِ اغتباطُ

بآلِ الهاشميِّ لهُ اقتداءٌ ❖❖❖ فقد ذاقوا المنونَ ولمْ يواطُوا

بنو تيميَّةٍ كانوا فباتوا ❖❖❖ نجومَ العلمِ أدركها انهباطُ

ولكنْ يا ندامةَ حاسديهِ ❖❖❖ فشكُّ الشركِ كانَ بهِ يُماطُ

ويا فرحَ اليهودِ بما فعلتم ❖❖❖ فإنَّ الضدَّ يعجبُهُ الخباطُ

ألمْ يكُ فيكمُ رجلٌ رشيدٌ ❖❖❖ يرى سجنَ الإمامِ فيُستشاطُ

إمامٌ لا ولايةَ كانَ يرجو ❖❖❖ ولا وقفٌ عليهِ ولا رباطُ

ولا جاراكمُ في كسبِ مالٍ ❖❖❖ ولم يُعْهَدْ لهُ بكمُ اختلاطُ

ففيمَ سجنتموهُ وغظْتموهُ ❖❖❖ أمَا لجزا أذيَّتِهِ اشتراطُ

وسجنُ الشيخِ لا يرضاهُ مثلي ❖❖❖ ففيهِ لقدرِ مثلكمُ انحطاطُ

أما واللهِ لولا كتمُ سرِّي ❖❖❖ وخوفُ الشرِّ لانحلَّ الرباطُ

وكنتُ أقولُ ما عندي ولكنْ ❖❖❖ بأهلِ العلمِ ما حَسُنَ اشتطاطُ

فما أحدٌ إلى الإنصافِ يدعو ❖❖❖ وكلٌّ في هواهُ لهُ انخراطُ

سيظهرُ قصدُكم يا حابسيهِ ❖❖❖ ونيتُكُم إذا نُصبَ الصِّراطُ

فها هو ماتَ عندكمُ استرحتمْ ❖❖❖ فعاطوا ما أردتم أنْ تعاطوا

وعندَ اللهِ تجتمعُ البرايا ❖❖❖ جميعاً وانطوى هذا البساطُ

IBN ABI TALIB IBNABITALIB WWW.IBNABITALIB.COM +965 99762977 +965 55999986
@IBNABITALIB IBNABITALIB IBNABITALIB1@GMAIL.COM +965 99494122